وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر-2- بوزريعة
كليـــة العلــوم الإنسانيـــة والإجتماعيـــة
- قســـم التـــاريـــخ-

المعـــتـــزلـــة

من خـــلال كتـــاب البيـــان والتبييـــن

للجاحـــظ (ت255هـ/869م)

مــذكــرة لنيـل شهــادة الماجستيــر في التاريــخ الوسيــط
فـــرع:"العالــم الإسلامــي وقـــارة آسيـــا"

إعــداد الطالبـــة:
عــثماني أم الخيــر

إشـــراف الدكتـور:
بشـــار قويـــدر

السنــة الدراسيــة: **1430هـ -1431هـ /2009م- 2010م**

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر -2- بوزريعة
كليـــة العلــوم الإنسانيـــة والإجتماعيـــة
- قســـم التـــاريـــخ-

المعـــتـــزلـــة

من خـــلال كتـــاب البيـــان والتبييـــن

للجاحـــظ (ت255هـ/869م)

مـذكــرة لنيـل شهــادة الماجستيــر في التاريــخ الوسيــط
فــــرع:"العالــم الإسلامــي وقـــارة آسيـــا"

إعـــداد الطالبـــة:
عـثماني أم الخيــر

إشـــراف الدكتـور:
بشـــــار قويـــــدر

أعضاء لجنة المناقشة:

أ/د أحمـــد شريـفـــــي.......................رئيســـا
أ/د قـــويـــــدر بشـار.......................مـقـررا
أ/د عبد العزيز بوكنة.....................عضوا مناقشا
أ/د نبيلة عبد الشكور.....................عضوا مناقشا

السنــة الدراسيــة: **1430هـ -1431هـ /2009م- 2010م**

الإهـــــــــداء

- إلى والديّ الكريمين.
- إلى كل ريفيـــــة ترى في حقيقــة التعلـــــم عبادة الله وشكــــرِه.
- إلى كل قرّاء هذا البحث.

كلمـــة شكـــر

بكثير من الإمتنان وصدْقِ المتعلمة المعترفة بفضل أساتذتها، أُسدي بشكري للثلاثي الزاهــد، طاقم - ماجستير- فرع"العالم الإسلامي وقارة آسيا في العصور الوسطى"بقسم التاريخ - جامعة الجزائر- الدكتور المشرف *بشار قويـــدر* و أخويه: الدكتور *شريفي أحمد* والدكتور *بوكنة عبد العزيز*.

كما أخص عمّتي مباركة على جميل ما قدّمت لي من مساعدة مادية وأخرى معنوية لإتمام البحث، دون أن أتنكر لمساعـدة أخي محمـــد، مع إعترافي بما قدّمته لي مديرة ثانوية فخارعبد الكريم للبنات بمدينة المدية، السيدة "مخالدي حبيبة"ونائبتها السيدة"مداني الباتول"من تسهيلات وعلى تقديرهما لِمَا أقوم به و ذاك كلّه من فضل الله.

مـــقـدمـــة

المعتزلة فِرقة دينية كلامية إسلامية، ظهرت في القرن الثاني الهجري- السابع الميلادي في المشرق الإسلامي، إنطلاقا من مدينة البصرة في العهد الأموي، من بعض رجال الموالي إزاء موقفهم من قضية تسمية وحكم مرتكب الكبيرة، كان النقاش قائما بين الفرق الدينية وقتها وحتى الكلامية.

طوّرت إهتماماتها فيما بعد مع الحفاظ على أصولها الأولى، فكان الجاحظ (ت255هـ/869م) أحد أولئك الذين أثاروا قضية أصولها في إطار تقديمه لجذور الجاحظية، التي أضاف من خلالها للمعتزلة بعضا ممّا جادت به دراساته المعمقة للطبع والإكتساب.

وكان "كتاب البيان والتبيين" أحد تلك الكتب التي دعت إلى تبيُن طريقة الجاحظية ومنها أصول المعتزلة التي تباينت حولها الآراء بين محليتها في التأسيس ومسألة إستيرادها من الأجانب خاصة وأنّ أغلب رجالاتها من الموالي.

ومع الأهمية البالغة للموضوع قديما وحاضرا كان موضع إهتمامي، فارتأيت أن يكون موضوع المذكرة هذه بعنوان"المعتزلة من خلال كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ (ت255هـ/869م)".فكان إختياري لهذا الموضوع كان بناءً على عدّة إعتبارات أهمها:

1. محاولة التعرف على فرقة المعتزلة وما تدعو إليه منذ فترة دراستي في مرحلة الليسانس.
2. رغبتي الجامحة في فهم مسألة القدَرالتي شهدت الدولة الأموية والدولة العباسية نشاط بعض رجالها بين النفي والإثبات بين الإنسان وخالقه.
3. أهمية الموضوع عند الدارسين، فنشأة المعتزلة تثير إلى يومنا هذا جدلا بين الأصل العربي والآخر الأجنبي خاصة اليهودي.

لذلك حاولت الإجابة على عدّة أسئلة من خلال هذه الدراسة المتواضعة، أراها تساؤل كل مهتم بدراسة المعتزلة:

1. ما دور الموالي في الإنخراط في الحياة الإسلامية الدينية والإجتماعية وغيرها، ممّا جعلهم يسعون لإيجاد حلول لقضايا عالقة بها وبالتالي إيقاف الفتن التي شهدتها؟.
2. ما وجهة هذه الفرقة و فروعها فيما بعد بين الزهد و التطرف؟.
3. ما مدى شرعية و مصداقية أساليبها في حلِّ القضايا المعالجة لها؟.
4. ما علاقتها بالعرب خاصة حكّام بني أمية أو بني العباس، ثم مع باقي الفِرق إمّا الدينية السياسية أو الدينية الكلامية وقتها؟
5. ما مدى إنتساب الجاحظية للمعتزلة الأولى رغم أنّها من الجاحظ العربي الأصل؟.

6. ما التطورالحاصل في البنية الإجتماعية للمجتمع الإسلامي ومدى إستفادتها من التراث الوافد مع الدخلاء الجدد في الإسلام وغيرهم، ممّن بقي على دينه واستقرفي الدولة الإسلامية؟.
7. فيم يتمثل دور المعتزلة لإنهاء الفتن و ما مدى نجاعة حلولها و لو نظريا؟.
8. لماذا التأكيد الجاحظي على عروبة أصله في كتاب البيان والتبيين؟، هل يعني ذلك أنّ كل جديد في الدولة الإسلامية وقتها فكريا كان من الموالي فقط دون غيرهم و بالتالي تهميش العنصر العربي في الساحة؟.

وقصد إستكمال جوانب دراستي هذه، إعتمدت المنهج الإستنتاجي بعد عرض مختلف الآراء حول ما قيل عن الجاحظ وغيره من رجال المعتزلة والتوقف عند كل ما أطّلِعُ عليه خاصة وأنّ مصادرهم غير متوفرة وأغلب من كتب عنهم هو من الخصوم، معتمدة على قائمة هامة من المصادر والمراجع حسب علاقتها بالموضوع، بين كتب تراجم وطبقات وغيرها.

أولا – المصـــــــــادر:

كانت كتب الجاحظ أهم المصادرالتي مدّتني بكمٍ هائل من المعلومات حول شخصه وعقيدته وسِيَررجال المعتزلة، من خلال حديثه عنهم أو ذِكْرِ ما كان له من علاقات معهم خاصة الذين عاصرهم أهمها:

1. كتاب الحيوان،في سبعة أجزاء، شرح فيه بواقعية ما توَصل إليه بالتجربة من دراسة طبائع الحيوانات وطبائع غير العرب من أهل الزندقة والشعوبية والدهرية وبعض ما دعوا له، مشيرا إلى مناظراتهم بين الحين والآخر مع أهل الكلام و بين بني العباس مع تدخله بين الحين والآخر لإصدار أحكامه، لتبيين مزاعمهم التي لا تستند إلى سندٍ ديني أوعقلي .
2. كتاب البخلاء، كتاب إجتماعي المحتوى أكثرمنه إقتصادي، إستعرض من خلاله في أسلوب هزلي سلوك بعض الشخصيات المهمة دينية كانت أو سياسية لجمع المادة، طلبا للغنى بدعوى ترْك الإسراف والميل إلى التقشف، فكان بذلك شاهد بيئته، التي تقاسمها تياران أحدهما عربي و الآخر فارسي أجنبي دخيل، لتنشأ معركة بين عادات وتقاليد كليهما ويكون البخل جديد المجتمع العربي الإسلامي المضياف أصلا، ثم إنّ هذا الكتاب فيه ذكر لأقوال رجال المعتزلة.
3. رسائل الجاحظ، في ثلاثة أجزاء، ضمّنها كل ما قام به شخصيا، متحدثا عن كتبه تارة وتارة أخرى عن زياراته وعلاقاته المختلفة مع وزراء عباسيين أو متكلمين وغيرهم، مع ملاحظة أنّ أغلب ما ذكره فيها تكرارًا لما هو في بقية كتبه خاصة الحيوان.
4. كتاب البغال، هوتكملة لكتاب الحيوان على ما يبدو، يعكس ثقافته الموسوعية ويجمع فيه بين العلم والأدب وبين الجدّ والهزل والفلسفة والدين واللغة والكلام، فيه مقتطفات كلامية لرجال المعتزلة، تكررَ ذكرها في بقية كتبه.

5. كتاب المحاسن والأضداد، منسوب إليه فقط، فيه كمٌ من أشعار وأقوال و حِكَم أهل الكلام وغيرها، ما يشبه كتاب "البيان والتبيين" مع تكرار ما ذكر في غيره من أخبار قليلة عن رجال المعتزلة.
6. كتاب المِلَل والنِحل لأبي الفتح عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة548هـ/1153م، هو أخص الكتب مصدرا لمعلومات البحث، يؤرخ فيه للفرق والديانات والملل والنحل من أهل الكتاب وأهل الأهواء والفرق الإسلامية مع إعتداله، إذ يكتفي بذكر ما تدعو له كل فرقة دون تحيز بأسلوب فلسفي، يتطلب من دارسه معرفة سابقة بالفرق والفلسفة قبل البدء في دراسته.
7. كتاب الفرق بين الفِرق لعبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفرائيني التميمي المتوفى سنة 429هـ/1037م، ينتقد فيه بلهجة هجائية شديدة الغلظة كل الفرق، منتصرا لأهل السنّة فقط باعتبارهم أهل حق وليسوا أصحاب بدع وضلالات كالمعتزلة ممّا يجعل دراسته تتطلب الحذر في الأخذ بأرائه المتحيزة.
8. كتاب المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة808هـ/1406م، يُعدّ مفخرة موضوعية طرحا وتحليلا لكل الجوانب المختصة بأهل الكلام وما يتعلق بفهم بيئتهم باعتبارالكتاب يتعرض لكل الموضوعات المساعدة على تفهم المتكلمين كالتصوف والتفسير والتأويل...
9. كتاب طبقات المعتزلة لأحمد بن يحي بن المرتضى ولد سنة764هـ/1453م، أحد الأئمة توفي سنة840هـ/1437م، هو جزء من كتاب المُنْية والأمل في شرح المِلَل والنِحل، يشير صاحبه إلى أنّه يتضمن الإحاطة بعلوم الإسلام جميعها، أصولها وفروعها وإستقصاء الخلاف بين فِرق الأمّة وأكابرالأئمة وقواعدها التي بنيت عليها الفروع والسِيَروالآيات والآثار التي منها منبعها وتبيان المِلَل الخارجة عن الإيمان والردِّ على ذوي الجهالات، يبدؤه من تحديد مفهوم المعتزلة، ذاكرا طبقاتها مع شروحات خاصة بكل معتزلي من رجالاتها بما فيهم رجال القدَرية الأوائل.
10. كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة346هـ/957م، هوكتاب تاريخ وحضارة، يؤرخ فيه من خلال ترجمات لشخصيات سياسية من خلفاء ووزراء وأيضا فقهاء وأدباء، خصّ الجاحظ بصفحات، ذاكراعلاقته بالخلفاء والوزراء من دولة بني العباس و ذكرملخص لبعض كتبه وما قيل عنها وأسلوبه فيها.
11. كتاب تأويل الحديث لأبي محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري213هـ/828م-270هـ/883م، يورد فيه حجج كل الفرق الكلامية أو الدينية في الإنتصار لمقولاتها، سواء من أحاديث نبوية أو مأثورة مع ذكر إسنادهم والطعن فيه غالبا بين مُكذب له ومُحَسِنْ له وكذا مدى التناقض القائم في بعض الأحاديث ومبطلاتها من قرآن أو مشاهدة أو حُجّة عقلية أو أحاديث يخالفها الإجماع، يشبه في طريقة عرضه أسلوب البغدادي في الردِّ على مَنْ أوْرَدُوا الأحاديث سواء الرافضة أو المعتزلة، متبعا طريقة التساؤل حول مضمـون ما قيل، مجيبا في الوقت نفسه بحُجَج مِنْ حديثٍ أو عقلٍ وغيرهما مثْبعا الأخبار بالسند.

12. كتاب الفهرست لمحمد بن إسحاق المتوفى سنة380هـ/991م، جمع فيه أخبارًاعن مختلف الأمم من العرب والعجم، ذاكرا أصناف علومها وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم ومبلغ أعمارهم ومناقبهم منذ إبتداء كل علم حتى سنة377هـ/988م والكتاب في عشر مقالات لفنون النحو واللغة والأخباروالسِيروالشعروالكلام والمتكلمين والفقهاء والفلسفة والمذاهب والإعتقادات، فكانت مادة البحث موزعة على كل مقالاته.
13. كتاب تحفة الوزراء لأبي منصورعبد الله بن محمد بن إسماعيل الثعالبي المتوفى سنة469هـ/1077م النيسابوري مولدا سنة350هـ/962م، ضمَّن فصوله وأبوابه أخبارا طريفة عن الوزراء ونُكت ألفاظهم وبعضا من أقوالهم وتواقيعهم وهوبذلك يعرض فيه جانبا من جوانب الحضارة الإسلامية ويعالج قضايا مهمة لها مساس مباشر بالحياة السياسية والعامة للمجتمع الإسلامي، له سبْــق على الماوردي في التعــريف بالوزارة وأنواعها وشروطها لذلك إعتمادي عليه كان قليلا، لأنّ حظ الوزراء كان في العهد العباسي أكثر.
14. كتاب القدَر للحافظ الكبيرأبي بكرجعفر بن محمد بن الحسن المستفاض الفرياني وهو أحد القضاة مات سنة1300هـ/1884م، هو كتاب حديث وأثر وعقيدة وإستدلال وإيمان، عدّد فيه للحديث أو للأثرالواحد الروايات بأسانيد مختلفة، لإثبات المتن وتوثيقه وتقويته، تحدَّث فيه عن التوحيد وعلاقة الإنسان بالقضاء والقدر وما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وإبن عباس وأهل القدر والخليفة عمر بن عبد العزيز والقدرية.
15. كتاب العِقد الفريد لصاحبه إبن عبد ربه246هـ/860م-328هـ/940م الأندلسي الأصل، عبارة عن متفرقات من حِكَمٍ وأمثال وأقوال، تُمثِل بحق جواهرًا كما ذكر في تقديمه، أخبار البحث متناثرة في أجزائه معظمها في الجزء الثاني منه ويشبه في أسلوب الطرح كتاب جواهر الأدب للأصفهاني.
16. كتاب سِيَّرأعلام النبلاء للذهبي(محمد بن أحمد)673هـ/1274م-748هـ/1348م، في ثلاثة وعشرين جزءً، موضوعه ترجمات لشخصيات سياسية ودينية وأدبية وزُهّاد وقرّاء وفلاسفة...أطال في ترجمة البعض كالإمام أحمد بن حنبل، أمّا الشخصيات الكلامية التي تخص البحث، فخصَّها بترجمات قصيرة، يذكر ما للشخصية الواحدة ويبدي رأيه أحيانا خاصة فيما يتعلق بشخصيات المعتزلة التي وزّع ترجماتها على معظم أجزائه، ما دفعني إلى الإطّلاع علي معظم أجزائه.
17. كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة356هـ/976م، كتاب للأدب خاصة الشعرمع ترجمات تتخلل أبياته، يـؤرخ لحياة أكثـرية شعراء العصرين الأمـوي والعباسي ويذكرأصلهم ومناحي شعرهم وعلاقتهم بالخلفاء والوزراء وببعض الفقهاء خاصة شعراء الموالي، أبْرَزَ فيه دور بعضهم في إشاعة الزندقة.
18. كتاب تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة911هـ/1505م، فيه ترجمات لحكام الدولة الإسلامية من الخلفاء الراشدين إلى نهاية العهد العباسي، إستقى معلوماته من الذهبي وغيره، توسّع في ذكرترجماته لِمَا يخص الشخصية من الطفولة حتى الوفاة صفاتا ومناقبــا، تتخللها معلومات البحث.

19. كتاب البداية والنهاية لإبن كثيرالإمام الحافظ عماد الدين أبوالفدا إسماعيل بن كثيرالقرشي الدمشقي(701هـ/774هـ-1302م/1373م)، مادة البحث موزعة فيه على أجزائه الرابع والخامس وبـداية السـادس، له نفس منهج إبن الأثير في الكامل في التاريخ، إهتم بالجانب الحضاري بشكل ضمني، يتطلب التمعن أثناء الإطلاع عليه.
20. كتاب الكامل في التاريخ لإبن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الشيباني 555هـ/1160م-6360هـ/1233م الموصلي، كتاب أكثره حضاري، إستفدت من الجزأين الرابع والخامس مع العلم أنّ الجانب الحضاري فيه موجود خاصة ضمن المتفرقات وهو أسهل في دراسته من كتاب تاريخ الملوك للطبري رغم كثرة جانبه الحضاري معلوماتًا.
21. كتاب فتح الباري في شرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني773هـ-856هـ/1373م-1453م، يتكون من ثلاثة عشرمجلدا، يستعرض فيه الأحاديث في مختلف مناحي الحياة وهوكتاب عقيدة، إستفدت أكثرمن جزئه الثاني عشر الخاص بالحدود.

ثانيا- المراجـــــع:

أغلبها أدبية و فلسفية، كرسالة حسن جار الله زهـدي فـي المـعتزلة، ترجم فيها لكل رجالاتها مع شرح لعقيدة كل منهم، أمّا شارل بللات المشتشرق الفرنسي، ذكر كل ما يخص الجاحظ في البصرة، شارحا ظروف بيئته من كل الجوانب، أمّا تاريخ الأدب العربي لحنّا الفاخوري، فخصّ له صفحاتًا كثيرة من حياته إلى وفاته، ذاكرًا مؤلفاته وعلاقاته.

في حين أفرد له كامل عويضة في كتابه الجاحظ دراسة مُوَّسعة لتفاصيل حياته ووسطه وهو نفس الطرح الذي إعتمده طه الحاجري في كتاب الجاحظ وآثاره، أمّا كتاب مذاهب الإسلاميين، فاستعانتي به كانت قليلة جدًا، كون مؤلفه عبد الرحمن بدوي ذهب إلى نقل ما في كتاب الشهرستاني، ثم كتاب البغدادي دون إضافة، في حين تفرقت معلومات المعتزلة على باقي المراجع المستعملة.

أمّا المراجع الأجنبية، فاكتفيت بثلاثة وللأسف لم تضف شيئا عمّا ذكرْته الكتــب العربيـة، إذ نقلت بالخصوص ما في كتاب طبقات المعتزلة دون إضافة، في حين إستعنت بالمعجم الفلسفي الذي كان مستحيلا أن أطّلع على كتاب الشهرستاني بدون إستعماله خاصة فيما يخص العقيدة...

وأمّا الخطة التي اتبعتها لإنجازهذا البحث، فقد قسَّمته إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

الفصـــــــــل الأول:

خصّصته للتعريف بالجاحظ ومراحل حياته منذ الصغر حتى الوفاة سواء في البصرة أو بغداد، شارحة لعلاقاته مع الخلفاء والوزراء و بعض الكتّاب، مستعرضة لأهم فتن عصره الكلامية التي تحولَت في غالبها إلى مواجهات بين السلطة العباسية الحاكمـة و المتسببن فيهــا.

و كان الجاحظ بمعاصرته لها شاهدا عليها، دون أن أنسى دورالفرق الدينية السياسيـة و كذا الكلامية في إيجاد تهدئة للأوضـاع الفِتَنية مع التركيزعلى سلبية أغلب أهل التصوف .

الفصـــــــل الثاني:

كان جامعا بين العقيدة المتمثلة في ما أضافه من جديد إلى أصول المعتزلة الخمسة محاولة تحليلها ونقدها بما تركه من أدلة في كتبه من شواهد، ثم تطرقت إلى مجال التأليف عنده ودواعيه وأهم ما قيل عن كتبه بين النظرة الإستشراقية والمحلية العربية.

مقتصرة على دراسة تحليلية لكتاب "البيان والتبيين" كنموذج لإجادة الجاحظ في مجال الكتابة من جهة وكأساس في إنجاز مذكرتي إذ الموضوع هو المعتزلة من خلاله، فلخصْتُ أهم محتوياته وحلّلتها ونقدتها إلى جانب دراسة أسلوبه.

الفصــــــــل الثالث:

ناقشتُ فيه أفكارالكتاب الخاصة بأصل المعتزلة ومنها الجاحظية، بدءً من مدارس الزهد وأهم الزهّاد كالحسن البصري وكذا الوُعّاظ بما فيهم معبد الجهني وغيلان الدمشقي ونوعية العلاقة بينهم وبين خلفاء بني أمية، مناقشة لحقيقة رفض حكّام بني أمية لمن أسموهم بالقدرية متعرضة إلى ذاك التطورالحاصل بعد موقف واصل بن عطاء من مسألة تسمية مرتكب الكبيرة وهو ما طوَّر القدرية إلى معتزلة عقلية.

حاولتُ مناقشة نشأة أصول الواصلية نواة أصول المعتزلة و إنتشارها خارج البصرة والمواقف المتعددة منها، ثم علاقة واصل بالشاعر بشار بن برد ومدى إستعماله للشك في تبيُنِ حقيقة ما كان يُدْعى وقتها زندقة، لأستنتج مدى نجاعة الإصلاح الواصلي للمجتمع الإسلامي وأوضاعه المتردية في العهد الأموي وعلاقة الواصلية بالجاحظية القائمة على أساسه.

الفصــــــــل الرابع:

أفردته لنشاط المعتزلة ببغداد أي في ظل الدولة العباسية، مستعرضة لأهم ما قدَّم عمرو بن عبيد من جديد للمجتمع الإسلامي، إنطلاقا من قصر الخليفة أبي جعفر المنصور والمواقف

المتعددة من جديده، بدءً من علاقته بواصل فأهل السنّة، ثم التركيز على مدى إستعمال عمرو أيضا للشك قصد ربط الجاحظية بما دعى إليه.

دون أن أنسى بعض شخصيات المعتزلة ممّن تتلمذ لهم الجاحظ، لأقِفَ على حقيقة عدم تقييد الجاحظ التلميذ لأخبارهم في كتاب "البيان والتبيين" هذا وإكتفائـــه بالإشارة لهم من خلال دورهم في إنتعاش البلاغة والسُمُوِ بالبيان العربي إلى درجة المثالية والعبقرية اللسانية في الإبداع الكلامي الذي كان الخليفة المأمون مبهورًا به في مجالسه، يلتف حوله الوزراء والمتكلمون والقضاة وغيرهم، يتجاذبون معه أطراف الأحاديث وقيمة الكلام في المناظرات حتى صار يفكر فِكْرَ معتزلي.

وختمت هذا البحث بما توصلت إليه من نتائج كأجوبة لأسئلة، كنتُ طرحتها في المقدمة.

الصـــــعوبـــات:

لم يكن الخوض في موضوع البحث بالشيء السهل على الإطلاق، لصعوبة فهم أسلوب كتاب الجاحظ، بدءً من صعوبة الحصول على المعلومة مباشرة، بل ضرورة قراءة كل الكتاب الواحد خاصة كتب الأدب العربي لأنّها غير مرتبطة بسنوات مثل كتـب التاريخ التي وإن إرتبطت بسنوات، قلّت معلوماتها الحضارية، ما دفعني إلى السهر أكثر أيام إنجاز البحث.

- رُقّي مستوى لغة الجاحظ في كتبه، ألزمني إستخدام معجم اللغة العربية وللأسف لم يحو كل الكلمات، فزادني غيظا، خاصة وأنّي وجدت نفسي أنجزمن خلاله بحوثا وليس بحثا للموسوعية التي تميز بها الجاحظ وبدت جلية في كتاب "البيان والتبيين".

- عدم ترتيب موضوعات كتاب"البيان والتبيين"، دفعني إلى ضرورة ترتيبها، بعد أن أنجزت له فهرس للأعلام والأماكن، ثم ترجمت لأغلب شخصياته المذكورة وصنّفتها حسب التخصص، ثم حسب العقيدة، ما جعلني أُصِرُعلى إختيار الموضوع كبحث، فهو يستهل السهر والتعب حقا.

- معلومات الكتاب حول حياته والمعتزلة في العهد الأموي تتطلب جهدا وطاقة أكبر للوقوف عليها ضمن محتوياته ولكنّها شحَّت في العهد العباسي لأسباب ذكرْتها في المتن، ما جعلني أكمل الفصل الرابع بصعوبة كبيرة.

- ظرف إرتباطي بعملي في الثانوية، أبعدني عن إرتياد مكتبات العاصمة لولا فضل الله بوجود معهد اللغة والأدب العربي بجامعة يحي فارس بالمدية ومكتبة أحد المساجد والثانويات القديمة التأسيس بمدينة المدية.

الطالبة:عثماني أم الخير
بتاريخ:16جماي الأولى1431هـ/2010/4/30م

الفصل الأول

الجاحـظ

حيـــاتـــه ومظاهر بيئتـــه

الفصـــل الأول

حيــاة الجاحظ ومظاهر بيئتــه

1- النشــأة والتكويــن:

أ- وجوده في مدينة البصرة:

1- نسبه وإسمه وصفاته

2- طفــولته

ب- وجوده في مدينة بغداد:

- علاقاته بالسلطة العباسية

ت- وفاتـــــه

2- بيئته وظروف عصره:

أ- الفتن السياسيـــــة

ب- الفتن الإجتماعية والإقتصادية

ت- الطبقات الإجتماعية وتأثيرها

ث- الفتن العقائدية

ث- الفرق الدينية السياسية والكلامية:

1. الفرق الدينية السياسيـــــة
2. الفرق الدينيـــة الكلاميــة

ج- التصوف وأثره في المجتمع الإسلامي

قدَّمت الأمَّة العـربية من إحـــدى أُسر ِقبيلة كنانة، من مدينة البصرة بالـذات للعالم أجمع، أديبا، صار حُجَّةً في أدبه وسلاسة لُغته العربية وحُسن مداركه، التي تجعل القارئ لِمَا خلّف من كتابات، يتعلم كيف يفكر قبل أن يتعلم الأدب منها.

والدارس لكتبه يدرك أنّه أمام جبال معرفية عقلانية، شملت كل المجالات، كُلُّها يُوصل إلى هدف واحد، يتمثل في ضرورة النظروالتدبُر، قبل صياغة الأحكام الضرورية، لبناء قواعد أخلاقية أو سياسية، دينيـــة، إجتماعية، قـد تحتمي بها كل الأمم و ليست حكرا على أُمَّتنا فقط، ممّا يُكسب أدبياته صفة العالمية.

إنّ الحديث عن حياته، يتطلب إرتياد كل مكان في البصرة العراقية، لأنّ أديبنا هذا لم يكن حبيس كرسي عرش أو صاحب سلطان فقط، بل نجده مع العامّة والخاصة على حد سواء ومع أهل الهند و حِكَمِهم و أهل اليونان و خُطبهم ومع المجانين والحمقى و منابع الغباوة عندهم ومع اللصوص و مصادر حِيَلهم...

يدرس طبائع كل شئ، ليصل إلى حقائق، يهتدي بها لسُبُلٍ، قصد حل مشكلات المجتمعات و أولها إنهاء فتن المجتمع العربي الإسلامي.

1. من هوالجاحظ؟، من أي القبائل هو؟.
2. كيف كانت بداياتـــــه؟.
3. غنيـــا كان أم فقيـــرا؟.
4. محبـوبا كان أم منبـــوذا؟.
5. ما ظروف تعلُّمـــه؟ و من ساعـده على ذلك؟.
6. كيف إنتقل من الشارع العباسي و أســـواقه إلى القصر؟.
7. ما مواصفات البيئة التي صقلت فكره و أسْهمت في تخريج هذا العلامة الفريد في مشمولات فنونـــــه؟.

تلك أسئلة أحاول الإجابة عنها في مضامين عناصرالفصل الأول/ إن شاء الله.

حياة الجاحظ ومظاهربيئتـه:

1- النشـــأة والتكويـــن:

تميزت حياة الجاحظ بخصائص، إنفردت بها، لتُكَوِنَ شخصيته من طراز فريد، مثّلتها مرحلتان: الأولى إرتبطت بالبصرة والثانية ببغداد.

أ- وجوده في مدينة البصرة:

1- إسمه ونسبه وصفاته:

هوعمرو بن بحر[1]، أختلف في أصله، بعضهم ذهب إلى أنّه إفريقي، لسُمرة لون وجهه[2] التي ورثها عن سواد جده[3]، لكني أستبعد هذه الحُجّة، فليس كل أسمرالبشرة إفريقي الأصل وقال البعض الآخر:"كناني[4] فقيمي[5] الأصل"[6] وقيل:كناني ليثي[7]، من صُلبهم وبالتالي عربي وقيل:هو مولى [8] لهم[9] وهذا رأي حُسّاده، ربّما للتحقيرمن شأنه، تزّعم هذا الرأي البغدادي الذي قال:بزعم عمرو بن بحر، بأنّه من قبيلة كنانة "إنْ كنْتَ عربيًا، فلِمَ صنَّفتَ كتاب فضل الموالي على العرب؟ "[10].

(1) إبن المرتضى(أحمد):طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة ديقلد قلزر، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1960،ص67.
(2) الحموي(ياقوت):معجم الأدباء، دار المأمون، مصر،ج16، ص74.
(3) الذهبي(الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكرت748هـ):سيرأعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 1405هـ/1906م، ج11، ص527. ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص74.
(4) كناني، كنانة، قبيلة من مُضر، وهوكنانة بن خُزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضر، وبنو كنانة من تغلب بن وائل، قريش تغلب. أنظر، إبن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، م13، ص13.
(5) فقيمي، فخذ من قبيلة كنانة، ينتهي إلى مالك.
أنظر، القبائل النزارية، الملحق رقم11، ص166.
(6) إبن كثير(الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي):البداية والنهاية، راجعه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمد تامر، محمدعبد العظيم، شريف محمد، محمد سعيد محمد، دارالوعي للنشروالطبع والتوزيع، الجزائر2006م ، ج6، ص76.
(7) ليثي، فخذ من قبيلة كنانة العربية، ينتهي إلى عبد مناة .أنظر، القبائل النزارية، الملحق رقم 11، ص166.
(8) مولى، الرب، الملك، السيد، المعتق، الناصر، الحليف، العقيد، العبد.
أنظر، إبن منظور:المصدرالسابق، ج15، ص409.
(9) إبن المرتضى:المصدرالسابق، ص68. ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص74.
(10) البغدادي(عبد الظاهر بن ظاهر بن محمد الإسفرائيني التميمي ت469هـ):الفرق بين الفرق، تحقيق وضبط وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد، دارالمعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص177.

ولد في مدينة البصرة[1]العراقية عام150هـ/767م، لقوله:"أنا أسَّنُ من أبي نُوّاس[2] بسنة، وُلدْ تُ في أول سنة خمسين ومائة ووُلد في آخرها"، من أبٍ يدعى محبوبا[3]، مولى أبي القُلَمس عمرو بن قلع الكناني، ثم الفقيمي، أحد النسَّابين.

تورد المصادر خبرا عن جدٍ له، هو فَزَارة[4] ووجود إبن أخت له، يدعى يموت بن يزْرع[5] وقيل: إبن المُزَرَعْ[6]، من أهل العلم والمعرفة والجدل والشعر، سكن طبرية من بلاد الأردن، حتى مات بها، مخلفا ولدا، سمي مهلهل، من فحول شعراء القرن الرابع الهجري[7] ولعّل إيراد المصادر لهذا الخبر، التنبيه منها لمكانة عائلته العلمية والأدبية، لذلك كان الجاحظ أحد نجبائها.

كُني عمرو بن بحر بأبي عثمان ويبدو أنّه لم يكن راضيا بهذه الكنية، بدليل أنّه قال:"نسيت كنيتي، ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي، فقلت لهم:بِمَ أُكنى؟ فقالوا:أبوعثمان[8] وفي نفس الوقت، كان يفضل تسمية عمرو، حتى ألّف كتابا فيمن سُمي من الشعراء عمرًا[9]، حتى يثبت ربّما أنّ للإسم علاقة بثقافة حامله ورغم ذلك فقد عُرف بالجاحظ ، لبروز حدقيتي عينيه الواسعتين[10].

---

(1) البصرة، مدينة عراقية، أسسّها عتبة بن غزوان16هـ/637م زمن الخليفة عمر، لتكون مركزا للجيش، مكانها قرب النهر. أنظر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة بصرة، م3، ص669.

(2) أبونـــــــوّاس، أبــوعلي الحسن بن هانئ الحكمي (إبن وهب)، ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة، أخذ النحو عن أبي زيد الأنصاري، مدح الخلفاء والوزراء، له أشعارالمجون والخمر، خاصة أيام هارون، سجنه الخليفة الأمين196هـ/812م. أنظر، الذهبي:سير النبلاء، م9، ص ص279،280.

(3) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص74. الذهبي:المصدرالسابق، ج 11، ص526.

(4) ياقوت الحموي:المصدر السابق، ص74.

(5) المسعودي(أبو الحسن بن علي):مروج الذهب و معادن الجوهر، تقديم محمد السويدي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر1990م، ج4، ص238.

(6) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص74.

(7) المسعودي:المصدرالسابق، ص239.

(8) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص67. ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص74.

(9) ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص75- 109.

(10) ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص74.

تتّفق المصادرعلى دمامة خَلْقه ويعترف هو نفسه بذلك بقوله:"ذُكرتُ لأميرالمومنين المتوكل[1]، لتأديب بعض ولده، فلمّا رآني إستبشع منظري، فأمرَ لي بعشرة آلاف درهم وصرفني وخرجت من عنده"[2] وهذا يؤكد عدم تولُد عقدة النقص عند الجاحظ من دمامته من جهة ومن جهة أخرى، فمسألة الحُسن والقُبح تختلف من شخص لآخر.

ربّما سبب رفض الخليفة المتوكل له، تخوفه على عقيدة أبنائه، كون الجاحظ كان معتزليا، ثم لا يُعقل أن يُنَكِل الخليفة بالمعتزلة وفي نفس الوقت يؤدب واحد منهم أولاده والذي لا يمكن إغفاله على المتوكل، أنّه حتما كان له علم ببشاعة منظره، خاصة وأنّه كان موضوع سُخرية بعض شعراء أهل السنَّة[3].

قذفه الساخرون منه أيضا في أخلاقه كمسلم، فتجاوزوا به إلى درجة المُنحل[4] ورغم ذلك جماله تمثل "في الذكاء و سرعة الخاطر والحفظ، ما أشاع ذكره وعلا قدره واستغنى به عن الوصف[5]"، حتى قال أحد مناوئيه:"أثق بظرفه ولا أثق بدينه"[6].

ويشك إبن كثير في ما قيل في أمرعقيدته، فيورد، قيل:"يا ويح من كفَّره الجاحظ"، ثم يصفه بالزنديق[7] وأجمع الكل على القول:" أنَّه إنْ هزل زاد على مَزْيَد حبيبَ القلوب ومزاج الأرواح"[8].

---

(1) المتوكـــــل، الخليفة جعفرأبوالفضل بن المعتصم بن الرشيد، أمه إسمه شجاع، ولد سنة205هـ، أو207هـ/821م/823م، بويع له بعد الواثق، أظهر ميلا لأهل السنّة ونصرأهلها ورفع المحنة وبقي حكمه إلى سنة 247هـ/861م.
أنظر،السيوطي (الإمام جلال الدين):تاريخ الخلفاء، خرّج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد، دارالبيان الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى 1426هـ/2005م، ص260 .
(2) المسعودي:مروج الذهب، ج4، ص120ومابعدها.
(3) قال أحد الشعراء:
لَوْ يُمْسَخُ الخِنْزِيرُ مَسْخًا ثَانِيًا   مَا كَانَ إلاَّ دُونَ قُبْحِ الجَاحِـــظِ
رَجُلٌ يَنُوبُ عَنِ الجَحِيمِ بِنَفْسِهِ   وَهُوَ القَذَى فِي كُلِ طَرْفٍ لاَحِظِ
أنظر، البغدادي:الفرق بين الفرق، ص178.
(4) إبن كثير:البداية والنهاية، ج6، ص76.
(5) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص74.
(6) ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص80.
(7) إبن كثير:المصدرالسابق، ص76- 473.
(8) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص98.

2- طفولتـــه:

نشأ الجاحظ يتيما، فقَدَ أباه في حداثة سنه[1]، تعُوله أمه وقيل: أنّه شُوهد يبيع الخبز والسمك بسيْحان[2] أحد أنهارالبصرة، فسَّر البعض ذلك لجلب قوة يومه[3] وهو دليل على عدم إهتمام خلفاء بني العباس بأمرالرعية وتصويرًا لعذاب الطفل العربي المسلم، فكيف يكون عمل بسيط كهذا مصدرا لإعالة أسرة؟، إلاّ إذا كان هناك مصدرآخر، سكتت المصادرعن ذكره ويجوز أن يكون العمل لإعالته هو شخصيا، شعورا منه بروح المسؤولية.

لوحظ الجاحظ مترددا على المِرْبد أحد أسواق البصرة التجارية الكبيــرة منذ حداثة سنّـِه، يتلقى الفصاحة وأساليب التعبير شفاهًا عن خطباء العرب بها، بعد تعلمه للكتابة والقراءة في أحد كتاتيب البصرة[4]، التي كثُرت بها مجالس الزُهّاد والقصّاص، محاولين بعث العاطفة الدينية، بإيلاء الإهتمام للجانب الروحي[5]، فكان الجاحظ أحد المتأثرين بتلك المجالس وزاد حضوره المربد تهيئة فـكرية، فأثـرعن الجارود[6] قــوله: "عليكم بالمــربد، فإنّه يطرد الفكر و يجلو البصر"[7].

كان المِرْبد أساسيا للتأديب والتهذيب اللغوي، ممّا أوجب على كل متأدب إرتياده، "ليُهذب من سليقته اللغوية التي كادت تقتلها العجمة"[8] و يبدو لي أنّ إرتياد المساجد أو المِرْبد أو الكتاتيب هو إنعكاس لثقافة العصر، التي كانت وقتها تبدأ بحفظ القرآن.

---

(1) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص68.
(2) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص74.
(3) حنا الفاخوري:الجاحظ، دارالمعارف، مصر، الطبعة الرابعة 1971م، ص16.
(4) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص75.
(5) طه الحاجري:الجاحظ (حياته وآثاره)، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية 1969م، ص103.
(6) الجارود، إبن اليزيد، الفقيه الكبيرأبوالضحاك العامري، النيسابوري يقال له: أبوعلي، ولد في خلافة هشام عام 120هـ/738م وارتحل في طلب العلم وهو من كبارأصحاب أبي حذيفة الملازمين له، توفي عام203هـ/819م، قيل: "حديثه متروك".
أنظر،الذهبي:المصدرالسابق، ج9، ص424 ومابعدها.
(7) الجاحظ:البيان والتبيين، دارإحياء التراث العربي، بيروت، لبنان1968م، ج1، ص229.
(8) طه الحاجري:المرجع السابق، ص101.

كما أرى أنّ هناك رضًى من أمّه لتعليمه عكس ما أُشيع مبالغة في درجة فقره، كان لا يجد ما يسُدّ به رمق جوعه، فجاءته أمه يوما بطبق من الكراريس، فلمّا سألها قالت: "هذا الذي تجيؤني به "[1] وهذا يؤكد ما ذهبتُ إليه من أنّ عائد عمله البسيط كان للتعلم، حتى خرج مُغتمًّا وجلس في الجامع إلى مُويس بن عمران أحد بخلاء البصرة صديقه، الذي قدّم له المساعدة[2].

تبدو المبالغة في درجة تفقيرالجاحظ، حتى إغتمَّ من شدة جوعه، فيها إهانة للكرم العربي ومن قراءة تحليلية للرواية السابقة يظهرأنّ تعليم الفقراء في البصرة كان صعبا غير مجاني، ثم كيف يمكن لجائع كهذا أن يطالع كتبا كثيرة خاصة وأنّ الجسم والعقل بحاجة إلى طاقة حرارية أساسها الغذاء؟ وكيف نعيبُ فقره وهو يشيد بدوره في تعلُمه "عيبُ الغِنَى أنّه يُوَرثُ البلادة وفضيلة الفقرأنّه يبعث الفكر و إن أنْتَ صحبْتَ الغنى بإهمال النفس أسْكرَكَ الغِنَى وسُكرُ الغِنى سُبَّةٌ المُستأكلين وتُهمة الخدَّاعينَ"[3].

كان الفقر دافعا لتعلُم الجاحظ، إذ الحاجة فتحت له أبواب التفكير والتدبُرلإزالته، بينما الغنى يفتح أبواب الطمع والجشع أكثرعند أصحابه بشكل نسبي ويمكن إعتبار الرواية السابقة بداية لتحول الجاحظ نحو الإسترزاق بنفسه من كتاباته ولا يُفهم من ذلك أبدًا تنكرالأم لتعليم إبنها[4] للحصول على الكسب السريع[5] .

ذهب البعض إلى نهيها له عن طلب العلم و لوكان كذلك لأحرقت الكراريس، لذلك أرى أنّها أرادت تنبيهه إلى تنظيم وقته بين التعلُم والعمل لتحمُل المسؤولية خاصة وأنّها آيلةٌ للكبر وهوما عاد عليه بالفائدة مستقبلا، فكانت كتاباته مقرونة بأعطيات مالية من الخلفاء والوزراء.

كان وضع البصرة في كل المجالات أكبـر مُثقـف له، إذ نَهَـل من ثقافتها في أول حياته، تعلّم بعض آي القرآن وحفظها، كما كان له تقبلا للأخذ من مجالس المسجديين للعلوم الإسلامية من حديث وتفسير وكان على ما يبدو يُراهن المسجديين على أن يكون الشخصية التي رأوها مستحيلة الإيجاد، فصرّحوا بقولهم: "من تمنّى رجلا حسنَ البيان، فقد تمنّى شيئا عسيرا"[6].

---

(1) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص68.
(2) قيل:أنّ مويس بن عمران لمّا حدثه الجاحظ بشأنه، أدخله منزله وقرّب إليه الطعام وأعطاه خمسين دينارا، فدخل السوق وإشترى الدقيق، حمله الحمّالون إلى داره، فأنكرت الأم عليه ذلك. أنظر، نفسه.
(3) الجاحظ:البخلاء، وضع حواشيه محمد عبد الكريم النمري، دارالكتاب الحديث، القاهرة، ط3،1426هـ/2003م، ص114.
(4) عبد السلام هارون:مقدمة الكتاب، الجاحظ ، الحيوان، ج1، ص05.
(5) بلقاسم الغالي:الجانب الإعتزالي عند الجاحظ، دارإبن حزم، الطبعة الأولى 1420هـ/1999م، ص43.
(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص165.

إستزاد الجاحظ بما في البصرة من خبرة بعض المعلمين الذين وإن نقد بعضهم بالحُمـق، فقد إحتفظ بأسماء بعض من أثَّـرَ منهم في مساره العلمي وربّما فيمن توفرت عندهم الموسوعية، فذكر"وما كان عندنا بالبصرة رجلان أرْوَى لصُنوف العلم ولا أحسن بيانا من أبي الوزيـــر وأبي عدنـــان المعلمــين من أول ما أذكــرمن أيام الصبا"[1]، سمـع من أبي عبيــدة[2] الأصمعي[3]، أبي زيد الأنصاري[4]، أخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش[5] وكان صديقا له[6].

لم يكن الجاحظ جامعا للمعارف فقط، بل أيضا ناقدا لبعض معلميه وأساتذته ومن ذلك ما خصّ به أستاذه أبي الحسن[7] حول إستفهامه عن عدم إفهامه لمحتويات كتبه في النحو وهو ما يبرز مدى حرص الجاحظ على فهم ما يقرأ حتى وإن كان صعبا ويعيب ذلك على أساتذته الذين كانوا ميّالين إلى التكسب أكثر وهو ما يجعله يتجه في كتاباته نحو التبيين والإفهام و يؤكد عليهما في كتبه.

ذهب البعض إلى القول بأنّ الجاحظ كان يكتري دكاكين الـــورَّاقين ويثبُت فيها للنظر لكن يبدو لي أنّ الأمر عادي، لأنّ دكاكين الوراقة في البصرة كانت محل المكتبات من جهة ومن جهة أخرى ليس معنى ذلك أبدا أنّه كان مُحبًا للعزلة بعيدا عن أهله.

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص171.

(2) أبوعبيـــدة110هـ/728م-208هـ/824م، هوأبو عبيدة النحوي، معمر بن المثنى، مولى تيم بن مرة، لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه، حسب رأي الجاحظ.
أنظر، الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص230.

(3) الأصمعــي122هـ/740م-216هـ/831م، الإمام، حُجّة الأدب، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصبع بن مظهر بن عبد شمس، كان يتقي أن يفسر القرآن، مات عـام215هـ/830م.
أنظر، الذهبي:سيرأعلام النبلاء، ج10، ص175ومابعدها.

(4) أبوزيد الأنصاري120هـ/738م-214هـ/829م، أبوزيد سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبوزيد الأنصاري البصري النحوي، صاحب التصانيـف، ولد عام120هـ/738م، عاش ثلاث وتسعين سنة.
أنظر، الذهبي:نفس المصدر، ج9، ص494ومابعدها.

(5) أبوالحسن الأخفش المتوفى عام 210هـ/826م، إمام النحو أبوالحسن سعيد بن مسعدة البلخي، ثم البصري، مولى بني مجاشع، أخذ عن الخليل بن أحمد، ولزم سيبويه، قيل: أنّه كان قدريا، له كتب في النحو والعروض ومعاني القرآن، مات عام 210هـ/826م.
أنظر، الذهبي:نفس المصدر، ج9، ص206وما بعدها.

(6) ياقوت الحموي، المصدرالسابق، ص75.

(7) قال الجاحظ لأستاذه أبي الحسن:"أنت أعلم الناس بالنحو، فلِم لا تجعل كتبك مفهومة كلها؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها؟ وما بالك تُقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ فقال:"أنا رجل لم أضع كُتُبي هذه لله وليست هي من كتب الدين ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه، قلّت حاجاتهم إلي فيها وإنّما غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعُوهم حلاوة ما فهموا إلى إلتماس فهم ما لم يفهموا وإنّما قد كسبت في هذا التدبير إذ كنت إلى التكسُب أذهب ولكن ما بال إبراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثم يأخذها مثلي في موافقة وحُسن نظره وشدّة عنايته ولا يفهم أكثرها".
أنظر، الجاحظ:الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي 1949م، ج1، ص ص91،92.

الواقع أنّ ما كان يطّلع عليه لا يمكن حمل كتبه إلى منزله خاصة وأنّ الثقافة التي كان يزود بها نفسه وقتها هندية وفارسية، مدونة إمّا على خِرق الحرير الأبيض الهندي أو على الجلود المدبوغة، من جلود الجواميس والنحاس وغيرها عند الفرس و بقي الأمر كذلك حتى عهد الخليفة هارون الرشيد[1]، إذ كثُر الورق وفشا حمله، فأمَر الخليفة هارون ألاّ يكتب الناس إلاّ في الكاغد، لأنّ الجلود و نحوها تقبل المحو والإعادة، فتقبل التزوير، بخلاف الورق متى مُحي منه فسد و إن كُشِط ظهر كشطه[2].

ب- وجوده في مدينة بغداد:

دفع حبُّ الإطلاع الجاحظ إلى إرتياد عاصمة الخلافة العباسية بغداد، فانتقل إليها عام 204هـ/820م[3] في عهد خلافة المأمون[4] ، كانت وقتها مركزا ثقافيا وعمرانيا، كثُر زُوّارها وتعددت ثقافاتها وهو ما سيفتح له أبوابا معرفية متنوعة وتوطيد علاقات سياسية مع خلفاء بني العباس ووزرائهم.

-علاقاته بالسلطة العباسية:

إشتهرت بغداد بسوق الورّاقين إذ بلغت حوانيتها في القرن الثالث الهجري أكثرمن المائة وصارت مجالس العلماء والشعراء[5] تجرى فيها المحاورات والمناظرات وتبادل الآراء والأشعار، أشبه بما كان يقام في المِرْبد مع زيادة معارف.

---

(1) هارون الرشـــيد، الخليفة هارون، أبو جعفر بن المهدي بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أستخلف بعهد من أبيه عند موت أخيه الهادي، ربيع الأول عام170هـ/787م، كان يبغض المراء في الدين والكلام في معارضة النص، إستمرحكمه إلى عام 193هـ/809م.
أنظر، السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص ص221،222.

(2) القلقشندي(أبوالعباس أحمد بن علي ت821هـ/1418م):صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، محرم1383هـ/- جويلية1963م، ج2، ص486.

(3) محمد عبد الكريم النمري:مقدمة، الجاحظ، البخلاء، ص03.

(4) المأمـــــون، الخليفة عبد الله أبو العباس بن الرشيد، ولد عام 170هـ/787م في منتصف ربيع الأول ليلة موت الخليفة الهادي، أمه إسمها مراجل، عرف بالحزم والحلم والدهاء والرأي، في عهده محنة خلق القرآن، كان أمّارا بالعدل، حكم من198هـ/814م-218هـ/833م، كان فقيه النفس.
أنظر، السيوطي:المصدرالسابق، ص236.

(5) يحي وهيب الجبوري:الكتاب في الحضارة الإسلامية، دارالغرب الإسلامي، الطبعة الأولى1998م، ص95.

وربّما لغلاء أسعار الكتب التي لا يمكن للجاحظ حيازتها، إكترى الحوانيت أيضا للمطالعة فيها إستيفاءً للمعرفة وتُوسيعًا لمداركه خاصة و بلغ نسْخ كل عشرة أوراق زمن الخليفة المأمون درهما وهذا ما شجّع الجاحظ فيما بعد على الإسترزاق من الكتابة.

وهو دليل على وجود أسواق فيها عرض وطلب، ترتفع به أسعار الكتب وتنخفض[1] وهو ما شجّعه فيما بعد على الإسترزاق من الكتابة ونبّهه أيضا للكتابة في كل الموضوعات ربّما لما فيه من كسب.

تطّلب بلوغ الكُتاب الشهرة الإنضواء تحت أسماء كُتّاب مشهورين، ينسبون إليهم كتاباتهم، فنسب الجاحظ كتبه زمن الخليفة المأمون إلى إبن المقفع[2] وسهل بن هارون[3] الذين لمع إسميهما عند الورّاقين، فوصلت شهرته إلى قصور الخلفاء والوزراء، فصار إنتاجه مقرونا بعلاقته أيضا بالسلطة العباسية، من خلفاء و وزراء، عبَّرعن أهمية ذلك بقوله: "من صادق الكُتّاب أغنوه و من عاداهم أفقروه"[4] والأكيد أنّه قد إرتاد مكتبات بغداد وسامرّاء[5].

(1) يحي وهيب الجبوري:نفس المرجع، ص ص93،94.

(2) إبن المقفـــــــع، عبد الله، أحد البلغاء والفصحاء، رأس الكُتاب، أصولي الإنشاء، من نظراء عبد الحميد الكاتب، من مجوس فارس، أسلم على يد الأميرعيسى عم السفاح وكتب له وإختص به، إتُهم بالزندقة وهو الذي عرّب كتاب كليلة ودمنة، أمرالمنصوربقتله، قيل:أنّ المهدي ذكر بأنّ أي كتاب زندقة إلاّ وكان أصله إبن المقفع عاش ستا وثلاثين سنـة مات عام145هـ/762م.
أنظر، الذهبي:المصدرالسابق، ج6، ص ص208،209.

(3) سهل بن هــارون، سهل بن هارون بن راهيوني الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفرة في معارضة كتاب كليلة ودمنة وكتاب الإخوان وكتاب المسائل وكتاب المخزومي والهذلية، يضعه الجاحظ في زمرة ذوي الرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المخلدة والسيرالحسان المدونة والأخبار المولّدة.
أنظر،الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص40.

(4) الجاحظ:نفس المصدر، ص193.

(5) سامـــــرّاء، مدينة عراقية تقع على الضفة الشرقية لنهر الدجلة بين تكريت وبغداد مشتقة من إسم فارسي سام- راه، كتبت سرّ من رآى على السكة التي كان يضربها الخلفاء، أنشأت عام221هـ/836م في عهد المعتصم على يد أشناس أحد قواده الترك لتأمين الخليفة الذي كان يعيش على الدوام مهددا في بغداد، يتمرد جنوده الترك باستمرار.
أنظر، دائرة المعارف الإسلامية، م10، ص82.

كان الخليفة المأمون محبًّا للعلم والكتب ويُعدّ أمرالإمامة[1] من أهم الموضوعات التي شغلته في وقت وصلت سمعة الجاحظ إلى قصره، فأرسل إليه يطلب منه الكتابة في موضوع الإمامة، فأُعْجب الخليفة بما كتب له حولها "لمّا قرأ المأمون كتبي في الإمامة، فوجدها على ما أمر به وصرْتُ إليه وقد كان أمَرَاليزيدي[2] بالنظر فيها، ليُخبره عنها، قال لي:"قد كان بعض من يرتضي عقله ويصْدُق خبره، خَبرْنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفوائد"[3].

يبدو أنّ إعجاب الخليفة به، دفعه لتقديمه على ديوان الرسائل[3] الذي لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام ورغم شرف هذه المهنة التي يتمناها أغلب الأدباء، إلاّ أنّ الجاحظ كما قيل عنه: "صُدِّرفي ديوان الرسائل ثلاثة أيام، ثم إنّه إستَعفى فأُعْفِيَ"[4] .

يظهر أنّ إسناد هذا المنصب له كان إختيارا له، يؤكد مدى ثقة الخليفة فيه على أسرارالقصر، من صادر ووارد وإعترافه بقدرة أسلوبه على ذلك، إذ نال به الجاحظ حظوة كاتب الأميرالذي كان يُختار له من أهل نسب الخليفة ومن عظماء قبيلته، من مهامه إصدار السجلات و يكتب في آخرها إسمه و يختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه إسم السلطان أو إشارته[5]، إلاّ أنّ كاتبنا لم يكن على ما يبدو من هوّاة العمل السياسي.

عدم بقائه في هذا المنصب راجع لمنافسة البعض، جاءه أحدهم إلى الديوان أبو العيناء[6]، فلّما أراد الإنصراف تقدَم الجاحظ إلى حاجبه بقوله له:إذا وصل إلى الدهليز ألاّ تدعه يخرج ولا تُمكنه من الرجوع، ففُعل به ذلك، فنادى بأعلى صوته: "يا أبا عثمان قد أريتنا قدرتك"[7].

(1) الإمامــــــة، خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به.
أنظر، إبن خلدون(عبد الرحمن):المقدمة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة 1409هـ/1989م، ص191.

(2) اليزيــــــدي، شيخ القُرّاء أبو محمد يحي بن مبارك بن المغيرة العدوي البصري النحوي، عرف باليزيدي لاتصاله بالأمير يزيد بن منصورخال المهدي، يؤدب ولده، جوَّد القرآن على أبي عمرو المازني وحدّث عنه، تلا عليه خلق كثير، له إختيار في القراءة لم يخرج فيه عن السبع، أدّب المأمون، كان ثقة عالما، حُجّة في القراءة، لا يدري ما الحديث لكنه إخباري نحوي بصير بلسان العرب، من كتبه كتاب نوادراللغة، عاش 74عاما، توفي ببغداد عام202هـ/818م بمرو.
أنظر، الذهبي:المصدرالسابق، ج9، ص ص562،563.

(3) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص73.

(4) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص79.

(5) إبن خلدون:المصدرالسابق، ص246. حسن إبراهيم حسن:تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي في العصر العباسي الأول، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة 1964م، ج2، ص264.

(6) أبو العينـــــاء191هـ/807م-283هـ/896م، محمد بن القــاسم بن خلاد، فصيحا، بليـغا، حاضرالجـواب، سريع الإجابة، شاعرا، عمي في آخر عمره، بينه وبين أبي الهقان مكاتبات وكان من أهل العسكر، يخافون لسانه، روى عن الأصمعي وغيره من العلماء، توفي بعد عام180هـ/796م، له من الكتب، أخبارأبي العينـاء.
أنظر، إبـن النديم:الفهرست، دارإحياء الـتراث العربي، بيروت، لبنان، طبعة أولى1427هـ/2006م، ص139.

(7) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص84.

لكن هذه الرواية في نظري مدعاة لبقائه في المنصب وليس العكس وربّما رآى أنّ ذاك المنصب يجعله مقيدا بكتابات سلطانية ذات طابع سياسي إداري فقط، موضوعه مُسطر لا يتّفق مع توسيع معارفه، كما يحده عن التأليف و يجعله مقيدا براتب شهري ثابت.

يتبين أنّ إختيارالخليفة المأمون للجاحظ كان صائبا، فالإطناب الذي يميزأسلوبه في كتاباته، يصلح فعلا للمكاتبات الصادرة في الفتوحات ونحوها وممّا يُقرأ في المحافل والعهود السلطانية ومخاطبة من لا يصل المعنى إلى فهمه بأدنى إشارة[1] .

ولم تحُدْ هيئته وبشاعته ولاعقيدته من إختياره، إنّما المقياس كان عقله وقلمه وفصاحته وبلاغته الأدبية وقوّة الحُجّة وشدّة المعارضة وحُسن الألفاظ والملَكة التي يقتدر بها على مدح المذموم ودّم المحمود[2] وهي الشروط الخاصة لهذا المنصب لكل كاتب ولو بقي فيه لمات الجاحظ الأديب وأفَل نجم الكُتّاب[3].

إختارالخليفة المعتصم[4]محمد بن عبد الملك[5] المعروف بابن الزيّات وزيرا له وهو من أكابر رجال الدولة والسياسة، إتّصل به الجاحظ وصارصديقا له، يذكره في كتبه "وحدّثني محمد بن عبد الملك، صديق لي"[6]، أهداه كتاب الحيوان، فأجازه بخمسة آلاف دينار[7] وأقطعه أرضا[8].

---

(1) القلقشندي:صبح الأعشى، ج2، ص337.
(2) القلقشندي:نفس المصدر،ج1، ص68.
(3) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص79.
(4) المعتصم، الخليفة أبو إسحاق محمد بن الرشيد، ولد عام 178هـ/794م، أمه ماردة، إمتحن العلماء في بخلق القرآن، يقال له: المثمن، حكم من 218هـ/227هـ-739م/748م بعد المأمون، سلك مسلكه من إمتحان الناس بخلق القرآن وقتل خلقا كثيرا. أنظر، السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص ص253،254.
(5) محمـــد بن عبد الملك، الوزير الأديب أبوجعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن الزيّات، والده زيَّاتا سوقيا، فساد هذا بالأدب وفنونه، معاديا لإبن أبي دؤادة الذي أغوى المتوكل حتى عذّبه، قال بخَلق القرآن، مات عام 233هـ/848م . أنظر، الذهبي:المصدرالسابق، ج11، ص ص172،173.
(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص205.
(7) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص106.
(8) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص69.

صار للجاحظ مصدر رزقٍ آخر، مكنّه من القيام برحلات خارج بغداد، درس بها طبائع الكائنات، فصار ذو مال وضِياعٍ، شاكرًا نعمة الله عليه، متواضعا، قال: "إنّما أنا وجارية جارية تخدمها وخادم وحمار، معي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد"[1]، كما تدل هذه الرواية أيضا على مدى تواضعه.

أمّا في عهد الخليفة أبي جعفرالواثق[2] الذي كان كأبيه وعمِّه، غلب عليه أحمد بن أبي دؤادة[3] ومحمد بن عبد الملك، فكان لا يصدر رأيا ولا يعيب عليهما فيما رأيَاهُ وقلّدهما الأمر وفوَّض إليهما مُلكه[4] ولمّا كان الجاحظ مُقرَّبا إلى إبن الزيّات[5]، عدَّه أحمد بن أبي دؤادة مع منافسه ندًّا له وهو ما أدخله في مغبَّة سوء الظن بين الطرفين ومنها إلى الشك.

أمّا الخليفة المتوكل فقد إستمال إليه أحمد بن أبي دؤادة[6] ، الذي قتل عدُوّه ابن الزيّات 233هـ/863م، لتبدأ الإضطرابات في حياة أديبنا، الذي كان قد فرّ بمجرد إلقاء القبض على صديقه محمد وإيداعه السجن والغريب أنّ ابن الزيّات أُدخِلَ سجنًا، كان قد هيّأه بحديد فيه مسامير، صنعه ليُعذّب الناس فيه، فعُذّب فيه هو حتى مات وهو ما أرهب الجاحظ على ما يبدو الذي ظهر عليه عدم الإقدام بهربه والخيانة لصديقه.

إذ ليس من النُبل هذا التصرف منه إزاء مصيبة صديقه وكان من الأجدرالدفاع عنه وهو ما حطٌ من شأنه، لذا نجده يُخَلِّف في آثاره "إحذر ممّن تأمن كأنَّك حذِرٌ ممّن تخاف"[7] أو ربّما من ردِّ فعل الخليفة نفسه، فكان يذكر "لا تغتر بمصاحبة الأمير إذا غشّك الوزير"[8].

(1) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص106.

(2) الواثـــــق، الخليفة أبو القاسم بن المعتصم بن الرشيد أمه قراطيس، ولد عام196هـ/812م، ولي العهد بعهد من أبيه وبويع له في التاسع من ربيع الأول عام227هـ/857م،إلى232هـ/862م، كتب إلى أمير البصرة أن يمتحن الأئمة والمؤذنين بخلق القرآن، طغى على رأيه أحمد بن أبي دؤادة.
أنظر، السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص257.

(3) أحمد بن أبي دؤادة247هـ/251هـ -861م/865م، القاضي أبوعبد الله أحمد بن فرج بن حريزالإيادي البصري البغدادي الجهمي عدو أحمد بن حنبل، كان داعية إلى خلق القرآن له كرم وسخاء وأدب، ولد عام 160هـ/777م بالبصرة، شاعرا مجيدا، فصيحا، مات هو وولده منكوبين، عام 240هـ/855م، دفن في داره ببغداد.
أنظر، الذهبي:سيرأعلام النبلاء، ج11، ص ص169،170.

(4) المسعودي:مروج الذهب، ج4، ص80.

(5) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص7 6.

(6) عبد السلام هارون:مقدمة الكتاب، الجاحظ: الحيوان، ج1، ص26.

(7) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص76- 84.

(8) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص193.

قيل:أنّه كتب لابن الزيّات وهو سجين رسالة[1]، أوضح له فيها عاقبة أفعاله وشماتة الأعداء فيه مذّكرا إيّاه بمغبّة الإساءة ومدعاةً إلى التكفيرعن الذنوب، واصفا نفسه بالصديق غير الناكر للجميل، مبينا حدّة ذكائه وصواب إختياره التوسط أفضل من التطرف ومهما قيل في أمرها وما حملته من أضداد بين الشماتة والتأسف له إزاء صديقه المسجون، فهي تُعبر عن جرأته في قول الحق وماذا كان يصنع أمام حِدَّة ابن أبي دؤادة؟ خاصة وأنّ الخليفة المتوكل عدُوًا للمعتزلة ولعَّل ذلك ما نلمسه في آخرها"ولكن جَهْدَ البلاء، أن تظهر الخِلة وتطول المُدّة وتعجز الحيلة، ثم لا تعْدم صديقا مُؤنِّبا وإبن عمٍّ شامتا وجارًاحاسدًا ووليًا قد تحوَل عدُوًا"[2].

ورغم ما دار من حوار بين إبن أبي دؤادة والجاحظ أثناء قيْده، جئ به بعد قتل إبن الزيّات، فوصفه إبن أبي دؤادة بالمُتناسي للنعمة، الكفور للصنيعة، المُعدِّد للمساوئ وفي ذلك محاولة منه لإثبات قدرته على العقاب، لكن الجاحظ إستماله إليه بجرأة المتكلم الذكي بطلبه الإحسان إليه أفضل من الإنتقام منه وهذا ما جعل خصمه يعترف له بالمكانة " أحمدُ الله، ما علمتك إلاّ كثير تزويق الكلام وفكّ عنه القيد وأحسن إليه وصدَّره المجلس[3].

إستغّل الجاحظ الفرصة وإستمال إليه إبن أبي دؤادة بإهدائه كتاب"البيان والتبيين"، فسخى عليه الخصم بخمسة آلاف دينار، ليتبين بذلك صدق من قال في الجاحظ: "الخلفاء تعرفه والأمراء تصافيه وتنادمه والعلماء تأخذ عنه والخاصة تُسلِم له والعامّة تحبه، جمع بين الذكاء والفهم"[4] ودليل ذلك أنَّه لقي إستعطاف إبن القاضي إبن أبي دؤادة بعد إصابته بالفالج ولزمه إلى أن صُرف عن القضاء[5] وهذا ينّم على حنكة وسداد رأي أديبنا وإعتداله.

إستوزر الخليفة المتوكل الفتح بن خاقان[6] وكان شاعرا فصيحا وقيل: أنّه لم يكن يصبر على غيابه ولو زمنا يسيرا، له خزانة كتب، يحضر إلى داره فصحاء العرب وعلماء البصرة وغيرهم، كان الجاحظ أحد المترددين على مجالسه، حتى أنّه عُدّ على رأس من لا يسبقهم أحد محبّة للكتب والعلوم إلى جانب الفتح بن خاقان[7].

---

(1) للمزيد من الإطلاع. أنظر، نص الرسالة كاملة في الملحق رقم7، ص163.

(2) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص ص77،78.

(3) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص ص69،70.

(4) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص98.

(5) ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص81.

(6) الفتح بن خاقـان، الفتح بن خاقان بن غرطوج، في غاية الذكاء وحسن الأدب، من أولاد الملوك، له خزانة كتب، جمعها له علي بن يحي المنجم، حضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفة والبصرة، تُركي الأصل، أديبا فاضلا، قرَّبه المتوكل. أنظر، ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص ص174وما بعدها.

(7) الكتبي(محمد بن شاكر):فوات الوفيات هوذيل علي وفيات الأعيان لإبن خلكان، تحقيق وضبط وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر أوت1951م، ج 2، ص ص246،247.

أُختلِف في سبب تقرب الجاحظ من الخليفة المتوكل، من ذهب إلى أنّه لم يكن هناك تقارب، لأنّ المتوكل تخوَّف، كونه أمَر بترك النظر والجدل والمباحثة في الجدل وترك ما كان الناس عليه في أيام المأمون والمعتصم والواثق وأمْره الناس بالتسليم وأمَر شيوخ المُحَدثين بإظهار السُنّة[1].

في حين ذهب رأي آخر إلى وجود علاقة بينهما سببها الفتح بن خاقان الذي أوصل للمتوكل خبرا عن الجاحظ أضحكه به، مفاده أنّه أتاه أحد في طلب حاجة، ثم شتم أمّه، فردّ عليه الجاحظ بنفس أسلوبه، مُدّعيا أنَّ هذا أسلوبه في الشكر وقال: "فكان ذلك سبب إتصالي به وإحضاري إلى مجلسه"[2] وهذا يؤكد مدى قدرته على إمتلاك قلوب الخاصة بما فيهم الخليفة المتوكل.

ومن شدَّة رغبة المتوكل في لقائه، كتب الفتح إلى الجاحظ يستعجله الحضور بأنّ أمير المؤمنين يجِّد في طلبه ويهِّش عند ذكره ولمكانة الجاحظ عنده بعلمه، مؤكدا له دوره في هذا التقارب، طالبا منه التعجيل بإنهاء تأليف كتاب "الردِّ على النصارى" والتعجيل به إليه[3]، أي حظي الجاحظ بنفس المكانة العلمية التي كانت له أيام الخليفة المأمون وكتب الإمامة.

يتبين إذن أنَّ خلفاء بني العباس يُعظّمون العلم ويُجِّلون العلماء والجاحظ على ما يظهرأدْرى بسُبل التسلل إلى قلوبهم بفضل الكتب التي كانت مفاتيح قلوبهم، حتى روى إبن المُزرع أنَّ الخليفة المتوكل في السنة التي قُتل فيها وجَّه إليه من يحمله من البصرة وتردد الجاحظ على ما يبدو في الذهاب بقوله لمن أراد حمله: "وما يصنع أميرالمؤمنين بامرئ ليس بطائلٍ ذي شقٍ مائلٍ ولُعابٍ سائلٍ وفرْجٍ بائلٍ وعقلٍ حائلٍ"[4].

(1) المسعودي:مروج الذهب، ج4، ص103.
(2) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص84.
(3) ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص ص99،100.
(4) ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص113.

ت - وفاتـــــــه:

أصيب الجاحظ بفالج في آخرأيامه246هـ/860م[1] سبَّبَ وفاته، أكّد ذلك إبن المُزَّرع ممّا أجاب به الجاحظ زوّارًا له في مرضه بأنّه عليل من مكانين الأسقام و الدِينِ، وأنّه كان يطلي نصفه الأيمن بالكافور لشدَّة حرارته والنصف الآخر لو قُرض بالمقاريض ما شعر به من خُدره وبرده[2].

إنَّ هذه الرواية تؤكد طول فترة المرض حتى خاف التلف من قلَّة الحركة وتخوَّف من عدم قضاء الصوم والصلاة لعدم قدرته بحكم شيخوخته وقيل: أنَّ المرض أصابه حين إقامته بسامرّاء، بدليل ما ذكرته جماعة زارته وشهدت على قول رسُل المتوكل إليه، إذ بعد رحيلهم قال للجماعة: "ما تقولون في رجل له شقّان أحدهما لوغُرز بالسَّالِ ما أحسَّ والشق الآخر يمرُعليه الذباب، فيُغوَث وأكثر ما أشكوه النمامون"[3] وكان يُردِّد "إصطلحت الأضداد على جسدي، إن أكلتُ باردا أخذ برجلي وإن أكلتُ حارًا أخذ برأسي"[4].

قضى آخر أيامه بالبصرة التي يظهرأنَّه إنصرف إليها أثناء فترة مرضه "فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد"[5]، فكانت وفاته بها عام255هـ/869م أيام الخليفة المهتدي[6] وإنفردت بعض المراجع بأنَّ سبب وفاته كان من أثرسقوط الكتب عليه[7] وأراها تبالغ ربَّما لإبعاد القارئ عن إرتياد المكتبات، كانت وفاته ببغداد ودفن بمقبرة الخيزران أم هارون الرشيد[8].

---

(1) محمد عبد المنعم خفاجي:أبوعثمان الجاحظ، دارالكتاب اللبناني، بيروت1982م، ص85.
(2) المسعودي:مروج الذهب، ج4، ص239.
(3) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص104.
(4) ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص114.
(5) ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص106.
(6) المهتـدي، الخليفة محمد بن هارون أمير المؤمنين المهتدي بن الواثق بن المعتصم بن الرشيد، ولد في خلافة جده، بويع له وعمره تجاوزالثلاثين، عادلا، متعبدا، ورعا، قويا في أمرالله، طرح الملاهي وحرّم الغناء، شديدا على الدواوين، خرج عليه الأتراك، فحاربهم بنفسه وجرح وأسروه وقتلوه عام 256هـ/870م، كانت خلافته عاما إلاّ خمسة عشر يوما. أنظر،الكتبي:فوات الوفيات، ج2، ص534ومابعدها.
(7) شارل بللات:الجاحظ في البصرة وسامرّاء، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دارالفكرللطباعة والنشروالتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 1406هـ/1985م، ص368.
(8) السيد أحمد الهاشمي:جواهرالأدب في أدبيات وإنشاء العرب، دارالفكر، مصر، ص174.

2- بيئته وظروف عصره:

عاصرالجاحظ حكم عشرة خلفاء عباسيين[1] وبالتالي سايرت حياته مراحل قوة الدولة العباسية في صباه وكهولته وفي هرمه مرحلة أفولها وإشتركت في الفتن، التي مسَّت السياسة والمجتمع والإقتصاد والعقيدة والفكر وغيرها، ما يجعل كتاباته مصدرا لعدّة أحداث، لذلك نجده في بداية كتابه "البيان والتبيين" يستعيذ بالله من فتنة القول وفتنة العمل[2] .

وكان من العادة إستنتاج الظروف من كتب مختلفة، إلاّ أنَّني وجدت أنَّه من الممكن إستنتاجها من كتبه المتعددة، لذا سأركز على ما فيها وأخص الفترة من ولادته إلى تأليف كتاب "البيان والتبيين"عام233هـ/848م، أوجزها فيما يلي:

أ- الفتـــــن السياسيـــة:

إستعان خلفاء بني العباس الأوائل لتثبيت دعائم دولتهم بالعنصرالفارسي، الذي تسَّلط في القصر وشغل مختلف الوظائف خاصة الوزارة حتى قيل: "أنَّ دولتهم أعجمية"[3] وهو ما شجَّع ظهورعدّة نكبات أشهرها نكبة البرامكة عام178هـ/794م التي كثرت حولها الأقـاويل والشبهات إنتهت إلى قتل جعفرالبرمكي[4][5].

ردَّها البعض لعلاقة لا أخلاقية بين جعفر والعبّاسة أخت الرشيد، لينتهي إبن خلدون إلى سبب تلك الفتنة التي أصلها كلامي" وإنّما نكَب البرامكة[6] ما كان من إستبدادهم على الدولة وإحتجافهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال، فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، فلم يكن له معهم تصرف في أمور مُلكه..."[7] وهذا تأكيد على غلبة العنصر الفارسي الحديث عهد بالإسلام وإستئثاره بالزعامة رغم وجود خليفة عباسي.

---

(1) هم:هارون الرشيد، الأمين، المأمون، المعتصم، الواثق، المتوكل، المنتصرباالله، المستعين بالله ، المعتزباالله، المهتدي.
(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص05.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ج4، ص64.
(4) جعفرالبرمكي، الوزيرالملك، أبوالفضل جعفر بن الوزير، أبوعلي يحي بن الوزير خالد برمك، أبيضا وسيما، مفوها، أديبا، جوادا، غارقا في لذّات دنياه، ولي نيابة دمشق، فقدمها عام 180هـ/796م، كان يلازم هارون الرشيد، من ذوي البلاغة، أختلف في سبب قتله.
أنظر، الذهبي:سيرالنبلاء، ج9، ص59وما بعدها.
(5) إبن الأثير:الكامل في التاريخ، ج5، ص114.
(6) البرامكـة، ينتسبون إلى برمك، كاهنا ببيت النار في بلخ، فارسيا، مجوسيا، أسلم الكثير منهم.
أنظر، إبن طباطبا:تاريخ الدول الإسلامية، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان1380هـ/1960م، ص218.
(7) إبن خلدون:المقدمة، ص16.

فتنة أخرى في قلب الأسرة العباسية الحاكمة بين ولدي هارون الرشيد، نتيجة تدخُلِ العنصر الفارسي ممثلا في الوزير الفضل بن سهل[1] وكان ذلك عام194هـ/810م، إذ أمر الأمين بالدعاء لإبنه موسى على المنابر بالإمارة بدل أخيه المأمون، فيما قام به من إغراء للأمين وحثّه على خلع أخيه والبيعة لإبنه "ماذا ننتظر بعد الله والقاسم؟"[2]، فردَّ المؤرخون سببها إلى سوء الظن وعدم التثبت الذي أدَّى إلى خلاف فتني بينهما، إنتهى إلى إعتلاء المأمون السلطة بدل أخيه الذي مات وأراها أيضا فتنة قولية.

ب-الفتـــن الإجتماعية والإقتصادية:

شهدت الدولة العباسية عدّة مشاكل إجتماعية منها ما كان سببه الصراع القبَلي أو الدخلاء الجدد الذين حاولوا إيجاد أماكن، لتثبيت عاداتهم وتقاليدهم، فانعكس كل ذلك على الواقع الإقتصادي وأهمها مايلي:

فتنة الزُط[3] التي شهدها عام219هـ/834م، وجَّه المعتصم جيشا لمحاربتهم، كونهم غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فسادا، فأخذوا الغلّاة وأخافوا السبيل، فانتهت إلى إنتصار جيش الخليفة وأُسْرِ في معركة واحدة خمسمائة رجل وقُتل ثلاثمائة وضرب قائدها المسمى محمد بن عثمان أعناق الأسرى وبعث الرؤوس إلى باب المعتصم[4].

يبدو أنّ هذه الثورة كانت موجهة ضد بغداد عاصمة الخلافة العباسية، دعّمتها تغطية كلامية كانت في حاجة إلى التثبُت "كانت أخبارهم تأتي المعتصم بمدينة السلام في ساعات النهار أو أول الليل"[5].

---

(1) الفضل بن سهـــــل، وزير الخليفة المأمون، لُقب بذي الرياستين، تقلد الوزارة والحرب، كان شيعيا منجما، ماكرا، أسلم عام 190هـ/806م على يد المأمون، إزدادت رفعته حتى ثقل أمره على الخليفة المأمون، فدسّ عليه خاله غالبا الأسود في جماعة، فقتلوه، أظهر الخليفة حزنا لمصرعه وعزّى والدته.
أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج10، ص ص99،100.

(2) إبن الأثير:الكامل في التاريخ، ج5، ص138.

(3) الزط، قوم من الهند. أنظر، الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص32. هامش رقم 1. يقول البلاذري: إستقروا على شواطئ الخليج الفارسي، نُقلوا إلى فارس زمن بهرام جور، المتوفى عام439م، إعتنقوا الإسلام، أنزلهم أبو موسى الأشعري البصرة، فاندمجوا ببني حنظلة "تميم"، أقاموا معهم يقاتلون المشركين، خرجوا مع إبن عامر إلى خراسان، لم يشهدوا الجمل وصفين وبعد ثورة إبن الأشعث هدّ الحجّاج دورهم وأجلى بعضهم ونقل خلقا من زط السند، أسكنهم بأسافل كسكر في أنطاكية والمصيصة.
أنظر، البلاذري:فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، مطبعة السعادة، مصر1959م، ص362 ومابعدها.

(4) إبن الأثير:المصدر السابق، ص232.

(5) البلاذري:المصدر السابق، ص369.

و في السنة التي مات فيها الجاحظ، ذُكرأول خروج للزنج[1] بالبصرة في شوال عام 255هـ/869م، زعم أنّه علي بن محمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين[2] بن علي بن أبي طالب، جمع الزنج الذين كانوا يسكنون السِباخ عبر نهرالدجلة، مُدَّعيا أنّ جدّه من أهل الكوفة الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي[3].

يظهرأنَّ قائد هـذه الفتنة أوجد لهـا تشريفا بإنتمائها لآل علي لكثـرة المتشيعين بالكوفة وإلاَّ فما بال الزنجي وعلي بن أبي طالب من ناحية ومن ناحية أخرى لكسب الدعم الشيعي الذي كان يتوق إلى المهدي المنتظر، فيذكرهم بما كان لهم من الخليفة أيام هشام بن عبد الملك[4]، أي أحيا فتنة كلامية كانت ميتة عند الكثيرين.

ويبدو أنّ العامّة صدّقته حتى قيل: "أنّه إدّعى الزعامة للناس ولُقن سُوّرًا من القرآن وجرى بها لسانه في ساعة وحفظها دفعة واحدة، منها الكهف وصاد والأكثر أنّه أظلّته غمامة وقيل له: "إقصد البصرة"، كما إدّعى أيضا أنّه يحيا به عُمْر العلوي أبو الحسن المقتول بناحية الكوفة، فخدع أهلها الذين إتبعوه وزحف بهم إلى المعركة التي إنهزم فيها وقتل فيها خلق كثير[5] .

يظهر ممّا سبق أنّ غياب العدل الذي أحسّت به العامّة، جعل الأجانب يدّعون الإنتماء إلى بيت النبوة وبالتالي حاول الزنجي في غمرة هذا القبول تقديم برنامجه، ليؤلب العامّة ضد حكم بني العباس بدءً من وُلاتها في تلك المناطق وأُثِرعنه خطبة طويلة ذكر في أولها "الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، ألا لا حكـــم إلا لله وكان يـــرى الذ نوب كُلها شركا[6].

---

(1) الزنج، قبائل زنجية تقطن ساحل إفريقية الشرقي، أطلقه المؤرخون على العبيد المنتفضين الذين أثاروا الفزع في القسم الأدنى من أرض العراق من 225هـ/840م إلى270هـ/884م.
أنظر، دائرة المعارف، مادة الزنجي، م10، ص222.

(2) زيد بن علي بن الحسيـن، أبوالحسين الهاشمي العلوي المدني، أخ أبوجعفرالباقر، ولد عام 80هـ/699م، ذوعلم، روى عن أبيه زين العابدين وأخيه الباقر، وفد على متولي العراق يوسف بن عمر، فأحسن جائزته، ثم رُدّ، فأتاه قوم من الكوفة فقالوا:إرجع نبايعك، فما يوسف بشيئ، أصغى إليهم وعسكر، فبرزلحربه عسكر يوسف، قُتل في المعركة، صُلب أربعة أعوام، قتل عام122هـ/740م. أنظر، الذهبي:المصدرالسابق، ج5، ص ص389،390.
أنظر، محمد أبوزهرة:الإمام زيد، دارالفكرالعربي، مصر، ص25.

(3) إبن الأثير:المصدرالسابق، ج5، ص364.

(4) هشام بن عبد الملك، الخليفة أبوالوليد، ولد عام 70هـ/690م، أُستخلف بعهد من أخيه يزيد عام 105هـ/724م، حازما، عاقـلا يكره إراقة الدماء، مات عام125هـ/743م.
أنظر، السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص ص197،198.

(5) إبن الأثير:المصدرالسابق، ص ص346،347.

(6) المسعودي:مروج الذهب، ج4، ص237.

كما شهدت البصرة فتنا قبلية، قادتها خاصة المُضرية واليمانية[1]، كتلك التي حدثت عام176هـ/792م، لأدنى الأسباب حتى قيل:أنّ بعضها كان سببه بطيخا، تناوله رجل من بني القين، فجمع صاحب البطيخ أهـل اليمن لضــربه إذا عـاد واتّسعت دائرة الصراع بانضمام آخرين، فقُتل رجل من اليمانية وطلبوا بدمه[2]، كانت أشبه ما تكون بما كان أيام الجاهلية ورغم تفاهة الأسباب خلّفت أعدادا من القتلى بلغت ستمائة فرد[3].

أشارالجاحظ إلى إحدى تلك الفتن التي كانت بسبب تحويل مجرى مائي عن أهل دمشق إلى الصحاري "لمّا صرفت اليمانية من أهل مُرّة[4] الماء عن أهل دمشق ووجهوه إلى الصحاري، كتب إليهم أبو الهيذام إلى بني أَسْتِها أهل مُرّة، لَيُمْسِيَنِي الماء أو لتُصبِحَنكم الخيل"[5] ويبدو أنّ قوة هذا القائد ومقدرته الكلامية هي التي حلّت المشكلة "فوافاهم الماء قبل أن يُعَتموا"[6].

كما شهدت العاصمة نفسها النهب والفسق وقطاع الطريق وأخذ النساء والصبيان "حتى كانوا يأخذون ولد الرجل وأهله، فلا يقدرأن يمتنع منهم وينهبون القرى ولا سلطان يمنعهم ولا يقدرعليهم، لأنّه كان يغريهم وهم بطانته"[7] وهذا يبين مدى الحاجة إلى الحاكم العادل، الذي يقدر بلسانه قبل سيفه حل مشكلات الرعية.

يبدو مدى إتساع الشُقة بين القصرالعباسي وبين الشعب والغريب أنّها زمن الخليفة المأمون الذي إنشغل بالمناظرات ومجالسة العلماء، دون أن يُلقي بالاً للرعية، فغاب العدل عند منْ هُمْ وُجدوا على كرسي الخلافة لإقراره، حتى إغتنمت جماعات الفرصة، فادّعت الوعي والشعوربالمسؤولية والتطوع لتخليص البلاد والعباد من هذا الدنس، ففي شعبان عام201 هـ /817م، سمَّت نفسها المتطوعة، للقيام بمهمتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقيادة رجل يسمى خالد الدريوش، دعى جيرانه وأهل مَحلّته لمساعدته على دفـــع هذا البلاء، فأجابوه[8].

---

(1) يقال: لمُضرالحمراء ولربيعة الفرس، لأنهما لمّا إقتسمتا الميـراث، أُعطي مضر الذهب وهو يؤنث وأُعطي ربيعة الخيل، يقال:كان شعارهم في الحرب العمائــم والرايات الحمر ولأهل اليمن الصُفر.
أنظر، إبن منظور:لسان العرب، ج14، ص88. أنظر:القبائل النزارية بالملحق رقم11، ص166.
(2) إبن الأثير:الكامل في التاريخ، ج5، ص91.
(3) إبن الأثير:نفس المصدر، ص92.
(4) اليمانية ثم فرعها مرة.أنظر الملحق رقم17، ص172 .
(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص203.
(6) نفسه.
(7) إبن الأثير:المصدرالسابق، ص182.
(8) إبن الأثير:نفس المصدر، ص183. الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، طبعة1982م، ج8، ص599.

إنتقل الأمر إلى خراسان[1] في رمضان، قام بها رجل يدعى سهل بن سلامة الأنصاري من أهلها، يُكنى أبي حاتم، دعى الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بالكتاب والسنّة، علّق مُصحفا في عنقه وأمر أهل محلّته ونهاهم، فقبلوا منه، فأجابه خلق كثير من بني هاشم وغيرهم وبايعوه على ذلك وعلى القتال معه ضد من خالفه وطاف ببغداد وأسواقها[2].

ويبدو ممّا سبق أنّ غياب العدل دفع مُدّعين لإيجاده وإلتزامهم بالنص القرآني، كما إدّعـوا قرابتهم من رسول الله ولو باتباع أصحابه وبالتالي فالدعوة إلى إسقاط الخلافة العباسية كانت قائمة بدليل تسمية دريوش، ربّما كان ذلك من بعض الفِرق الدينية المُناوئة لطريقة التوارث في الحكم وأنّ إختيارالخليفة من شأن العامّة لا الخاصة.

يرى الجاحظ أنّ العصبية[3] ليس معناها بالضرورة القتال والإعراض "ولم يَرَالنـاس أعجب من الكُمَيت[4] والطِّرِّماح وكان الكُميت عدنانيا عصبيا وكان الطِّرِّمُاح[5]، خارجيا ...وكان الكُميت يتعصب لأهل الكوفة وكان الطِّرِّماح يتعصب لأهل الشام وبينهما مع ذلـك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط، ثم لم يَجر بينهما صرمٌ ولا جفوة ولا إعراض ولا شيئ ممّا تدعو هذه الخصال إليه"[6]، ربّما كان ذلك تنبيها منه لكون الأمر يتعلق بما فطر الله عليه الناس وميول كل فرد.

---

(1) خراســـــان، كلمة مركبة من"خور"، أي الشمس، و"أسان"، أي "مشرق"، بلاد واسعة أول حدودها ما يلي العراق وتشمل على أمهات البلاد، نيسابور، هراة، مرو، فُتحت أكثرهذه البلاد عنوة وصلحا، تتقاسمها اليوم إيران الشرقية "نيسابور" وأفغانستان الشمالية "هراة، بلخ" ومقاطعة تركمنستان"مرو" حشد فيها أبومسلم ودعا للعباسيين، قضت جيوشه على حكم الخلافة الأموية.
أنظر، ياقوت الحموي:معجم البلدان، مطبعة السعادة، مصر، ص ص81،82.

(2) إبن الأثير:المصدرالسابق، ص183.

(3) العصبية، هي ثمرة النسب وتعديد الآباء.
أنظر، إبن خلدون:المقدمة، ص134.

(4) الكُميـــــت، مقدم شعراء بلغ شعره خمسة آلاف بيت، روى عـن الفرزدق، قيل:لولا شعـرالكُميت لم يكن للغة ترجمان، كان شيعـيا مدح علي بن الحسين، فأعطاه من عنده ومـن بني هاشم أربعمائة ألف، قيل:ولد عام60هـ/680م ومات عام 126هـ/744م.
أنظر، الذهبي:سيرأعلام النبلاء، ج5، ص ص389،390.

(5) الطِّرِّمـاح، شاعر طائي نشأ في الشام وإنتقل إلى الكوفة مع من سارإليها من جيش الشام، نزل في بني تميم اللات بن ثعلبة، كان فيهم شيخ له وقار، يجالسه ويسمع منه، كان من القعدة ولم يكن أزرقيا، لـم يكفــرالمسلمين كمتطرفة الخوارج، بل كان يعاشرهم ويصادقهم، حتى عقد صداقة بينه وبين الكميت.
أنظر، شوقي ضيف:العصرالإسلامي، دارالمعارف، مصر، الطبعة الرابعة، ص311.

(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص37.

ت – الطبقات الإجتماعية وتأثيرها:

إنّ اتّساع حدود الدولة العباسية، عدَّد عناصرها الأجنبية، التي طغت على العنصر العربي، من فُرس وغيرهم، فظهـرت الطبقيـة في المجتمع بين العامّة والخاصة، أشار الجاحظ إلى ذلك بقوله: "وإذا سمعتموني أذكر العوام فإني لست أعني الفلاحين والحشوة والضياع والباعة...ولست أعني من الأمـم مثل الزنج والهند والروم والباقون همـج، أمّا العوام من أهل ملّتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منّا"[1].

يظهر من ذلك عدم وجـود إنسجام إجتمـاعي وهـو ما فـرض تسلـط عنصرعلى آخر خاصة الفرس وأفكارهم، التي عمل على ترويجها إبن المقفع وسهل بن هارون وغيرهما ورواج صيت بعض الكتب الهندية، التي تحث على أنْ لا يتكلم سيد الأمّة بكلام الأمّة ولا الملوك بكلام السُوقة[2].

ربّما لأنّ العوام أقل شكوكا من الخواص، لا يتوَقفون عن التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلاّ الإقدام على التصديق المجرد أوعلى التكذيب المجرد وألِفوا الحال الثالثة التي تشتمل على طبقات الشك وذلك على قدر سوء الظن وحُسن الظن بأسباب ذلك[3].

إزداد وضع العامّة سوءً، حتى أصبح الجار يشكو جاره، فهذا الخليفة المأمون يتلّقى شكاية رجل لجاره جاء فيها "واسيرة عمر، ذهب العدل منذ مات عمر، فقال له المأمون: "إنّ عمر كان يقول:من كان جاره نبطيا وإحتاج إلى ثمنه فليبعه، فإن كنت تريد سيرة عمر، فهذا حكمه، ثم أمَر له بألف درهم وأمر صاحبه أن ينصفه"[4]، لكن المأمون على ما يبدو حلَّ جزئيا مشكلة شخص واحد، فما بالك بكلِّ الرعية؟.

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص96.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ص67.
(3) الجاحظ:الحيوان، ج6، ص ص36،37.
(4) الأصبهاني(أبو القاسم حسين بن محمد الراغب):محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دارمكتبة الحياة، بيروت، لبنان، م1، ج1، ص350.

إنّ وضعية المجتمع الإسلامي التي فرضت عليــه الإختلاط بغيره، عدّدت طبائع أفراده، ما أفرز شِيَما جديدة على المسلم العربي، كظاهرة البخل، التي ألّف فيها الجاحظ كتاب البخلاء، كرَد فعل منه على حدّة النزاع بين المنادين بشعاراتهم وخصومهم حول أمورالكسب[1] مُصورًا نماذجا حية ناطقة في شكل هـزلي عن أولئك الذين إستهواهم الدرهـم، فصاروا أضحوكة الناس ومدار تندرهم وصارت البصرة المضيافة تُعرف بشحاحين، يعتقدون أنّ ذاك إقتصادا.

وصل الحد بأحد المتكلمين إلى القول: بأنّ البُخل طبْع عند كل من في خراسان، من حيوان وبشر "لم أرَ الديك في بلدة قط إلاّ وهو لاقط، يأخذ الحبَّة بمنقاره، ثم يلفظها قُدّام الدجاجة، إلاّ ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحَبِّ وأكمل بقوله: "فعلمت أنّ بُخلهم شيئ طُبِع في البلاد"[2].

تعدّى الأمر إلى الأسواق، فكان كل صيرفي في البصرة أصله سندي[3] وهو ما أثار إستغراب الجاحظ "لا ترى بالبصرة صيرفيا، إلاّ وصاحب كيسه سندي[4]، كما عجَّت الأسواق بالإنتهازيين والمشعوذين حتى صار بعضهم يدّعي إمتهان الطب في زمن عَلاَ فيه شأن أسرة بختيشوع[5].

فصار الأعمى ذو العيون البيضاء، يبيع دواءً لإزاحة الغشاوة عن عيون الآخرين[6] وهذا يؤكد عدم نباهة العامّة وندرة شكّها وثقتها العمياء، فصارت مبيعات الأسواق جُلّها من الجواهر والفضة المسروقة لتباع ظاهرا وعلانية[7].

(1) محمد الصغيربناني:النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1983م، ص35.
(2) الجاحظ:البخلاء، ص16.
(3) سندي، نسبة إلى مقاطعة جنوب باكستان، عاصمتها حيدرأباد، تشمل شرقا صحراء ثار، غربا قسما من سهل الهندوس فتحت أيام الحجّاج، الغالب عليها مذهب أبي حنيفة النعمان.
أنظر، ياقوت الحموي:معجم البلدان، ج5، ص151.
(4) الجاحظ:الحيوان، ج3، ص434.
(5) بختيشوع، يكنى أبا جبريل، إبن جبريل، متقدم عند الملوك، خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وكسب بالطب مالم يكسبه مثله، كان الخلفاء يثقون فيه على نسائهم وأخباره مشهورة وله كتاب التذكرة، عمله لإبنه جبريل.
أنظر، إبن النديم:الفهرست، ص ص354،355.
(6) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص68.
(7) إبن الأثير:الكامل في التاريخ، ج5، ص182.

كما غصّت الشوارع والأسـواق بالمتسولين وأكثرهم ممّن إدّعى التصوف[1] وهـو ما شـدّ إنتباه الجاحظ "والصوفي المُظهرالنُسك[2] من المسلمين إذا كان فنسك، يبغض العمل وأظهر تحريم المكاسب وعاد سائلا وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له [3].

ث- الفتـــن العقائديــــــة:

إنّ إختلاط المجتمع العربي الإسلامي بغيره من غير العرب، عدّد مذاهبه العَقدية إلى جانب الفرق الدينية الإسلامية وسمحت حرية الإعتقاد بتداول أفكارهم المذهبية وهو ما فتح الباب لموجة الإلحاد، حرّكتها جماعة من الزنادقة، وجّهـوا طعناتهم لضرب العقـيدة الإسلامية، كما حاولوا البرهنة على تفوق العنصرالحامل لها وتمثل نشاط هذه الجماعات في:

في عام219هـ/834م،أحضرالخليفة المعتصم الإمام أحمد بن حنبل[4] الذي رفض القول بخلق القرآن[5] كقول المعتزلة[6] وإمتحنه، فلم يجب إلى ذلك، فأمر بجلده جلدا حتى "غاب عقله من كثرة الألم وتقَطع جلده وحُبس مقيدا"[7]، إذن الفتنة أيضا كانت كلامية، تجلّت في تطبيق حدٍّ في غير مكانه، دليلا على غياب العدل، فكيف يُقام على إمام له أدلته بأنّ القرآن كلام الله وليس مخلوقا؟.

---

(1) التصــوف، صوفي كلمة مشتقة من الصفا، أصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، فيما يقبل عليه الجمهور، من لذّة ومال وجاه والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وله علم خاص بالتصوف.
أنظر، إبن خلدون:المقدمة، ص467.

(2) النُســك، العبادة والطاعة وكل ما يُتعبد به إلى الله تعالى، أي تعبد.
أنظر، إبن منظور:لسان العرب، ج14، ص247.

(3) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص ص219،220.

(4) الإمام أحمــد بن حنبــل، الإمام أبوعبد الله بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن وائل الذهلي الشيباني، المروزي، ثم البغدادي، ولد عام164هـ/781م، طلب العلم وهو إبن خمس عشرة سنة، أعلم بفقه الحديث ومعانيه، دائم التعوذ من رأي الخوارج ومن البدع، يقول:لا يفلح من تعاطى الكلام بأنّ القرآن مخلوق، فضُرب في عهد الخليفة المعتصم، عاش77سنة، مات عام 241هـ/861م.
أنظر، الذهبي:المصدرالسابق، ج11، ص179ومابعدها.

(5) الجعد بن درهم أول من قال بخلق القرآن،يُنسب إليه آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، سكن الجعد دمشق، أصله من حرّان، أخذ بدعته من بيان بن سمعان عن طالوت بن أخت لبيد بن أعصم وزوج إبنته وكان لبيد ساحرا.
أنظر، إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص282.

(6) المعتزلة، يلقبون بالقدرية، العدلية، جعلوا لفظ القدرية مشتركا، قالوا:لفظ يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله.
أنظر، الشهرستاني:الملل والنحل، تصحيح وتعليق الأستاذ أحمد فهمي، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص35.

(7) إبن الأثير:المصدرالسابق، ص233.

ظهرت كلمة زنديق كمصطلح في العصر العباسي وهي كلمة فارسية تطلق على كل منكر لوجود الله سبحانه وتعالى أو يقول للّله شُركاء أو يًبطن الكُفر ويُظهر الإيمان، كما تطلق أيضا على أتباع الديانة المانوية[1] وعبادة الإلهين[2] وبالتالي معرفة المسلمين بها لوجود من يؤمن بها في المجتمع الإسلامي من غيرالمسلمين الوافدين، أصبح مؤثرا على مسألة التوحيد.

إنتشرت أفكارهم من الكتب المترجمة إذ عُنيوا بالتأليف، فكانت كُتبهم لا تحوي حكمة ولا صبغة أدب ولا فلسفة ولا مسألة كلامية ولا تعريف صناعة ولا تعليم فلاحة ولا صبغة دينية ...وجُلّ ما فيها النور والظلمة وتناكح الشياطين[3] ولعّل ذلك ما دفع الخليفة المهدي[4] لملاحقتهم وأسسَ عام163هـ/784م ديوانا خاصا لملاحقة شؤونهم،ُرف بديوان الزنادقة. فقتلهم على التهمة"[5] وقطّع كتبهم بالسكاكين[6] .

أورث إبنه الهادي[7]هذه المُعظلة، فاشتدّ طلبه بوصية أبيه عليهم، فقتل منهم جماعة وقتل أيضا يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن...بن الحارث بن عبد المطلب، لأنّه أقرَ بالزندقة أيام المهدي ولم يقتله أنذاك، لأنّه إتّخذ على نفسه عهدا بألاّ يقتل هاشميا، فلمّا كان عهد الهادي إبنه قتله بوصية من المهدي بعد حبسه "أقسمتُ عليك إن وُليتَ هذا الأمر لتقتلنه"[8] وكل هذا دليل على أنّ البلاد الإسلامية أصبحت منطقة تبشير لديانات محرّفة.

---

(1) المانوية، أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، الذي ظهر في زمن شابور بن أزدشير بعد زمن عيسى عليه السلام، أخذ دينا وسطا بين المجوسية والنصرانية، يقول بنبوة المسيح ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام، يقول: بأن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين نور وظلمة وأنّهما أزليان.
أنظر، الشهرستاني:الملل والنحل، ج2، ص ص268،269.

(2) عبد القادر صالح:العقائد والأديان، دارالمعرفة، بيروت، لبنان، طبعة ثانية1427هـ/2006م، ص163.

(3) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص57.

(4) المهدي، الخليفة أبوعبد الله محمد بن منصور، ولد بأيذج عام127هـ/745م، أمه أم موسى بنت منصور الحميرية، جوادا، حسن الإعتقاد، تتبع الزنادقة وأمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين، ولى الخلافة من عام158هـ/775م مات عام169هـ/786م، قيل:مات مسموما.
أنظر، السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص ص214،215.

(5) عبد القادرصالح:المرجع السابق، ص163.

(6) إبن الأثير:المصدرالسابق، ج5، ص63.

(7) الهادي، الخليفة أبومحمد بن موسى بن المهدي بن المنصور، أمه أم ولد إسمها الخيزران، ولد بالري عام147هـ/764م، بويع بالخلافة بعد أبيه المهدي بعهد منه، مكث فيها عاما وأشهر، كان فصيحا، مات عام170هـ/787م وأختلف في سبب موته. أنظر، السيوطي:المصدرالسابق، ص219.

(8) إبن الأثير:الكامل في التاريخ، ج5، ص74.

يؤكد السابق قوة تأثير كُتبهم على المسلمين، بما فيهم آل البيت وتجرّؤوا في الصدع بذلك علانية والتعصب لِما يُقرون، حتى صار ذلك طعنة لآل البيت، ومن ثَمَّ أهل السنَّة، قد تشجع حركة الرِدَّة على الإسلام رغم إحتوائها على خرافة و كذب[1] و أكّد الخليفة المهدي ربّما نتيجة بحث في مصادر كتب الزندقة ذلك بقوله: "ما وجدتُ كتاب زندقة إلاّ و أصله إبن المقفع"[2].

يستغرب الجاحظ من أخْذ الناس ما فيها، دليلا على عدم التمحيص بعقولهم في محتوياتها "فأي كتاب أجهل من كتاب، يُوجب على الناس الإطاعة والبُخوع بالديانة، لا على جهة الإستبصار والمحبّة وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين؟ والناس لا يحبون إلاّ دنيا أو دينا، فأمّا الدنيا، فإقامة سوقها وإحضار نفعها وأمّا الدين، فأقل ما يُطمع في إستجابة العامّة وإستمالة الخاصـة، أن يُصوَّر في صـورة مُغلّظة ويُمـوَّه تمويه الدنيا، البُهرج والدرهم الزائف، الذي لا يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل"[3].

يتبين ممّا سبق أنّ الجاحظ يؤكد على أهمية المتكلمين والعقل في إفهام الناس وحاجة المجتمع المسلم إليهم، لِمَا في ذلك من إنقاص لرواج الخرافات وغيرها خاصة من تعدُّد الدخلاء والرواية عن مآثرهم في بلدانهم.

إذ لم يتوانِ الزنادقة على تلحيد المسلمين، بل حرصوا أيضا على تحسين كتبهم، حتى قال أحد الكتاب: "وددت أنّ الزنادقة لم يكونوا حُرصاء على المُغالاة بالورق النقي الأبيض وعلى تخيُر الحبر الأسود المُشرق البرّاق وعلى إستجادة الخط والإرغاب لمن يخط، فإنّي لم أر كورق كُتبهم ورقًا ولا كالخطوط التي فيها خطًا"[4].

(1) الجاحظ:الحيوان ، ج1، ص57.
(2) إبن كثير:الكامل في التاريخ، ج5، ص473.
(3) الجاحظ:المصدر السابق، ص ص57،58.
(4) الجاحظ:نفس المصدر، ص55.

أما عن الدهريين والملاحدة، ففرقة تقول بقدرالدهر،أي بأزليته، كما أخبر القرآن بذلك "وَمَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَهْرُ"[1]، ذكر الجاحظ بزعم بعضهم أنّ العالم مُكوّن من أربعة أركان، حر وبرد ويبس وبلّة وسائرالأشياء نتائج وتركيب وتوليد وجعلوا هذه الأربعة أجساما[2].

ذهبوا إلى ترك العبادات، لأنّها لا تفيد وما ثَمَّ إلاّ أرحام تدفع وأرض تبلع..يسمون بالملاحدة، عبدوا الله من حيث الهوية، فالدهر إسم لمدة العالم[3] ومن كان لا يعرف حقيقة الله لن يعرف رسالاته ولا إحترام المؤمنين بالديانات الأخرى وهذا ما ذهب إليه الجاحظ "الدهري لا يرى أنّ في الأرض دينا أونحلة أوشريعة أومِلّة ولا للحلال حُرمة ولا يعرفه ولا للحرام نهاية ولا يعرفه ولا يتوقع العقاب على الإساءة ولا يترَّجَى الثواب على الإحسان، إنّما الصواب عنده، أنّه والبهيمة سيَّان"[4].

أثّر نشاطهم في حديثي العهد بالإسلام، فهذه قصة المُرتد الخراساني، الذي حمله المأمون معه حتى وافى به العراق فقال له: "لَأَنْ أستحييك بحق أحبُّ إليَ من أن أقتلك بحق ولإن أقبلك بالبراءة أحبُّ إلي من أن أدفعك بالتهمة، قد كُنتَ مُسلما بعد أن كنتَ نصرانيا وكنت فيها مُقيما وأيامك أطول، فاستوحشت ممّا كنت به آنسًا، ثم لم تلبث أن رجعت عنّا نافرا، فخبرنا عن الشيئ الذي أوحشك من الشيئ الذي صار آنس لك، فإن وجدت عندنا دواء دائك، تعالجتَ به"[5].

تدل هذه الرواية على ضرورة عامل الإقناع العقلي لتثبيت إسلام الدُخلاء الجُدد وضرورة إدراك الحاكم وغيره من أحكام الدين الإسلامي والوقوف على التأويل والتفسير لتبيان أسس الدين الإسلامي وإن كان المأمون قد أحسن الرد على ذاك المرتد بعد أن عرف سبب إرتداده "أوحشني كثرة ما رأيت من الإختلاف فيكم"[6].

(1) سورة الجاثية،الآية رقم24.
(2) الجاحظ:المصدر السابق، ج5، ص40.
(3) عبد القادر صالح:المرجع السابق، ص132.
(4) الجاحظ:الحيوان، ج7، ص ص13،14.
(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص73.
(6) نفسه. إبن عبد ربه:العقد الفريد، دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة1402هـ/1982م، ج2، ص 385.

إذن الدُعاة العقليون المسلمون، مثّلوا أكثر من ضرورة، فطعْن الدهريين في يقين الدين الإسلامي، كان عملا متواصلا والأكثر من ذلك، شكّكوا بما في القرآن من قصص، كطعنهم في ملك النبي سليمان و ملكة سبأ، بما كذّبه الجاحظ من زعمهم....كيف يجهل سليمان موضع هذه الملكة مع قرب دارها وإتصال بلادها وليس دونها بحار ولا أوعار والطريق...؟[1].

كما تأثر العالم الإسلامي بالزرادشتية[2]، يؤمن أصحابها بأنَّ للعالم إلهين، أحدهما النور من الخير والثاني الظلمة من الشر وأصل الشر خلق كل ما هو شر وأصل الخير خلق كل ما نفع والله خلط النور والظلمة لحكمة رآها في التركيب والله واحد لا شريك له، مع تقديس الماء والتراب وإقرارهم أنَّ للإنسان حياتين واحدة في الدنيا والثانية بعد الموت.

إستحّلوا زواج الأمهات من قبل الأبنـاء وزواج الأخ من الأخت أو الأب مـن البنت[3] أي إباحية واضحة، تسمح بالشذوذ الجنسي، الذي يتنافى مع مبادئ الدين الإسلامي بدليل إعتناق بعض المسلمين لها ما رُوي، أنّه بعد قتل الهادي ليعقوب بن الفضل الزنديق السابق ذكره وإدخال أولاده السجن "أقرَّت إبنته فاطمة أنَّها حبلى من أبيها، فخُوِّفت وماتت من الفزع"[4] وهذا يثبت فضاعة وعدم تقبل المسلمين لهذا المنكر، الذي هو فاحشة.

هذه التيارات أوجدت لنفسها مكانا بعد إنتعاش حركة الترجمة والمناظرات في بلاط الخلفاء خاصة في عهد الخليفة المأمون ولم تكن وحدها، بل معها النصارى واليهود، فحقدهم على الإسلام دافعا لطعنه من مبادئه، بإثارة التشكيك فيها بإسم حرية الرأي، حتى زعم الزرداشتيون أنّ سومين الذي ينتظرون خروجه، الذي يَصير إليه المُلك، يخرج على بقرة ذات قرون و معه سبعين رجلا عليهم جلود الفهود[5] .

إستفاد هؤلاء من الفكر المؤمن بخروج المهدي المنتظر، الذي يقابله سومين، دليلا على يأس المجتمع العربي المسلم من وجود عدل، إلاّ بمجيئ هذه الشخصية ومن شدّة تقبل العامّة لهذا الفكر، شاعت خرافات، كقول زرادشت في مذهبه بأنّ الفأرة من خلق الله وأنّ السنُّور من خلق الشيطان وهو إبليس وهو أهْرَمَنْ[6]، ما يشبه الخير من الله و الشر من الإنسان.

(1) الجاحظ:الحيوان، ج4، ص ص85-87.
(2) الزرادشتية، نسبة إلى سبيتاما زرداشت 628ق،م/551ق،م، من قبيلة ميديا، كانت تسكن الجزء الغربي الشمالي من بلاد فارس، نشأ في أذربيجان، عاش معتكفا عشر سنوات متواصلة، في الوقت الذي يبلغ فيه من العمر الثلاثين.
أنظر، عبد القادر صالح، المرجع السابق، ص159.
(3) عبد القادر صالح:نفس المرجع، ص ص160،161.
(4) إبن الأثير:الكامل في التاريخ، ج5، ص74.
(5) الجاحظ:الحيوان، ج6، ص477.
(6) الجاحظ:نفس المصدر، ص298.

إنتشارهذه الأفكـارهيَأ الفرصة لتألــه جماعات، فخرج المُقنّع[1]بخراسان يدّعي الربوبية لا يدع القناع في حال من الحالات، من شيمة الرياسة ودليل الهيبة، حتى كان الرسول لا يكاد يُرى إلاّ مقنّعا[2] ويعلق عليه الجاحظ، بأنّه جَهَل بادِّعاء الربوبية من طريق المناسخة، فادِّعاها من الوجه الذي لا يختلف فيه الأحمر والأسود والمؤمن والكافر، إنَّ باطله مكشوف كالنهار، لا يعرف في شيئ من المِلِل والنِحل القول بالتناسخ[3]، حتى إستفهم متعجبا:فما أدري أيهما أعجب، أدعواه بأنّه رب أوإيمان من آمن به وقال دونه؟[4].

تفطّنَ هؤلاء الأجانب وعلى رأسهم الفرس إلى الخُلق العربي، ليقضوا على الروابط الخُلقية وزعزعة الشخصية العربية في بنيتها، فاستقدموا بدعا منها الشذوذ الخُلقي، الذي يتنافى والأصالة العربية والأخلاق التي دعى إليها الدين الإسلامي وهوما شجَّع شعرالغزل[5] وشجّع الحركة الفارسية بإسم الشعوبية[6]، بزعمها أنّ العرب أدنى الشعوب حضارة ومعرفة، كان على رأسها إبن المقفع.

إستقدمت على ما يبدو الأذكياء وعلّمتهم العربية، ليثبتوا قدرتهم على العنصرالعربي في لغته ذاتها، فكان منهم الشعراء والخطباء والكُتّاب، طرح مفكروها قضايا كثيرة، هدفوا منها إلى إلهاء الشعب عن الأساسيات[7]، أشارالجاحظ إلى مدى إحتقارها للعنصرالعربي، بضربه في أصالته ورموزها، كقضية العصا "وقد طعنَتْ الشعوبية على أخْذِ العرب في خطبتها القناة والقضيب والإتّكاء والإعتماد على القوس"[8].

(1) المقنـع، عطاء الساحرالعجمي، إدّعى الربوبية عن طريق المناسخ، ربط الناس بالخوارق وبعض المغيبات، إدّعى أنّ الله تحول إلى صورة آدم، لذلك أمرالملائكة بالسجود له، ثم إلى نوح، فإبراهيم، فأبي مسلم الخراساني، ثم إليه، فعبدوه وحاربوا دونه رغم قبح صورته، إتخذ وجها من ذهب، أضلهم بقمر ثان يرونه في السماء، تجهزالجيش إلى حربه وحاصره في قلعته بخراسان نحوعامين، إلى أن مصّ السم وسقى خظاياه، فماتوا وقُطع رأسه عام163هـ/780م.
أنظر، الذهبي:سيرأعلام النبلاء، ج9، ص306ومابعدها.

(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج4، ص98.

(3) التناسخ، إنتقال الأرواح من جسم إلى آخر، قال به الفيلسوف اليوناني فيتاغورس المولود عام570ق.م/500ق.م التناسخيون يرون أنّ الإنسان إمّا أن يكون في فعل أوفي جزاء وهو في حال، إمّا في حالة عمل مكافأة عليه الآن، أوأن يقوم بعمل ينتظرالمكافأة عليه والجنّة والنار في هذه الأبدان.
أنظر، عبد القادرصالح:المرجع السابق، ص98.

(4) الجاحظ:المصدرالسابق، ج4، ص ص98،99.

(5) إنعام الجندي:الرائد في الأدب العربي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة2 الثانية 1406هـ/1986م، ص21.

(6) الشعوبية، حركة فكرية إجتماعية، قامت بها جماعات غيرعربية لضرب الكيان العربي، من خلال ثقافته وإرثه الحضاري، بالتقليل من شأن اللغة العربية والتشكيك في دورالعرب التاريخي، لإحياء الثقافة الأعجمية.
أنظر، فاروق عمر:التاريخ الإسلامي وفكرالقرن العشرين، مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت، لبنان، ص153.

(7) إنعام الجندي:المرجع السابق، ص21.

(8) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص19.

ث- الفرق الدينية السياسية والكلامية:

ظهرت الأحزاب السياسية في الدولة الإسلامية بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفّان، لتظهر بينها صراعات حزبية ولسانية في العصرالأموي بسبب إفتراق المسلمين إلى فرق دينية، إنضم إليها أمورغير مسألة الخلافة، فالإختلاف الأول كان حول الإمامة حتى أنّه "لم يُسل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثــل ما سُلّ على الإمامــة"[1]، فظهرت فرقتا الخوارج[2] والشيعة[3]، فالإختلاف على الأصول، أي الأمورالأساسية في العقـيدة كالتـوحيد...بعلم الكلام[4]، فظهرت فرقتا المرجئة والمعتزلة، لكل منهما دورفي العهد العباسي.

1- الفـــرق الدينية السياســـية:

ذكرالجاحظ بعضا من أسماء خطباء الخوارج وقضاتهم "وكان يزيد بن جابر قاضي الأزارقة[5] ، زيد بن جندب الإيادي خطيب الأزارقة[6]، ربّما إعترافا منه بمُقدمي هذه الفرقة رغم برنامجها.

---

(1) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص110.

(2) الخوارج، الذين كفّرواعلي وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل ومن رضي بالتحكيم، توجب الخروج عن الإمام الجائر أشهر فرقهم:الأزارقة، النجدات، الصفرية، الإباظية.
أنظر، البغدادي:الفرق بين الفرق، ص72. الشهرستاني:المصدرالسابق، ص113.

(3) الشيعة، الذين شايعوا عليا رضي الله عنه، قالوا بإمامته نصا ووصية، إما جليا، أوخفيا واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت، فبظلم يكون من غيره أوبتقية من عنده وليست الإمامة قضية مصلحية تناط بإختيارالعامّة ويتنصب الإمام بنصبهم، بل قضية أصولية.
أنظر، الشهرستاني:نفس المصدر، ص ص144،145.

(4) علم الكلام، علم يتضمن الحِجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والردّ على المبتدعة المنحرفين في الإعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنّة وسرُهذه العقائد الإيمانية هو التوحيد.
أنظر، إبن خلدون:المقدمة، ص458.

(5) الأزارقة، أصحاب أبي راشد نافع بن الأزرق، خرجوا من البصرة إلى الأهواز، فغلبوا عليها وفارس وكرمان أيام عبد الله بن الزبير، قتلواعماله، لهم ثماني بدع، أكثرتشددا لمخالفيهم، فكل مخالف لهذه الأمّة مشركا، أوجبوا إمتحان من قصد مُعسكرهم، إذا ادّعى أنّه منهم وإن لم، يقتله، قالوا منافق، مشرك وقتلوه وإستباحوا قتل نساء مخالفيهم وأطفالهم، قضوا بتخليدهم في النار ودارهم داركفر"إنّ مخالفينا مشركون، فلا يلزمنا أداء أمانتنا إليهم ولم يقيموا الحد على قاذف الرجل المحصن وأقاموه على قاذف المحصنات من النساء وقطعوا يد السارق في الكثير أوالقليل.
أنظر، البغدادي:الفرق بين الفرق، ص ص83،84. الشهرستاني:المصدرالسابق، ص ص111،113. الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص31.

(6) الجاحظ:نفس المصدر، ص33.

يدعون سياسيا إلى قيام حكومة مثالية، بأن تصبح الخلافة حقا مُشاعا لجميع المسلمين، لا حكراعلى قريش، فالمسلمون يختارون خليفتهم بمحض إرادتهم ولوكان عبدا حبشيا وهو ما سيُبقى الحروب على الخلافة قائمة والأكثر ستنضم إليها جماعات غيرعربية وهو ما يُظهر برنامج الخوارج بمظهر السذاجة.

مثّلوا قوة تكفيرية مُخرِّبة في العهد العباسي وأثبتوا عدم قدرة خطبائهم على الإقناع، لأنّ العقل غائب على ما يبدو في مناظراتهم مع من يشككون في أمر تبعيتهم إليهم وبالتالي فبرنامجهم قد تقبله العامّة دون الخاصة ولعّل حوادث بغداد السابقة الذكر، كانت من تدبيرهم.

جاهروا بالعداء لبني العباس وهو ما أدخلهم معهم في حروب، إذ رأوهم ممّن لا يصلح للخلافة ولم يُختاروا إختيارا حُرًا صريحًا ولم يستوفوا الشروط التي أوجبوا توفرها لإتمام أحقية الإمام[1] ولعلّ ذاك ما دفع الخليفة المهدي إلى توجيه جماعة إليهم بخراسان على رأسها يوسف بن إبراهيم المعروف بالبِرْم، منكرا ومن معه على المهدي سيرته وإجتمع معه خلق كثير، فأرسل إليه المهدي من أسَرَه وصلبه مع جماعة عام160هـ/781م[2].

أمّا الخليفة هارون الرشيد بعده، فسيَّر من قتل الخارجي، الذي خرج عليه بالجزيرة عام171هـ/802م[3]، فكان عدم إستقرار سياسي وإجتماعي وديني بسبب هذه الجماعات، رغم وجود المعتدلين من الإباظية[4]، التي كانت أقرب رأيًا من أهل السنّة، ترى مخالفيها ليسوا بمشركين، بل كفّار بالنعم وديارهم دور توحيد[5] فلم يُشكلوا خطرا على الحكم العباسي.

---

(1) أحمد أمين:ضحى الإسلام(بحث في الفرق الدينية من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج كما يبحث في تاريخهم السياسي وأدبهم)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة، ج3، ص337.
(2) إبن الأثير:الكامل في التاريخ، ج5، ص54.
(3) إبن الأثير:نفس المصدر، ص84.
(4) الإباظية، أصحاب عبد الله بن إباظ، خرج الخليفة أيام مروان بن محمد، وجّه إليه عبد الملك بن محمد بن عطية، فقاتله يقول: إنّ مخالفينا من أهل القبلة كفارغير مشركين ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال وغنيمة أموالهم من السلاح عند الحرب حلال وما سواه حرام وحرام قتلهم وسبيهم في السر وإن دارمخالفيهم من أهل الإسلام دارتوحيد، إلاّ معسكر السلطان.
أنظر، الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص ص131،132.
(5) البغدادي:الفرق بين الفرق، ص 97.

بينما كانت الشيعة حركة دينية أكثر، تطورت معها فكرة الدعوة إلى الإمام، فأصبح يتمتع بسلطة روحية ودينية، لم تعترف بتدخل العامّة في تحديده والإمامة محور الخلاف بين الشيعة ومخالفيهم من أهل السنّة ويبايعونه مختارين، لأنّ الرسول لم يحدد طريقة لإختيار الخليفة، فالخليفة يكون قرشيا، لأنّها أجدر القبائل العربية لهذا المنصب عند أهل السنّة، أمّا الشيعة ترى الإمامة ركنا من أركان الدين الأصلية، لا يجوز تركها للعامّة[1]، فهي وراثته صلى الله عليه وسلم أي واسطة بين الله والخلق لا عن طريق الرؤية، إنّما عن طريق الوحي المسموع.

إختلفت نظرة الشيعة إلى بني أمية وحُكم بني العباس، فإنقسوا إلى فِرق، تغذت بديانات أخرى، كاليهودية والزرداشتية والنصرانية عند المتطرفين منهم وتأثرت بالفلسفات المختلفة[2].

2- الفِرق الدينية الكلاميـــــة:

تعدّ المرجئة[3] فرقة في المجتمع الإسلامي، تشكل عثرة في سبيل تحقيق الخوارج لأهدافهم خاصة وأنّ كلاّ منهم يتحدث في أمور تخص العقيدة، تهم دنيا وآخرة المجتمع الإسلامي بكل أقلياته ومع ذلك فهي تمثل التيارالمحـايد الأكثــر سلبية، فكـل عمل تؤجل ثوابه أوعقابه إلى الآخرة، يجعل الفرد المسلم في حِلٍّ عن خوض صراعات لا جدوى منها ولا يجد صدى لها غيرتجذير الفتن، فهي لا تحكم على الأفعال في الدنيا، لا تُكَفِر أحدا، فالعمل ليس شرطا من شروط الإيمان، ثمَّ إنَّ مرتكب الكبيرة لا تراه كافرا ولا منافقا، إنّما مؤمن، شرط أن يكون مُصدّقا بالله ورسوله، فلا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفــر طاعة[4].

يبدو أنّها تيار يميل إلى التساهل، بل وهو المُخفف من حدَّة الغُلو على مستوى التيارات الأخرى وهذا ما يجعله مساعدا على ثبات الحكم العباسي ولا يجد أتباعه عداءً من أي خليفة بل ربّما هم الأكثر قبولا عند خاصة القصر وأكثرية الفئات الشعبية، لأنّ موقفهم هذا لا يُسبب فتنا على الإطلاق ولو كثُر أتباعه لتوقفت الفتن، لذلك فالمُحتمل أنَّ أي مرجئ يُقتل في العهد العباسي، ليس بسبب إرجائه، بل لأسباب أخرى[5].

(1) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص ص144،145.
(2) لمزيد من الإطلاع، أنظر، الفصل الرابع، ص139ومابعدها.
(3) الإرجاء على معنيين أحدهما:التأخير، قال:أرجه أي أمْهله والثاني:إعطاء الرجاء، أُطلقت المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول، لأنّهم كانوا يؤخرون العمل عن النيّة والعقد، أمّا الثاني، فلا يضرمع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفرطاعة وقيل:الإرجاء هو تأخير صاحب الكبيرة إلى القيامة، فلا يُقضي عليه بحكم ما، كونه في الجنّة، أوالنار والمرجئة أصناف منها، مرجئة الخوارج ومرجئة الجبرية.
أنظر، الشهرستاني: الملل والنحل، ج1، ص137.
(4) إحسان النص:الخطابة في عصرها الذهبي، دارالمعارف، مصر، الطبعة الثانية 1969م، ص111.
(5) أحمد أمين:ضحى الإسلام، ج3، ص324.

كما شهد النصف الثاني من القرن الثاني الهجري-السابع الميلادي، بروز فرقة المعتزلة، تبلورت في العهد العباسي، قُتل أكثر رجالها في عهد الخليفة المتوكل، لم تكن تعني الإنفصال على مذهب الجماعة الإسلامية كلّيًا، إنّما قصدت نوع من الحيـاد إزاء بعـض القضايا، التي تخص الآخرة، كقضية مرتكب الكبيرة، أهو في النار أم في الجنّة؟[1]، التي كانت مثارجدل بين أهل السنّة والخوارج والمرجئة واتّخذتها جلسات الحسن البصري[2]المسجدية موضوعا ويروي الكثير من المؤرخين كيف تمَّ نشأة المعتزلة[3].

إتَّفقت المعتزلة على خمسة أصول[4]، التوحيد، العدل، الوعد والـوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمربالمعروف والنهي عن المنكر ويبدو من تلك المبادئ، أنّ المعتزلة بحكم عقولهم، إن إلتقوا مع القرآن كليًا فإنّ إلتقاءهم مع السنّة نادرا، لذلك فهم أضافوا للساحة خصوما آخرين، كذلك إتّفاقهم على أنَّ كلام الله مخلوق له دلائله التي تبطله وهو ما خلق محنًا بينهم وبين أهل السنّة.

ثم إنّ مسألة كون الناس هم الذين يقدرون على أكسابهم وليس للّه في أكسابهم صُنعٌ وتقدير، جعل الناس غير مكلفين بالعقاب أمام الله والأكثر إعتزالهم قول الأمّة بأسرها بالمنزلة بين المنزلتين التي دعوا إليها، جعل للمخطئين مبررا للبقاء على الضلالة.

---

(1) يرى إبن الحجر العسقلاني أنّ الإيمان هو التصديق غير أنّ التصديق معنيين: أحدهما قول والآخر عمل، فإذا ركب المصدق كبيرة فارقه إسم الإيمان، فإذا كفّ عنها عادله الإسم، لأنّه في حال كفّه عن الكبيرة يجتنب بلسانه ولسانه مصدق عقد قلبه وذلك معنى الإيمان، فالشيعة الرافضة ترى أنّ مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار بينما ترى المعتزلة أنّه فاسق مخلد في النار بينما يرى أهل السنّة والجماعة أنّ الإيمان إعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح وهو يشمل عمل الطاعة والكفِّ عن المعصية، فالمرتكب لبعض ما ذكر لم يختل إعتقاده ولا نطقه بل إختلّت طاعته فقط، فليس بمؤمن بمعنى أنّه ليس بمطيع، فمعنى نفي الإيمان محمول على الإنذار بزواله ممّن إعتاد ذلك، لأنّه يخشى عليه أن يفضي به إلى الكفروهناك من يرى أنّ الطاعات تسمى إيمانا.
أنظر،إبن حجر العسقلاني(الإمام الحافظ أحمد بن علي 773هـ/856هـ):فتح الباري في شرح صحيح البخاري- طبعة مزيدة بفهرس أبجدي بأسماء كتب صحيح البخاري- قرأ أصله تصحيحا وتحقيقا عبد العزيز بن عبد الله بن باز كما رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي وقام بإخراجه وصحّحه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، المجلد12، بدون تاريخ، ص ص61،62.

(2) الحسن البصري، أبوالحسن بن أبي الحسن سيار، أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري، يقال: مولى أبي اليسركعب بن عمروالسلمي، أمه مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية، أبوه يسار، من سبي ميسان، سكن المدينة، أعتق وتزوج بها في خلافة عمر، فولد إبنه الحسن، أمه خيرة، نشأ بوادي القرى، سيد البصرة علما وعملا، مات عام 110هـ/728م، عاش ثمانية وثمانين عاما.
أنظر، الذهبي:سيرأعلام النبلاء، ج4، ص624وما بعدها.

(3) أنظر، إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص21. للإستزادة أكثر إطلع على الفصلين الثالث والرابع من هذه المذكرة.

(4) أنظر أصول المعتزلة بالملحق رقم8، ص164.

ج- التصوف وأثره في المجتمع الإسلامي:

لم يقتصر التصوف على المسلمين العرب، بل أيضا على الدُخلاء الجدد، فكان لــه تأثيره الإيجابي أو السلبي، أفرد الجاحظ فصولا لهم في كتاب "البيان والتبيين" ولم تبق عاطفة التدين على النحو الذي صاغها فيه علم التصوف ولم تقتصر على الجانب الديني، بل خاضت في موضوعات غيبية لاعلاقة لها بالدين و تعلق بأفكار أجنبية ينكرها الإسلام[1] .

لخّص الجاحظ دورهم السلبي "وأكثر ما سمعت من ناس من الصوفية ومن النصارى لمضاهاة سبيل الزنادقة في رفض الذبائــح والبُغـض لإراقة الدماء والزهـد في أكـل اللُحمان، فالنصراني إذا ترَّهَب لبِس الصوف، لأنّه واثق أنّه متى لبس وتزيَّا بذلك الزي وتحلَّى بذلك اللباس وأظهر تلك السيما، أنَّه قد وجب على أهـل اليُسر والثروة منهم أن يعُولوه ويكفُـوه ثم لا يرضى بأنّ ربْح الكفاية باطلا، حتى إستطال بالمرتبة[2] وهكذا صار التصوف طريقا للتسول عند المسلمين.

تعدَّت سلبيات التصوف إلى الخوارج، فكان نسك الخارجي إستعظام المعاصي، أمّا نسك الخراساني في أن يحج وينام على قفاه ويعقد الرياسة ويتهيأ للشهــادة ويبسط لسانــه بالحسبة[3] وبالتالي فالتصوف صارحقا ظاهرة سلبية، ساعدت على الفتن أكثـر من الإصلاح، حتى قيل:أنّ طائفة منهم تُقر بالتوحيد مع إثبات الصفات ولكن أكثرهم ممّن يعرضون عن الأمر والنهي أشرُ من المعتزلة ونحوهم ويشبهون المشركين[4].

لم يُحَكِم أكثرية المتصوفين عقولهم في تحكيم أمور العقيدة، حتى قيل لبعضهم:لِمَ تصْفر الشمس عند الغروب؟ قال:"خوفا من الفراق و به ألم"[5] وتفسيرهم للآيات القرآنية كـان ساذجا إذ فسَّروا الآية "إنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً"[6] بقولهم:هي النفس الحيوانية وذبحها هو قمعها عن هواها[7].

---

(1) محمد الغزالي:الإسلام والطاقات المعطلة، ص29.
(2) الجاحظ:الحيوان، ج4، ص428.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص ص212،220.
(4) إبن تيمية:الرسالة التدمرية في التوحيد والأسماء والصفات والقضاء والقدر، مكتبة التراث الإسلامي، شركة شهاب، ابن عكنون، الجزائر، طبعة1960/11/11م، ص84.
(5) الأصبهاني:المرجع السابق، م2، ج3، ص64.
(6) سورة البقرة:الآية رقم67.
(7) موسى إبراهيم بن إبراهيم:تأملات قرآنية، دار عمار، الجزائر1988م، ص98.

يتبين أنّ شخصية الجاحظ العربية الأصل والمنشأ، قد كابدت المحن منذ الصغر، لتكبر بمرارة اليُتم من جهة وقلّة الحاجة من جهة أخرى وتُكيّف ظروفها الصعبة، لتجعل منها نبراسا تهتدي به في تكويـن شخصية الأديب، الذي إنطلق من كتاتيــب البصرة، حافظا لآيٍ قرآنيـة، سامعا من المترددين على المربد أشعارهم وغيرها، آخذا بنواصي فن الخطابة، التي لم تقتصرعلى جهة أو لغة واحدة، بل تعدّدت.

وبالتالي فإنّه قد جمع علوم الدين والدنيا والأكيد أنّه إطّلع على حلِّ بعض المشكلات، من مناظرات أهل الكلام أو من تلك التسويات التي كانت تُقـام لحل الخلافـات بين القبائـل أنـذاك، ليصبح حاملا لمشاكل الأمّة في فكره، فضلا عن مشكلات شخصه.

عرف الجاحظ كيف يبدأ الخلاف وأسبابه وطريقة حلّه، عبر مناظرات كلامية أو تجارب شخصية وربّما ذاك الذي دفعه إلى تعظيم مكانة اللسان ودوره في ترجمة الأفكارالعقلية، التي لا بدّ منها، فنال حظوة عند الوزراء والخلفاء العباسيين.

كان قادرا على المشاركة في خلق فتن بالقصر ذاته، كونه صاحبَ كل الشخصيات المتناقضة فكريا لبعضها والمتحاسدة وكان في إمكانه أن يُغترَ ببُهرج السلطان وفخامة المُلك ووشاية النمامين في القصر من حُجَّابٍ وغيرهم، إلاّ أنّه تغافل عن تلك الدنايا، ليرى أنّ تغييرالأوضاع في الدولة الإسلامية، ليس حبيس أهل المناصب العليا أو ذوي القربى من الخلفاء والحكّام بصورة عامة، بل هو رهين فكر كل محاول جاد للتغيير الإيجابي.

أمعن نظره في مشاهدة المتناقضات عند العامّة والخاصة (القاعدة الشعبية والقمة الحاكمة)، متفكرا في أسباب فتن العالم الإسلامي، السياسية والإجتماعية والدينية، التي يبدو أنّها لم تكن من حاملي الأديان المُحرفة الدُخلاء وحدهم، بل أيضا من تلك الفِرق التي إحتمت بالدين الإسلامي في برامجها.

ولمّا كانت الدولة الإسلامية قد إنفتحت على المعارف الأجنبية من هندية وفارسية ويونانية، إرتآى الإطّلاع عليها، مترصدا لمكامن العقلانية فيها، متأملا لمنابع الحكمة منها وهذا يدل على أنَّه أوجد لثقافته أهدافا، كان يجدِّدُ لتحقيقها، أي لم تكن ثقافة عشوائية وإلاّ فَلمْ نكن لِنَجِدَهُ اليوم مُتصدِّرا الريادة على قوائم متعددة من كُتاب ومُصلحين وغيرهم.

كما يظهر حاملا لثقافات متعددة وبالتالي ملّك عقله تراثا حضاريا متنوعا، دفعه إلى ضرورة صهره في بوتقة تلتقي مع الدين الإسلامي دون مخالفة المنطق العقلي، ليؤسس لظهور مجتمع ذو ثقافات، تستلهم شرعيتها من الدين الإسلامي، رغم إختلاف أصولها ولعلّ هذا ما سأتطرق إليه في الفصل الثاني/ إن شاء الله.

الفصل الثانـي

عقيـدة الجاحظ ومـؤلفـاتـه

الفصــل الثانــي

عقيـدة الجاحظ ومـؤلفـاتـه

1- عقيدة الجاحـــــظ
أ - منابع ثقافته الإعتزالية
ب - الجاحظيـــــــة
2- الجاحظ والتأليـــف
أ- ما قيل عن كتب الجاحـظ
ب-أهـــــم مؤلفــاتـــــه
ت-تعليق على محتوى كتب الجاحظ
3- دراسة تحليلية لكتاب البيان والتبيين :
1. دواعي تأليف الكتاب
2. نســـخ الكتـــــاب
3. ما قيل عن كتاب البيان والتبيين
4- تلخيص محتوى الكتاب
أ- تلخيص محتوى الجزء الأول
ب-تلخيص محتوى الجزء الثاني
ت- تلخيص محتوى الجزء الثالث
ث-تلخيص محتوى الجزء الرابع
5- تحليل ونقـــد موضوعات الكتاب
6- خصائص أسلوب كتاب البيان والتبيين

الجاحظ الذي كابد المحن منذ الصغر ومرارة اليُتم وشاهد بعينيه أثارالفتن المتعددة التي عرفها المجتمع الإسلامي، بدءِ من البصرة، ثم بغداد، التي إنتقل إليها منذ 204هـ/820م وطالت حتى الدُخلاء أيضا، دفعته إلى الكتابة أكثر في كل المواضيع، التي ترتبط بالطبع سواء الحيواني أوالإنساني، آخذا أمثلة من الذين إلتقى بهم أو سمع عنهم، مُستفيدا من دراسات من سبقه من المسلمين وغيرهم.

ظهرت له كُتب ورسائل، تتفرع بها ينابيع المعرفة، ليُقر جُملة مبادئ، إنفرد بها عن المعتزلة، التي لم تقدرعلى حلِ المشكلات الدينية أوالسياسية أوالإجتماعية، بل الأكثر هيَّجت المُناهضين لها إلى التفكير في محاولات تخريبية، تؤكد من خلالها الغياب الكُلّي للعدل، سواء ذاك الذي دعت إليه المعتزلة أو ذاك الذي كان إقرارُه مُتعلقا بسياسة خلفاء بني العباس ووزرائهم.

إنَّ إقرارعقيدة جديدة تحدُ من ظاهرة الفتن المُتكررة، تطَّلب من الجاحظ التفكير في كيفية إقناع كل المُتنافرين ودراسة التراث الوافد وإيجاد علاقة له بتراثنا الإســلامي وأصالتنا العربية، خاصة وأنّ هذا الوافد بكل ما يحمل من أفكار دينية وأخلاقية وتقاليد، يُمثل بالنسبة للمجتمع العربي الإسلامي خاصة العباسي أنذاك المُعاصرة بمفهوم ذاك الوقت وهوما يستدعي إيجاد آليات لإدارة حُكم المرحلة القادمة سياسة و مُجتمعا و ثقافة و دينا و يبدو أنّ الجاحظ الكهل أمعن تفكيره عن طريق الكتابة، لإيجاد إجابات منطقية لكل سؤال، كان يدور بعقل كل فرد.

1. هل نقبل الجديد كما هو و ننحلُ معه شخصيا وهوية، فنمـــحي ما تبَقى لنــا من وجـــود و نُكتب في التاريخ ممّن أسهموا في إسقاط دُوَلهم؟.
2. كيف نتعامل مع أهل الديانات الأخرى الوافدين بما فيهم أهل الإلحاد؟.
3. هل نُقلد بصفة مباشرة؟.
4. هل نخلق توأمة فكرية بين فكرنا وفكر غيرنا؟.
5. هل إجابات هذه الأسئلة إحتواها كتاب البيان والتبيين أم لا؟.
6. ما الهدف من تأليفه في آخرحياته؟.
7. ما جديد الجاحظ للعالم الإسلامي وفتنه؟، أهُو حلٌ جذري بالسيف؟ و بالتالي إنتصار التعصُب خاصة عند الخوارج المتشددين في قضية التمسك بالنص القرآني أم بالقلم وهذا يتطلب تعليم كل الأفراد وتكون النتيجة ليست آنية؟، أم نتقوقع على أنفسنا لا نقبل الجديد مهما كان؟.

تلك أسئلة أُحاول أن أجيب عنها من خلال دراستي لمحتوى "كتاب البيان والتبيين"في الفصل الثاني/ إن شاء الله.

1- عقيــــــــدة الجاحظ:

خلّف الجاحظ آثارا متعددة، منها ما مسّ العقيدة الإسلامية ومنها ما خصّ مختلف المواضيع الحياتية، ما إرتبط منها بالسلطان والسياسة ومنها ما خصّ أوجه الحياة الإنسانية حتى شكّلت تلك الثروة مشروعا حضاريا وفق التصور الجاحظي.

أ - منابع ثقافته الإعتزالية:

يُعدّ الجاحظ أحد كباررجال المعتزلة، عُدّ في طبقة الإعتزال السابعة[1]، قيل عنه:"عظيمُ القدر في المعتزلة وغيرالمعتزلة، من العلماء الذين يعرفون الرجال ويُميزون الأمور"[2] وبالتالي فإعتزاله له منابع متفرعة ومتجذرة، تعود إلى مرحلة صباه، بين إستعدادات فطرية وأخرى مكتسبة من أصدقائــه وأساتذته وغيرهم، حتى وُصف ب:"نِعْمَ القدَري"[3].

كان عصره زاخرا بحركة علمية وأدبية، برزفيها كُتّاب وعلماء من مختلف التخصصات المعرفية، لكن لم يتميزأحد منهم بشمولية المعرفة التي تميَز بها الجاحظ، بدليل مؤلفاته المُتشعبة المواضيع ولعلّ ذلك مردُه إلى إستعداداته الفطرية التي ولّدت عنده ميلا إلى شتى فروع المعرفة، لينطبق عليه"لا يصيرُ الإنسان عالما، إلاّ بخمسٍ، غريزةٌ مُحتملة للعلم وعناية تامّة وكفاية قائمة وإستنباط لطيف ومُعلمٌ فصيح"[4].

وكما سبق أن أشرت، فقد هفت نفسه منذ الصغر إلى حُبِّ المعرفة، فصبَرعلى مطالعة الكتب، حتى إكترى دكاكين الوُراقة لأجلها وحضر مجالس المسجديين ومناظرات العلماء وإستفاد من أُعطيات الوزراء والخلفاء للإعتناء بالتأليف و بزيارته لعلماء في مُدن خارج البصرة، من بغداد وغيرها، وسّع معارفه و يبقى الفضل لأساتذته[5] لمعرفة أصول علم الكلام.

(1) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص67.
(2) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص76.
(3) ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص89.
(4) الأصبهاني:محاضرات الأدباء، م1، ج1، ص47.
(5) من أساتذته إبراهيم النظام، أبو الهُذيل، بشر بن المعتمر، ثُمامة بن الأشرس.أنظر: شرح مطول في الفصل الرابع، ص144ومابعدها.

ب- الجاحظيـــــة:

من بين الفِرق الكلامية التي حوتها الخلافة العباسية، إختار الجاحظ الإعتزال مـذهبا، إعتقد به ودافع عنه وبالتالي وافق عموم المعتزلة في المبادئ الخمسة:التوحـيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما وافقهم في فكرة خلق القرآن ونفي الصفات عن الله، لكنّه يختلف عنهم في أصل أفعال الإنسان ومسائل أخرى، جعلته يصف مذهبه بالوسطية "حسنُ الحال، متوسط المذهب"[1]، فانقسم مؤرخو المِلل والنِحل[2] إزاءه بين مُكفر له، كونها بدع وضلالات كالبغدادي ومنهم من درسها بإعتدال دون رأي منه وتتمثل هذه المسائل في الآتي:

1- إنّ المعارف كلُها ضرورية طباع وليس شيئ من ذلك من أفعال العباد وليس للعباد كسب سوى الإرادة وتحصل أفعاله طباعا[3].

2- أنكر أصل الإرادة وكونها جنسا من الأعراض، فقال:إذا إنتفى الشرع عن الفاعل وكان عالما بما يفعله، فهوالمُريد على التحقيق وآمّا الإرادة المتعلقة بفعل الغير، فهو ميل النفس إليه وزاد على ذلك بإثبات الطبائع للأجسام، كما قال الطبيعيون[4]من الفلاسفة[5] وأثبت لها أفعالا مخصومة بها وقال باستحالة عدم الجوهر، فالأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز أن يفنىَ.

---

(1) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص77.

(2) الملل، هم أرباب الديانات. أنظر، الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص03. أمّا النِحل:جمع نحلة بكسرالنون، تطلق على طائفة من الناس يجمعهم مذهب واحد، فتكون مرادفة للجماعة أو الفرقة أو تطلق على طائفة من الناس تجمعهم عقيدة باطلة أوعقيدة مخالفة لعقيدة الجماعة، فتكون حينئذ مرادفة للبدعة.
أنظر، جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص ص460،461.

(3) المعارف، العلم بالأشياء، تتناول الظواهروالأفاعيل التي تصدرعن الكائنات الجامدة والحيّة، نوعان، الأولى معارف حسية بالحواس، الثانيةعقلية تحدث بالفعل طرقها، الشك، المنطق، الجدل، التجربة، التلقين، الإلهام. أنظر، علي بوملحم:المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دارالطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط أولى1980م، ص141وما بعدها. أمّا الطباع، تقال لمصدر الصفة الذاتية الأولية لكل شيئ والطبيعة، قد تختص بما يصدرعنه الحركة والسكون، فيما هو فيه أولا وبالذات من غيرإرادة والطبيعة هي مبدأ أول للحركات والمكونات التي تُكون الطبع، أنظر، إبن سينا:التنبيهات والإشارات، ص ص179،180. أمّاالإرادة، ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة. أنظر، إبن تيمية:الرسالة التدمرية، ص15.

(4) الطبيعيون، أصحاب المذهب الطبيعي، الطبيعة عندهم هي الوجود كله، لا وجود إلاّ لها، أي للحقيقة الواقعية المؤلفة من الظواهر المادية، المرتبطة بعضها ببعض على النحوالذي نشاهده في عالم الحس والتجربة، يفسرون جميع ظواهرالوجود بإرجاعها إلى الطبيعة، يستبعدون كل مؤثر يجاوزحدود الطبيعة، هم الدهريون المنكرون لوجود الصانع المدبر ويزعمون أنّ العالم وُجد بنفسه دون حاجة إلى علّة خارجة عنه.
أنظر، جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص17.

(5) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص ص65،66.

3- أهل النارلا يُخلّدون فيها عذابا، بل يصيرون إلى طبيعة والنارتجذب أهلها إلى نفسها دون أن يدخل فيها أحد.

4- نفى الصفات عن الله وأثبت القدر خيره وشره من العبد وفي نفي الصفات قال:يوصف الباري تعالى بأنّه مريد، بمعنى أنّه لا يصح عليه سهو في أفعاله ولا الجهل ولا يجوزأن يُغلب ويُقهر، وقال:إنّ الخلق كُلّهم من العقلاء، عالمون بأنّ الله تعالى خالقهم وعارفون بأنّهم مُحتاجون إلى النبي وهم محجوجون بمعرفتهم، ثم هم صنفان، عالم بالتوحيد وجاهل به، فالجاهل معذور والعالم محجوج.

5- من إنتحل دين الإسلام، فإن إعتقد أنّ الله تعالى ليس بجسم ولا يُرى بالأبصار حقا وإن عرف ذلك ثم جحده وأنكره أو دان بالتشبيه والجبر، فهو مُشرك كافرحقا وإن لم ينظر في شيء من ذلك وإعتقد أنّ الله ربّه وأنّ محمدا رسول الله، فهو مؤمن، لا لوم عليه ولا تكليف عليه غير ذلك.

6- حكى عنه إبن الراوندي[1]أنّ القرآن يجوزأن يقلب مرة رجلا ومرة حيوانا وقيل:أنّ القرآن جسم مخلوق وأنكرالأعراض أصلا وأنكر صفات الباري تعالى[2].

المعارف كلّها ضرورية، طباع وليس شيئ من ذلك من أفعال العباد، أي المعارف موجودة أصلا عند الإنسان وهي مع ذلك فعل للعباد على معنى أنّها وقعت منهم طباعا وأنّها وجبت بإرادتهم وربّما ذاك ما يؤكده الجاحظ في قوله:"يجوزأن يكون الله تبارك وتعالى حين حوَّل إسماعيل عربيا، أن يكون كما حوّل طبـــع لسانه إلى لسانهم وباعـده على لسان العجـــم، يكون أيضا حوّل سائرغرائزه وسلَخَ سائر طبائعه، فنقلها كيف أحبَ وركّبها كيف شاء، ثم فضّله بعد ذلك بما أعطاه من الأخـــلاق المحمـــودة واللســـان البيِّن بـــما لم يخُصهم بـــه، فكذلك يخُصه من تلك الأخلاق ومن تلك الأشكال بما يفوقهم ويروقهم، فصار بإطلاق اللسان على غير التلقين والترتيب وبما نقل من طبائعهم و بالزيادة التي أكرمه الله بها"[3].

(1) إبن الراوندي، أبوالحسين أحمد بن يحي الراوندي، من أهل مرو، من المتكلمين، كان أول أمره حسنُ السيرة، جميل المذهب، كثيرالحياء، إنسلخ من ذلك كله بأسباب عُرضت له ولان علمه، كان أكبر من عقله، قيل:تاب عند موته وأظهر الندم، إعترف بأنّ ما صارإليه، كان حمية وأنفة من جفاء أصحابه وتنحيتهم إيّاه من مجالسهم.
أنظر، إبن النديم:الفهرست، ص212.

(2) البغدادي:الفرق بين الفرق، ص114.

(3) الجاحظ:البيان والتبيين، ج4، ص07.

أي أنّ الطباع من فعل الخالق وما للعبد إلاّ الإرادة وإذا كان أحد أساتذته نسبَ الأفعال المُتولدة إلى غير فاعل لها، إذ لا يمكـن نسبتها حسبه إلى ميت أو للّه، لأنّ الله لا يفعـل القبيح، فالجاحظ يؤكد أنّ المعارف ليست من فعل الإنسان، لأنّها متولدة من إتجاه الحواس أو من النظر، لذلك ليس للإنسان في تحصيل معارفه سوى الإرادة وما يحدث بعد ذلك، فاضطرار وطبيعة، فتوجيه النظرعمل إرادي، لكن إقناع الناظرأو عدمه وتحصيل العلم به عمل ضروري أو إضطراري لا كسبي[1].

وهي نفسها طريقـة المنهـج العلمـي في تحصيـل المعـارف، فالمشاهـدة، الفرضية، التجربة، النتيجة، فالمشاهدة هي فعل متولد من النظر، بينما التجربة، فهي توجيه الفكرإلى البحث والإستعراض والبرهان عليها هو العمل الإرادي، بينما النتيجة الأخيرة والقانون العلمي، فهو العمل الإضطراري لا الكسبي، فهو بطبعه يقبل النتيجة أو يرفضها.

إذن الذين لم تبلغهم الدعوة ليسوا آثمين ومن بلغته ولم يُؤدِه النظر إلى الإيمان بها، فليس بآثم، إنّما الآثم من قام لديه البُرهان على صِحة الدعوة وعاند وبالتالي فاليهود والدهرية والنصارى إنْ نظر أحدهم وعجز عن درك الحق، فهو معذور غير آثم وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر، فهو أيضا معذور و إنّما الآثم هو المُعاند فقط [2] وبالتالي فعقيدة الجاحظ لم تناقش مثل المعتزلة المؤمن مرتكب الكبيرة، بل المسلم صاحب الكبيرة، أي عقيدة خصّ بها الوافدين أكثر.

يتبين أنّ الجاحظ كان يذهب في أمور الدين مذهبه في أمور العلم و يُنبه إلى كل مسألة لا تُطابق العقل و لا يريد إلاّ العلّة والبرهان في كل قضية من القضايا[3]، كما يبدو أيضا أنّه إلى جانب إثباته قدرة العقل على الفهم و تجنيب الإنسان ما يضره في أُخراه، يضيف للعقل قدرة نقدية "لا تذهب إلى ما تريك العين وإذهب إلى ما يُريك العقل وللأمور حُكمان، ظاهر للحواس و حُكم باطن للعقول و العقل هو الحُجّة"[4].

---

(1) أحمد أمين:ضحى الإسلام(بحث في الفرق الدينية من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج كما يبحث في تاريخهم السياسي وأدبهم)، دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة، ج3، ص ص132،133.

(2) نفسه.

(3) حنّا الفاخوري:تاريخ الأدب العربي، ص565.

(4) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص207. حسني زينة:العقل عند المعتزلة، دارالأفاق، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ/1980م، ص21.

حسبه العقائد ليست مُكتسبة، بل مفروضة فرضا، نتيجة حتمية لكيفية تكوين عقله وما يُعرض من الآراء و أنّها تفاعل طبيعي بين هذين العاملين، فمن عُرض عليه دين ولم يستحسنه عقله، فهو مُضطرٌ إلى عدم إستحسانه و ليس في الإمــكان أن يستــحسن و من أسلم عن نظـر فإسلامه ضروري غير مُكتسب و من كفر، فكُفره ضروري غير مكتسب وليس للإنسان من الأعمال المُكتسبة إلاّ توجيه الإرادة، فإذا وجهّها، فما بعد ذلك من كفر أو إيمان لا دخل له فيه حينئذ لا يكون مسؤولا عن إعتقاده[1].

إذن فسيُترك الكلُ لشريعته حتى أهل الإلحاد، إذا لم يقتنعوا بديانات أخرى، فهم غيرآثمين، لأنّ إلحادهم ضروري لا كسبي وإذا إتبعنا هذه العقيدة، فإنّ الدُعاة تُصبح دعوتهم هباء، لذلك يُعلق البغدادي مُعقِبا عليها، إذا كان الإنسان لا فعل له إلاّ الإرادة، لزمه أن لا يكون مُصليا و لا حاجًّا و لا زانيا ولا سارقا ولا قاذفا ولا قاتلا، لأنّ هذه الأفعال ليست طباعا.

وبالتالي فكلُ طبيعة لا ثواب ولا عقاب عليها أصلا، إذ كيف يُعاقب الله على ما لم يكُن كسبا له؟ كما لا يُثاب ولا يُعاقب على لونه وتركيب بدنه إذ لم يكن ذلك من كسبه[2] و بالتالي فالطباع التي تكلّم عنها تصلح لأن تكون في الحيوانات، لأنّها هي المُسطر لها عملها، بينما الإنسان، فله عقل يُدرك به.

أمّا إستحالة عدم الفناء وأنّ الأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز أن يفنى، معناه أنّ الله الذي خلق كل شيئ، لا يُمكن إفناءه بعد حُدوثه بالفعل أوَ يَقْدِرُ الله على الخلق ولا يقدرعلى إفنائه؟[3]، فحسبه لا يقدر الله على إفناء الجنّة و النار، أرى في هذا تقزيم في قدرة الخالق.

الآيات تؤكد دوام الناروعذابها للكافرين ودوام الجنّة و نعيمها للعابدين و إن قصد بالجوهر أصل المادة أو طبيعة الأشياء بإستحالة فنائها، فيمكن لأشياء أن تنقرض، فهذا إفناء جوهرها و يذهب إلى تغير أعراضها فقط، كتغير المادة في الطبيعة، فالماء قد يتحول إلى حالة جامدة أو غازية و يمكن للماء أن يجف أصلا، فالأعراض إذن تفنى و لا تتبدل.

أمّا عن أهل النار كونهم لا يُخلّدون فيها عذابا، بل يصيرون إلى طبيعة، فهذا ما يُخالف القرآن"إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ الله كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا"[4]، أي الإقرار بدوام العذاب، فالطبيعة قد يُفهم منها

(1) أحمد أمين:ضحى الإسلام، ج3، ص134.
(2) البغدادي:الفرق بين الفرق، ص176.
(3) نفسه.
(4) سورة:النساء،الآية:رقم55.

إنحلال الأجساد إلى مواد أولية و في هذه الحالة معناه توقّف العذاب، إذن فلِمَ بقاء النار أصلا؟ وإذا كانت النار تجذب أهلها إلى نفسها دون أن يدخل فيها أحد، أوجب عليه ذلك القول أنّ الجنّة أيضا تجذب أهلها إليها[1] و هو بذلك فقد حدّد للنار طبعًا، بينما النار تقوم بعمل مُسطر لها وأين أصحاب المنزلة بين المنزلتين من كل هذا؟ أهم في الجنّة أم في النار؟.

أعتقد أنّ الجاحظ في حديثه عن الطبيعة الأولى، قد يصدُق قوله على الحيوانات التي تصير إلى ترابٍ في الآخرة، إذ لا عقاب ولا ثواب لها، فهي أصلا لا عقل لها و بالتالي فبالإلزام والوجوب الذي يذكره، يجعل دخول النار حتمية و لا يدعو المُسيء إلى التخلي عن إساءته و يجتنب النار بالدعاء أو الصدقة، فكيف تصلح هذه العقيدة إذن لتبيان حقيقة الدين للملاحدة و غيرهم ممّن يُسبب الفتن في المجتمع الإسلامي؟.

أمّا عن زعمهم بأنّه قال:أنّ القرآن جسد يجوز أن يقلب مرّة رجلا و مرّة حيوانا، فذاك ما أعتقد أنّه نُسب إليه، كونه إنتقد الصوفية في هذا:"زعم ناس من جُهَّال الصوفية أنّ في النَحل أنبياء لقوله عزّ و جلّ" وَ أَوْحَى رَبُكَ إِلى النَحْلِ"[2] و زعم أنّ الحواريين كانوا أنبياء لقوله تعالى: "وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الحَوَارِيينَ"[3]، قلنا:"و ما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء؟".

ربّما دلَّ ذلك على عدم شكِه في الخبرِ القرآني، لأنّه على لسان رسول و لا أجد في كتاب الحيوان مثالا عن حيوان تنبأ و أكمل" و بعد، فإن كنتم مسلمين، هذا قول أحد من المسلمين إلاّ تكونوا مسلمون، فلِمَ تجعلون الحُجّة على نُبوة النحل كلاما هو عندكم باطل؟"[4].

يخالف أستاذه أبا الهُذيل[5] في مسألة التكليف و معرفة الشرائع، فأستاذه التكليف عنده قبل ورود السمع، أي لا يحتاج إلى الرُسل و أنّه على الإنسان معرفة الله بالدليل، في حين ذهب الجاحظ خلاف ذلك بقوله:أنّ الإنسان قبل وُرود السمع و التكليف غير مسؤول عن مخالفة الأحكام الدينية، فالناس عاجـــزون عن إدراك الأحكــام الدينية بعقولهم و بدون الأنبياء و الكتب، أي ضرورة الرُسُل و الرسالات ومعرفة صدقهم تتم إضطرارا لا إكتسابا و رغم ذلك، فهناك من رمى الجاحظ بنفيه التكليف عن الإنسان.

---

(1) البغدادي:الفرق بين الفرق، ص176.
(2) سورة:النحل، الآية رقم68.
(3) سورة:المائدة، الآية رقم 111.
(4) الجاحظ:الحيوان، ج5، ص426.
(5) أبوالهُذيل محمد الهُذيل العبدي، من أهم الشخصيات التي تتلمذ لها الجاحظ، يُعدّ في طبقة الإعتزال السادسة. أنظر، إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص44.

أمّا عن خلق القرآن، يُخالف أبا الهُذيْل في قوله:بعض القرآن في محل و هو قوله:كن وبعضه في محل كالأمر والنهي والخبر والإستخبار و يرفض الجاحظ، إعتبارالقرآن مجرد أصوات و مقاطع، كما يقول أهل السنّة و يذهب إلى أنّه جسم و صوت ذو تأليف و نَظْم وتقطيع و خلق قائم بذاته، مُستغن عن غيره[1].

2- الجاحـظ والتأليـــف:

أ- ما قيل عن الجاحظ وكتبـــــه:

ذاع صيت الجاحظ في فضاء التأليف بما قدّمه للقارئ العربي وغيرالعربي في ذلك الوقت، فأفرد المؤرخون صفحاتا لذكرعناوين كُتبه المختلفة، قيل عنها:"كتبه زاهرة ورسائله أفنان مثمرة"[2]،"كتبه تُعلم العقل أولا والأدب ثانيا"[3]،"له عدّة مؤلفات حسان"[4]،"...لا يُعلم أحدٌ من الروّاة وأهل العلم أكثر كُتبا منه"[5]،"أكثرُمن مائة وسبعين كتابا ورسالة، عصفت بها أعاصير الخلاف المذهبي"[6]، "هو نسيج وحده في جميع العلوم، جمع بين علم الكلام والأخبار والفُتيا والعربية و تأويل القرآن و أيام العرب مع ما فيه من الفصاحة وله مُصنفات نافعة في التوحيد وإثبات النُبُوة و في الإمامة و فضائل المعتزلة و غير ذلك"[7].

"من فُضلاء المعتزلة و المُصنف لهم، طالع كثيرا من كتب الفلاسفة و خلط و روّج بعباراته البليغة و حُسن براعته اللطيفة"[8]، "آثاره تؤلف موسوعة علمية وأدبية كاملة وهو خير مثال للثقافة العربية والنضج الفكري والعلمي و الأدبي البليغ و الأسلوب الإنشائي الرفيع رغم ضياع الكثير منها"[9]، "هؤلاء أتباع عمرو بن بحر الجاحظ وهم الذين إغتروا بحُسن بيان الجاحظ في كتبه التي لها ترجمة تروق بلا معنى"[10]،"كان بارعا فاضلا، قد أتقن علوما كثيرة وصنَّف كتبا جمّة، تدل على قوة ذهنه وجودة تصرفه و من أجَّل كتبه الحيوان و كتاب البيان والتبيين و هما من أحسن مصنفاته وأمتعهما"[11].

(1) علي بو ملحم:المناحي الفلسفية عند الجاحظ ، ص168وما بعدها.
(2) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ج16، ص75.
(3) ياقوت الحموي:نفس المصدر، ص98. الكُتبي:فوات الوفيات، ج2، ص ص246،247.
(4) المسعودي:مروج الذهب، ج4، ص238.
(5) عبد السلام:تقديم مكتبة الجاحظ، الجاحظ:الحيوان، ج1، ص06.
(6) الجاحظ:نفس المصدر، ص11.
(7) إبن المرتضى:المصدرالسابق، ص68.
(8) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص65.
(9) حنّا الفاخوري:تاريخ الأدب العربي، ص568.
(10) البغدادي:الفرق بين الفرق، ص175.
(11) إبن كثير:البداية والنهاية، ج6، ص76.

عُني بدراسة حياته ومنهج كتبه المستشرقون من مختلف المدارس الإستشراقية، خاصة المدرسة الفرنسية، شارل بللات:pellat.ch والبارون كراديفوCarra de vaux bon b، أمّا من المدرسة الإسبانية الأب آسين بالاثيوس1871م/1944م Asin palacios ;P.M ، أمّا من المدرسة الألمانية آدم متزAdam Metz وسأخصهم بالحديث في تحليل ونقد مواضيع كتاب "البيان والتبيين".

ب- أهـــم مـؤلفــاتـــه:

ألّف الجاحظ في شتّى المواضيع، أفرد لها البعض صفحاتا خاصة لإحصائها[1] وما يهمنا ربّما ذكره ما ذكره هو نفسه في كتبه و خاصة كتاب "البيان والتبيين"، الذي أضعه موضع الدراسة فيما بعد و يمكن عموما أن نصنفها كالآتي:

1- في الفلسفة والإعتزال:كتاب الإستطاعة، خلق القرآن، الرد على اليهود، الدلائل والإعتبار على الحق والتدبير، التفكـروالإعتبار[2]، نظم القرآن، الرد على المشبهة، فضيلة المعتزلة، وجوب الإمامة.

2- في السياسة والإقتصاد:الوُكلاء والمُوكلين، البخلاء، الطُفيليين، السلطان وأخلاق أهله، الأخطاروالمراتب والصناعات، تحصين الأموال، رسالة أبوالنجم في الخراج، غش الصناعات، أخلاق الشُطار، الزرع والنخل والزيتون والأعناب، أقسام الصناعات ومراتب التجارات.

3- في المجتمع والأخلاق:الجواري، العرجان والبُرصان، التربيع والتدوير، الحاسد والمحسود الصُرحاء والهُجناء، السودان والبيضان، المعاد والمعاش، النساء، التسوية بين العرب والعجم، الإخوان، المُـزاح والجــد، ذم الــزنا، أمهـــات الأولاد، الأنس والسـلوى، الكبر المُستحسن والمُستقبــح، عناصرالآداب، الرسالة إلى أبي الفرج في إمتحان عقـول الأولياء، رسائلة في كتمان السر، رسالة في مدح النبيذ، رسالة في العفو والصفح، رسالة في إثم السُكر، رسالة في الحلية، النرد والشطرنج خصومة الحَوَلْ والعور، العاهات، المُغنين، اللصوص الفتيان.

---

(1) إبن الند يم:الفهرست، ص209ومابعدها. الجاحظ:رسائل الجاحظ، ص11وما بعدها.
(2) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص108.

4- في التاريخ والجغرافيا والطبيعيات والرياضات: الأخبار، جمهرة الملوك، البلدان، الخلـفاء و فضائل الأتراك، الحيـوان أحدوثة العــالم، الرد على من زعم أن الإنسان جزء لا يتجزأ، التفاح، نقض الطب، فضل العرب على الفُرس، رسالة في القلم، رسالة في فضل إتخاذ الكتب، رسالة في ذمِّ الكُتَّاب، رسالة في مدح الكُتّاب، رسالة في مدح الوُرّاق، رسالة في ذمّ الورّاق[1]، المعادن[2]، الأسد والذئـب ، الكيمياء ، الإستبــداد والمشاورة في الحرب، الملوك والأمم السالفة والباقية، العالم والجاه.

5- في الأدب والشعروالعلوم الإنسانية :البيان والتبيين،رسالة فيمن سُمي من الشعراء عمرا[3].

6- في العصبية:الفخرما بين عبد شمس ومخزوم، فخر القحطانية والعدنانية العـرب والمـوالي، العــرب والعجــم، الأصنام، رسائل الهاشميات، الـرد على النصارى واليهود، العباسية[4].

7- ذكر في كتاب البيان والتبيين مجموعة من كتبه هي كتاب الأسماء والكنى، كتاب السراري والمهيرات، الحيوان، الجوارح، الألقاب والأنباز الإنسان، الرجل والمرأة، الـزرع والـنخل العرجان[5].

ت- تعليق على محتوى كتب الجاحظ:

يظهر من تعدد مواضيع كتبه ميله الواضح للتأليف، ربّما تقييدا منه للمعارف التي كان يسمعها أو يطّلع عليها ممّن كان في عهده بالبصرة[6] و ربّما محـاولة منه للإفهـام من كتاباتــه، كون ما كان مترجما من كتب وقتها صعب الفهم، حتى كتاب المنطق"ألا ترى أنّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الإسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار و بُلغاء الأعراب لمَا فهموا أكثره"[7] وهذا يؤكد أنّ الناس وقتها تعوَّدوا المبسوط من الكلام[8]، لذلك أراد أن تكون كُتبه مُوَجهة للسوقي و الملوكي و العامِّي و الخاص[9].

---

(1) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص106وما بعدها.
(2) عبد السلام هارون، مقدمة الكتاب، الجاحظ:الحيوان، ج1، ص06.
(3) ياقوت الحموي:المصدر السابق، ص110.
(4) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص04وما بعدها.
(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، هنا وهناك. حنّا الفاخوري:تاريخ الأدب العربي، ص557وما بعدها.
(6) محمد كرد علي:أمراء البيان، دارالأفاق العربية، القاهرة، طبعة1424هـ/2003م، ص340.
(7) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص90.
(8) الجاحظ:نفس المصدر، ص88.
(9) إبن النديم:الفهرست، ص209.

أكثرية كتبه كانت في بغداد بعد تكوينه للثروة المعرفية واللغوية من القراءات وغيرهــا، فاقتضى الحال أن يُصدر كتاباته بأسماء كُتّاب مشهورين، تجلّى في قوله:"رُبّما ألّفت الكتاب الذي هو دُونه في معانيه و ألفاظه لِأترجمه باسم غيري و أحيله على من تقدَّمني عصره، مثل إبن المقفع ويحي بن خالد و العتابي [1] و من أشبه من هؤلاء، من مؤلفي الكتب"[2].

لذلك أغلب كتبه كان من الصعب التعرف عليها، لأنّه تعمَّد إلى تركها غُفلا، إشفاقا من الطعن فيها وهو ما عبَّر عنه "و لرُبّما خرج الكتاب من تحت يدي مُحصفا، كأنّه متن حجر أملس بمعانٍ لطيفة مُحكمة و ألفاظ شريفة، فصيحة، فأخاف عليه طعن الحاسدين إن أنا نسبتُه إلى نفسي و أحسدُ عليه من هم أهُمُ بنسبته إليه، لجودة نظامه و حُسن كلامه، فأُظْهره مُبهما غُفلا في أعراض أصول الكتب التي لا يُعرف وُضَّاعُها"[3]، لذلك شكّك الكثيرون في نسبة بعض الكتب إليه ككتاب التاج، المحاسن و الأضداد، البغال.

تهجّم على كُتبه النُقاد والحُسّاد، بوصفهم له تارة بالتعصب لطرف ما أو لغيره، لكنّه ردّ على كل واحد منهم "ثم عِبْتَ جُملة كُتبي في المعرفة و إلتمست تهجينها بكل حيلة و صغَّرت من شأنها و حططت من قدرها وإعترضت على ناسخيها والمُنتفين بها"[4].

والحقيقة أنّ عناوين كتبه مُعَّبرة لمحتوياتها وإن ناصر العدنانية على القحطانية، فله أيضا كتابا يناصر فيه القحطانية على العدنانية، ربّما ذلك مرده إلى الأسلوب الفلسفي القائم على القضية ونقيضها كأسلوب للإفهام و التبيين أكثر من طريقة الشك أو ربّما إثباتا منه، لكون الشر ليس مطبوعا على قبيلة بحد ذاتها، فهو يؤكد مسعاه "كتـاب يحتاج إليه المتـوسط العامِّي، كما يحتاج إليه العالم الخاصي و يحتاج إليه الريِّض كما يحتاج إليه الحاذق"[5].

يبرزلقارئ كُتبه مشقة تأليفها"فقد كفي مؤونة جمعه وخزْنه وطلبه وتتبُعه وأغناه ذاك عن طول التفكيروإستنفاذ العُمر"[6] ورسم لكل من يرغب في التأليف منهجا لذلك"وينبغي لمن كتب كتابا ألاّ يكتبه إلاّ على أنّ الناس كلهم له أعداء وكلهم عالم بالأمور وكلهم متفرغ له، ثم لا

(1) العتابي220هـ/835م، أبوعمروبن كلثوم بن أيوب الثعلبي العتابي، شامي، ينزل قنسرين، شاعر، كاتب، صحب البرامكة ثم طاهربن الحسين، لقي الرشيد بعد قتل جعفرالبرمكي، أحسن الناس إعتدادا في رسائله وشعره، له كتاب المنطق الأداب. أنظر، إبن النديم:الفهرست، ص ص134،135."كان العتابي يحتذي حذو بشارفي البديع".
أنظر، الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص40.
(2) الجاحظ:رسائل الجاحظ (المجموعة الأدبية)، تقديم د/علي بوملحم، دارمكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط2004م، ص376.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص377.
(4) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص09.
(5) الجاحظ:نفس المصدر، ص10.
(6) الجاحظ:نفس المصدر، ص11.

يرضى بالرأي الفطير، فإن لإبتداء الكتاب فتنة وعُجُبًا، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الأخلاط و عادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه، فيتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب"[1].

كما يبين للقارئ منهجه العام في الكتابة "فقد أخذ من طُرف الفلسفة و جمع بين معرفة السماع و علم التجربة"[2] إلاّ أنّ أكثرية المتهجمين على كتبه من الشيعة، ربّما لأنّه سخر من بعض إدِّعاءاتهم في كتبه وهم على ما يظهر كانوا يدَّعون مناصرة الجاحظ لعثمان بن عفّان رضي الله عنه، كنقضهم كتاب العثمانية وغيره[3].

ذهبوا إلى القول بتحقير الجاحظ للرسول صلى الله عليه و سلم، لعدم تأليفه كتاب خاص عنه ويذكره في سطرأو سطرين، بينما يعمل كتابا فيه حُجج النصارى على المسلمين[4] وهذا ليس عيبا، كون الرسول صلى الله عليه و سلم ليس بحاجة إلى التشكيك، فيما أتى به من يقين، لذلك لم يفرد له كتابا "وأنا ذاكر بعد هذا فنًّا آخر من كلامه صلى الله عليه وسلّم وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه و كثُرعدد معانيه و جلَّ عن الصنعة و نُزّه عن التكلُف...ولا يحتج إلاّ بالصدق...ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعـدل ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا و لا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبينُ في فحوى من كلامه صلى الله عليه و سلّم كثيرا"[5].

3- دراسة تحليلية لكتاب البيان والتبيين:

1- دواعي تأليــف الكتـــاب:

أُختلف في دواعي تأليفه لكتاب البيان والتبيين، فبعض نُقاد الأدب قالوا:"إنّما ألّفه ليعرض أهم الجوانب التي يعتمد عليها الخطيب والكاتب والشاعر...البيان هوأنواع الكلام العربي المبين لثلاثة، الخطابة والشعروالكتابة، أمّا التبيين فهو كيفية التعبير ببيان ناصع جميل"[6] و آخر قال:أنّه مجمع و عرض لبراهين على الفصاحة العربية، من روايات و...[7].

(1) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص88.
(2) نفسه.
(3) المسعودي:مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4، ص299.
(4) إبن قتيبةالدينوري(أبو محمد عبد الله بن مسلم):تأويل مختلف الحديث، تحقيق رضى فرج الهمامي، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، طبعة 1426هـ/2005م، ص56.
(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص44.
(6) محمد زغلول سلام:تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، دارالمعارف، مصر، ج1، ص299.
(7) Albert Nader ;L e système philosophique des m'utazila(les premier penseur de l'islam),2eme edition,dar el maghreb,sarl,beyrouth1984, p35.

بعد تمعـنـي في محتـواه، أدركـت أنّ سبـب تأليفـه هو ما ذهب إليه بعض الدارسين له، توضيح مذهب الجاحظية، القائم على المعرفة و الطبع[1] وهذا ما جعله يعمد إلى تنويع ينابيع المعرفة في محتواه، لإستيفاء توضيحه خاصة و أنّه كان سيُقدمه هدية إلى أحمد بن أبي دؤادة، أحد الذين كانوا ضده أيام إبن الزيّات و له اليد الطولى على الخليفة.

بذلك يمكن أن يُنفِذ محتواه، لذلك لم يُفصح عن غرض تأليفه و تركه غُفلا، ربّما لشيئ في نفسه إزاء حُسّاده و إكتفى بقوله:"وهذا أبقاك آخرما ألّفناه من البيان والتبيين و نرجو أن نكون غير مُقَصرِين فيما إخترناه من صنعته و أردناه من تأليفه"[2]، بينما ذهـب المستشرق شـــارل بلـــلات[3] إلى القـول بـــأنّ الجاحظ لمّا لاحـــظ العـرب مطبـوعين على الخطابة و الشعر، ألّف كتاب البيان والتبيين[4].

2 – نســـــخ الكتـــــاب:

الكتاب نسختان، أولى وثانية، الثانية أصح و أجْود[5] وقيل:أول الجزء الأول من الثانية أصح وأجود[6]، ربّما هي المتداولة اليوم، ألّفه في آخر حياته، حوالي233هـ/848م[7]، يختلف تقسيم أجزائه، حسب ذكر محقق كتاب الحيوان والبيان والتبيين عبد السلام محمد هارون، أنّه موجود في عدّة نُسخ[8].

(1) محمد عبد المنعم خفاجي:أبوعثمان الجاحظ ، ص236.
(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج4، ص158.
(3) شارل بللات:pellat.ch، مستشرق فرنسي، ولد عام 1914م، من أساتذة مدرسة اللغات الشرقية، أستاذ اللغة والحضارة العربيتين في جامعة باريس عام 1956م، أستاذ العربية في الصوربون وأمين مجلة أرابيكا، من مؤلفاته الجاحظ في بغداد وسامرّاء، نشر الدراسات الشرقية 27-1952م.
أنظر، نجيب العقيقي:المستشرقون، دارالمعارف، مصر، القاهرة، ج1، ص326.
(4) شارل بللات:الجاحظ في البصرة و بغداد و سامرّاء، ص386.
(5) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ص106.
(6) إبن النديم:المصدرالسابق، ص210.
(7) محمد الصغيربناني:النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص43.
(8) منها نسخة كوبريللي هي الأصح، تنفرد ببعض النصوص والعبارات التي لا توجد في سائرالنُسخ، في أربع مجلدات أصلها المخطوط جزآن، الثانية، فهي بدارالكتب المصرية، المحفوظة برقم471أدب لها رمز'ب'، في مجلد واحد، يقع في سبعمائة صفحة، بكل صفحة إحدى وعشرين سطر، أمّا الثالثة، فهي نسخة دار الكتب المصرية المحفوظة برقم 1872(أدب)، رمزها'ج'، في مجلد يقع في إحدى وسبعين وخمسمائة سطر، بكل صفحة واحد وعشرين سطر، بكل سطر إحدي عشرة كلمة، أمّا الرابعة، نسخة المكتبة التيمورية المحفوظة برقم498.
أنظر، عبد السلام محمد هارون:تقديم مكتبة الجاحظ ، الجاحظ:البيان والتبيين، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، ط 3، ج1، ص16 وما بعدها.

3- ما قيل عن كتاب البيان والتبيين:

حظي الكتاب بسمعة كبيرة عند أهل الأدب خاصة، فهذا إبن خلدون دون إطلاعه عليه ثقة فيما قاله عنه أساتذته، أنزله مقعدا يليق به وسط كتب الأدب العربي[1]، قيل:"وله كتب حسان، منها البيان والتبيين وهو أشرفـها، لأنّـه جمـع فيه بين المنثـور و المنظـوم و غُرَرِ الأشعار و مُستحسن الأخبار و بليغ الخطب ما لو إقتصر عليه مقتصر لإ كتفى به و لا يُعْلم ممّن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه"[2].

كما سجّل إعجاب الخليفة المعتصم و إفتتانه به "هذا الذي يُتزين بمثلـه و يُبتهـج بقربــه و يُعدّ به أُلوف من جنسه"[3] و قُدِّر بقيمة مالية قدرها خمسة آلاف دينار، قدّمها المُهْدى إليه أحمد بن أبي دؤادة[4] و بهذا يتضح أنّ الكتاب كان تحفة كلامية، نالت إستحسان و إعجاب الكثيرين شكلا، فماذا لو فهموا محتواه و وقَفَوا على ما أراده الجاحظ من تأليفه؟.

4- محتوى الكتـــــــاب:

إنّ محاولة تلخيص كتاب البيان والتبيين تبدو صعبة جدا، لأنّه لم يتناول موضوعا واحدا بل تعدّدت و بالتالي فمحاولة تلخيصه تتطلب إختيارأحد موضوعاته، إمّا الأدب أو الفلسفة أوالتاريخ أو العلوم الإسلامية...لأنّه بحق موسوعة كلامية.

أ- محتـوى الجـــزء الأول:

بدأ الكتاب بمقدمة، إستعاذ فيها بالله من فتنة القول و فتنة العمل و التكلُف و العُجب والسلاطة[5]، ثم تكلّم في الباب الأول عن سبب تلقيب واصل بن عطاء بالغزّال و من نفى ذلك عنه و علاقته بالشعوبية و كيفية الردّ عليها، خاصة إزاء حامل لوائها من الشعراء كبشار بن برد، ثم عرّج لتبيان مخارج الصوت و اللثغة و ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة بتقديم أمثلة توضيحية من لثغة واصل و غيره و ذكر عيوب العي و تفضيل الصمت على الخطل مُقــدما

(1) "وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم، أنّ أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي:أدب الكاتب لإبن قتيبة وكتاب الكامل للمُبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادرلأبي يعلى القالي البغدادي" قيل:"وله كتب حسان منها البيان والتبيين وهو أشرفها، لأنّه جمع فيه بين المنثوروالمنظوم وغُررالأشعار ومُستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو إقتصر عليه مقتصر لإكتفى به ولا يُعلم ممّن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه".
أنظر، إبن خلدون:المقدمة، ص ص553،554.

(2) المسعودي:المصدرالسابق، ج4، ص238.

(3) أحمد أمين:ضحى الإسلام، ج3، ص158.

(4) ياقوت الحموي:المصدرالسابق، ج16، ص106.

(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص05.

أدلة من أقوال الشعراء لتعميم فائدته"الصمت أجمل بالفتى ـ ما لم يكن عيُ يُشينه"[1]، مؤكدا على أهمية اللسان في التبيين باستعمال البيان"كلّما كان اللسان أبين كان أحمد...إلاّ أنّ المُفهم أفضل من المُتفهم و كذلك المعلم والمتعلم"[2].

يستشهد بآي من سورة الرحمن و يُورد أحاديثا للرسول صلى الله عليه وسلم، حذّر فيها من الثرثرة، ثم يخبرعن قُبح اللثغة في الراء لواصل، كما يُنبه إلى إحتياج البيان إلى آلة وسياسة و إحكام و صنعة[3]، بعدها ينتقل إلى باب يذكر فيه أُناس من البُلغاء و الخُطباء والأنبياء و الفقهاء و الأمراء، ممّن لا يكاد يسكت مع قلّة الخطأ.

يُورد بعض الكلام عن بشر بن المعتمر و بعض شعراء الخوارج، فأهم الخطباء من الشعراء "و من الخطباء الشعراء الذين قد جمعوا الشعروالخُطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المُخلدة والسِيَر الحسان المُدونة و الأخبار المُولدة، فيذكر سهل بن هارون[4].

ثم تحدَّث عن الخطابة عند غير العرب مثل الزنوج ، حتى أنّهم يعمدون إلى نزع بعض أسنانهم "سألت مباركا الزنجي الفـاشكار(الفـــلاح) و لا أعلـــم زنــجيا بـلغ في الفشكرة مبلــغه، فقلت له: "لِمَ تنزع الزنج ثناياها؟ ولِمَ يُحدد ناس منهم أسنانهم؟ فقال:أمّا أصحاب التحديد، فللقتال و النهش و لأنّهم يأكلون لحوم الناس و متى حارب ملك ملكا، فأخذه أسيرا أو قتيلا أكله و كذلك إذا قاتل بعضهم بعضا، أكل الغالب منهم المغلوب"[5]، أي يبين أهمية الأسنان في البيان.

عرّف الجاحظ البيان "البيان إسم جامع لكل شيئ، كشف لك قناع المعنى و هتك الحجاب دون الضمير حتى يقضي السامع إلى حقيقته...لأنّ مدار الأمر و الغاية التي يجري القائل والسامع، إنّما هو الفهم و الإفهام، فيأتي شيئ بلغة الإفهام و أوضحت عن المعنى، فذاك هو البيان في ذلك الموضع"[6] ويستشهد بقول سهل بن هارون "العقل رائد الروح و العلم رائد العقل و البيان تُرجمان العلم"[7] و بالتالي فلا حياة لعلم بلا بيان.

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص06.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ص11.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص ص13،14.
(4) الجاحظ:نفس المصدر، ص40.
(5) الجاحظ:نفس المصدر، ص ص45،46.
(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص55.
(7) الجاحظ:نفس المصدر، ص56.

كما يركز على ضرورة الإيجاز "أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره و معناه ظاهر في لفظه"[1]، مُشيدا بأهمية البيان عند الشيعة، فيما أثِرَعن محمد بن علي بن الحسين "صلاح شأن الدنيا بحذافيرها في كلمتين، صلاح شأن الجميع التعايش و التعاشر، ملء مكيال ثُلثاه فطنة و ثُلثه تغافل"[2].

أشاد بالبلاغة ودورها عند كل الأمم، يُعرفها بأنّ لها آلة "أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، مُتخير اللفظ ، لا يُكلم سيد الأمّة بكلام الأمّة ولا الملوك بكلام السوقة"[3] .

و يُجيز تعريف إبن المقفع لها "هي إسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها من يكون في السكوت و منها ما يكون في الإستماع و منها ما يكون في الإشارة و منها ما يكون في الإحتجاج و منها ما يكون رسائل، فعامّة ما يكون في هذه الأبواب، الوحي فيها والإشارة إلى المعنى"[4].

أمّا عن البلاغة و الفصاحة العربية، فأكّد "ليس في الأرض كلام هو أصبــغ و لا أنــق و لا ألذ في الإسماع و لا أشّد إتصالا بالعقول السليمة و لا أفتق للسان و لا أجْوَد تقويما للبيان من طول إستماع الأعراب العُقلاء الفُصحاء و العلماء البُلغاء"[5].

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص57.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ص58.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص67.
(4) الجاحظ:نفس المصدر، ص82.
(5) الجاحظ:نفس المصدر، ص101.

تحدّث من جديد عن أهمية اللسان مستشهدا بقول الرسول صلى الله عليه وسلّم لمّا سُئِل عن الجَمال:فيم الجَمال؟، قال:اللسان[1] و يورد قول أرسطو صاحب المنطق"حَدُ الإنسان الحي الناطق المُبين"[2]وعرّج بعدها إلى الحديث عن ولادة البنات بإيجاز مُشيرا إلى كتاب الإنسان وفي فصل ما بين الذكر والأنثى[3] ووضّح فوائد الصمت "أسمع فأعلمُ وأسكتُ فأسلمُ"[4].

تحدّث بعدها على طبائع الناس التي تختلف من واحد لآخر"قد يكون للرجل طبيعة في الحساب وليس في الفلاحة...مثل هذا كثير وكان عبد الحميد الأكبر و إبن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما، لا يستطيعان من الشعر إلاّ ما يُذكر مثله[5].

أفرد بابًا للمعلمين بذكر أهم ما قيل عن هذه الفئة، واصفا إيّاهم بالحمقى، كما يرد أقوالا لعدم إستشارتهم، إلى جانب التشابه الواضح بينهم و بين رعاة الغنم و كثيري القعود إلى النساء وعيب الحمقى أيضا في الحاكّةِ و المعلمين والغزّالين، فالأحمق هو الذي يتكلم بالصواب الجيد، ثم يجيئ بخطأ فاحش.

أمّا عنده فالمُعلمون على ضربين، فهم رجال إرتفعوا على تعليم أولاد العامّة إلى تعليم أولاد الخاصة و منهم رجال إرتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة، فكيف تستطيع أن تزعم أنَّ مثل علي بن حمزة الكسائي و محمد بن المُستنير، الذي يقال له قُطرب وأشباه هؤلاء حمقى ولا يجوزهذا القول على هؤلاء و لا على الطبقة التي دونهم، فإن ذهبوا إلى معلمي كتاتيب العرب، فإن لكل قوم حاشية و سَفَلة و كيف تقول مثل ذلك في هؤلاء؟ و فيهم الفقهاء و الشعراء و الخطباء"[6].

و في آخر الجزء الأول يذكر مُتفرقات لخطب، فيذكر أسماء البلغاء و الخطباء من مختلف القبائل و ذكر أنسابهم.

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص117.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ص118.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص128.
(4) الجاحظ:نفس المصدر، ص133.
(5) الجاحظ:نفس المصدر، ص142.
(6) الجاحظ:نفس المصدر، ص ص169،170.

ب- محتوى الجـــزء الثـــاني:

بدأه بباب حول أسماء أشهر الكُهّان و الخطباء من قحطان، ثم ذكر الزُهّاد و النُسّاك من أهل البيان من نساء الغالية الشيعة و رابعة القيسية، ثم أسماء الصوفية من النُسّاك، ممّن كان يُجيد الكلام، ثم يذكر القصّاص و دورهم في قص فنون القصَص وجعل نصيب منها للقرآن(1).

ثم بابًا للمخاصر و العصا وغيرهما، مُشيرا إلى كون العرب تخطب بالمخاصر وتشير بالعصا، مُركزا على ما طعنت الشعوبية به العرب من أخذهم في خُطبهم المُخصرة والقضيب و الإتكاء و الإعتماد على القوس و الحد في الأرض و الإشارة بالقضيب(2)، ثم يورد كلاما عن أخلاق الرسول الله صلى الله عليه وسلّم و بعض الصحابة، فمحتوى خطبة حُجَّة الوداع(3).

أورد كلاما للخليفة أبي بكرالصديق، ثم وصية عمربن الخطاب لمن بعده، فخُطب متعددة، كما ذكر بعضا ممّا أُثِرعن مقولات أناس على قدر طباعهم(4)، ثم يفرد أبــوابا للحانين، فالحمقى، فالكلام عن العصا، ثم إشادته بالعرب مرّات أخرى، موردا قول الخليفة عمر بن الخطاب:"العمائم تيجان العرب"(5).

ج- محتوى الجـزء الثـــالث:

بدأه بباب من الشعر فيه تشبيه، فنوادر الأعراب، فكلام بعض الخُطباء، ثم أحاديث الحمقى، فكتاب العصا و يرجع للحديث عن الشعوبية و مفاخرها، حتى ذكروا أنّ العرب لا تحارب ليلا و يرُدُ عليهم بأنّ خُطب العرب بديهة وإرتجال، كأنّها إلهام و ليست هناك مُعانــاة و لا مُكابدة، ثم يؤكد بأنّه لم ير قطُ أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا أشدّ استهلاكا لعرضه ولا أطْوَلُ نصبا و لا أقلَّ غنما من أهل هذه النِحلة و قد شفى الصدور منهم طول جُثوم الحسد على أكبادهم وتوَقُر نار الشنآن في قلوبهم و غليان تــلك المراجــل الفائـــرة و تسَعُر تلك النيران المضطرمة و لوعرفوا أخلاق أهل كل مِلّة وزي أهل كل لغة وعللهم على إختلاف شاراتهم و آلاتهم و شمائلهم ...لأراحوا أنفسهم و لخفّت مؤونتهم على من خالطهم"(6).

(1) الجاحظ:البيان والتبيين ، ج2، ص08-12.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ص12-19.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص ص53،54.
(4) الجاحظ:نفس المصدر، ص144.
(5) الجاحظ:نفس المصدر، ص211.
(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص ص50،51.

يشيد بالعرب وعصيِّهم "الدليل على أنّ أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم و معدن شريف ومن المواضع التي لا يعيبها إلاّ جاهل و لا يعترض عليها إلاّ مُعاند إتخاذ سليمان بن داود صلى الله عليه وسلّم العصا في خُطبته و موعظته[1]، كما يُثبت قدر العصا بامتلاك عبد الله بن مسعود لها و من شدَّة إعتزاز الجاحظ بالعروبة و رمزها العصا، قال:"لو شئتَ أن أشغلَ مجلسي كُلّه بخصالها لفعلتُ"[2]، أي عراقة الأصل العربي.

ثم تحدّث عن المُوسوسين والأغبياء و الجُفاة و من شاكلهم، إلاّ أنّه ضمنّه الكلام على العصا، "أنّ هناك من إشتق للسيف إسما من العصا، لأنّ عامّة المواضع التي تصلح فيها السيوف، تصلح فيها العصي"[3]، ثم الكلام عن كتاب الزُهد كرابعة العدوية، كما أورد أقوالا للحسن البصري، عن ضرورة العمل في الدنيا و أنهى الجزء بالــحديث عن العصا مُجــددا و الخوارج و خُطبهم.

د- محتوى الجــزء الرابـــع:

بدأه بالحديث عن القول في إنطـــاق الله عزّوجلّ و كـيف أنّ الرسول صلى الله عليــه و سلّم بُعث للعامّة و من قبله بُعثوا للخاصة، مُشيرا إلى أنّ حظ كتاب البيان والتبيين، كان أوفر شعرا من كتاب الحيوان و يُعلل الإطناب، ثم تحدّث عن منافع العصا الكبار و أوجه إستعمالها في الحروب[4]، فالحديث عن الحمقى و المجانين، ثم العودة للحديث عن العصا مُجددا، فخاتمة الكتاب.

4- تحليل ونقد موضوعات الكتاب:

قيل في فهم و نقد محتويات كتاب البيان والتبيين الكثير، هو مزج بين علوم البلاغة والأدب والتاريـــخ والأديـــان، فمــن ناحية البــلاغة: ماهيتها، نعمة الفصاحة، عيوب اللسان الخطابة، أمّا ما يخص الأدب العربي، فكلام العرب في عهد الخلافة الراشدية والأموية والعباسية، أمّا ما يخص فن التاريخ، فأخبارالخطباء والعلماء والأمراء والكُهّان والنُسّاك وغيرهم، مع تركيز كبيرعلى العصا وهو ما جعل البعض يعتبره دليل كاف للبرهنة على النزعة العربية عنده، لذلك أظهروا الكتاب بأنّه رد فعل على الشعوبية، بإظهارما للعرب من مظاهر بلاغية[5].

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص51.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ص ص59،60.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص83.
(4) الجاحظ:البيان والتبيين، ج4، ص ص65،66.
(5) حنّا الفاخوري:تاريخ الأدب العربي، ص573.

أمّا عن حديثه و إختياره لمقتطفات ممّا قال الفُرس والهنود و الزنوج و غيرهم، فلا شك أنّ الغرض الذي هدف إلى تبيانه من وراء كتابه هذا، كون نزعته الإعتزالية تتطلب منه البراهين المُتعددة من ديانات و أمثال و حِكم وغيرها و ذاك ما أكّده أحد المهتمين، لا شك أنّ الإعتزال يتطلب من رجاله علما واسعا بالديانات الأخرى، لأنّ المعتزلة نصّبوا أنفسهم للدعوة إلى الإسلام و لم يتيسر لهم ذلك إلاّ بمعرفة دقيقة بدينهم و دين غيرهم، ما إضطرهم إلى معرفة الفلسفة اليونانية، لأنّ خُصومهم كانوا إتخذوها أداة للدعوة لدينهم و كانت فلسفة أرسطو فيها دراسة للحيوان، فدرسه الجاحظ و لكنّه صبغ ذلك كله بروحه الدينية[1].

يُظهر الكتاب مدى إندماجه في الحياة الواقعية بكل طبقاتها، آخذا للحكمة منها، فتحدّث على لسان كل الفئات ما عدا فئة البحارة، أجاب على ذلك بما قاله في كتاب الحيوان عنها: "العلّة في عدم إفراط باب للسمك، لأنّي لم أجد في أكثره شعرا، يجمع الشاهد و يُوَثِّقُ منه بحُسن الوصف و يُنَشِط بما فيه من غير ذلك للقراءة و لم يكن الشاهد عليه إلاّ أخبار البحريين و هم قوم لا يُعَدُون القول في باب الفعل"[2].

كما لفت إنتباهه أخبار البخلاء من مختلف المذاهب في المجتمع الإسلامي، كون العرب مشهورين بالكرم والضيافة، فكان دارسا لطبائع الوافدين الذين قيل:أنّهم حملوا صفة البُخل معهم، ممّا أثار إنتباه أديبنا لدراسة الطبع والإكتساب، لذا أفرد كتاب البخلاء لذلك حمّل فيه الشعوبيين المُتسترين بالإسلام لنشرالزندقة النابعة من مذهبي زرادشت و ماني و بثّ الدعاوى للحضارة الفارسية [3].

أرى أنّ ما ذكرت سابقا هو شكل ظاهري لأطروحات الكتاب، قد يقف عندها أي دارس لكن هل كان الجاحظ يهدف من وراء الكتاب إلى ذلك فقط، من إبراز قدرته في جمع شمل فنون مختلفة؟ فالكتاب يطرح أدلّة لمذهــب الجاحظيـــة وجذورها المتمثلة في تطور الزهــد و مدارسه سواء بالكوفة أو خراسان أو البصرة أوالشام وهو ما يُشكل عُقدة لكل دارس غير مُحنك، لذا تستدعي دراسته، أن يُصبح دارسُه جاحظا آخر، يكتري المكتبات لدراسته، إذ هو ليس بالسهل على الإطلاق خاصة و أنّ الزهد كان مقدمة لظهور التصوف، بل و يُلازمه مع وجود تيارات مختلفة.

---

(1) كامل محمد عويضة:الجاحظ(الأديب الفيلسوف)، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى1413هـ/1993م، ص07.
(2) الجاحظ:الحيوان، ج6، ص16.
(3) جميل جبر:الجاحظ ومجتمع عصره، المطبعة الكاثوليكية، بيروت1958م، ص43.

موضوع الكتاب إذن، يُقسم إلى فترة حياته والفترة التي سبقته، إذ تتبع من خلالها أيضا مدى التأثير الأجنبي في سلوكيات و طبائع الأفراد في المجتمع الإسلامي والطُرق التي إتُخذت للحفاظ على نقاوة سيرة الأفراد عند كل الحُكّام أو الوُعَّاظ وغيرهم، بما فيهم رجال المعتزلة الذين سبقوه.

كما أعتقد أنّ الكتاب لا يمكن أن يكون عنوانه التبيين، لأنّ ما بداخله لم يكن تبيينا على الإطلاق و إلاّ كان الدارس يفهمه من أول قراءة له و أنا قرأته أكثر من مرة، فما قدّمه من أدلة هو فقط للمساعدة على تبيُن الجاحظية كمذهب و بالتالي فالمُحتمل أن يكون عنوانه البيان والتبيُن و ليس البيان والتبيين وهذا أتركه لدارسي اللغة و الأدب العربي، فهو ليس مجالي.

إنّ غلبة الفتن على عصره وبيئته، جعلته يفكر في أزمة العالم الإسلامي ومسألة تحضيره بمفهوم ذاك الوقت، فلا شك أنّه كمعتزلي، رآى أنّ الأمر متوقف على العلاقة بين الدين الإسلامي و التراث الأجنبي و كيفية تقبُل الفرد المسلم له سلوكيا و أخلاقيا، خاصة و أنّه حلّ وافدا على الدولة الإسلامية برغبة من خُلفاء عباسييــن خاصة و معه جاءت أفراد حاملة له، كلٌ وغاية يريد تحقيقها إمّا بالترجمة أو بالخطابة وغيرهما.

ولمّا كانت الحرية الكلامية والعقدية قائمة في الدولة الإسلامية، فقد إنتشرت أفكار متعددة، إختلفت الآراء حول مسألة تقبُلِهَا بين مُقلِدٍ و مُجدِدٍ و مُترددٍ، ممّا أثار حفيظة الصوفية وغيرها، لذا ركّز في كتابه على العقل كمصدر للحكمة و اللسان كتُرجمان لها و الإرادة كمظهر كسبي، تُلازمه الإستطاعة و الأصل الذي هو الدين الإسلامي كمصدر مرجعي.

بالتقاء هذه الرُباعية، توَقّـع أنّ أزمــة العالــم الإسلامي وقتها هي عقلية بالدرجــة الأولى، لأنّ مشكلة تقبُل كل جديد في كل المجالات، يخلق الفتن، لذلك وجب النظر فيما نأخذ من تُراث غيرنا سواء من الهند أو اليونان وغيرهما.

فهذا التراث الجديد على ما يبدو، كان يُمثل المعاصرة بمفهوم تلك الفترة و يعترف الجاحظ بأنّ " الأمم التي فيها الأخلاق و الحِكَم و العلم أربع، العرب، الهند، فارس، الروم"[1].

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص20.

نُسب إليه تأثر بعض الشعراء كأبي العلاء المعرّي[1] الذي عُرف بحفظه لكل ما يسمع و رُمي بالإلحاد، لكونه إقتصرعلى أكل ما لا ينبت، فنُسب إليه التبرهُم[2]،[3]، أي أنّه يرى رأي البراهمية في إثبات الصانع وإنكار الرُسل و تحريم إيذاء الحيوانات حتى العقارب والحيّات[4] كان يذهب إلى ما ذهب إليه الجاحظ، من عدم الثقة في الأصدقاء في ما ذكره في أشعاره[5].

كان يرى ضرورة تدخل السيف بين الحين والآخر لإحلال العدل و إقرارالحق الذي لا يستطيع حتى الحاكم إقراره و يتجلى تأثره هو الآخر بالتراث الهندي و الدعوة إلى التعلُم وإكتساب المعارف في قوله:

كَلِمْ بِسَيْفِكَ قَوْمًـــــــــا إنْ دَعَوْتَهُـــمُ   مِـــنْ الكَلُومِ فَــــــمَا يَصْغَوْنَ للْكَلِمِ
ذُو النُونِ[6]إنْ كَانَ سَيْفُ الهِنْدِ أَبْلَغُ مِنْ   ذِي النُونِ فِي الوَعْظِ بَلْ مِنْ نُونِ القَلَمِ [7]

---

(1) أبو العلاء المعـّــــري، أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن مطهربن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن أنوربن أرقم بن أسحم النعمان، يلقب بالساطع لجماله بن عدي بن عبد بن غطفان بن عمرو بن بريح بن جذيمة بن تيم، ينتهي نسبه إلى التنوخي المعّري الأعمى، اللغوي، صاحب السائرة والمتهم في نحلته ولد عام163هـ/780م، مرض بالجدري، فابيضت اليمنى، فكان لا يرى إلاّ الثوب الأحمر الذي ألبسوه له، بقي45عاما، لا يأكل اللحم تزهُدا فلسفيا، قنوعا متعففا، له وقف يقوم بأمره، لا يقبل شيئا من أحد و لو تكسب يكون ذلك بالمديح، كان غذاءه العدس ونحوه وحلواء التين، ثيابه القطن، فراشه لُباد وحصير البردي، سافرإلى بغداد في تظلم عام190هـ/806م سمّى نفسه، رهن المحبسين للزومه بيته وللعمى، شاعرمنذ حداثته، مرض ثلاثة أيام ومات عام 194هـ/810م أنظر،الذهبي:سيرأعلام النبلاء، ج18، ص23وما بعدها.

(2) التبرهم، نسبة إلى الديانة البراهماتية أو البراهمية، نسبة إلى بُرهم أو بُرهام، ذُكر في الفيدا، معناها الكينونة، إستخرجها الكهنة من الفيدا وأخذوا في وضع قواعدها و قوانينها الصارمة، حصروا طقوسها الدينية فيهم و أعلنوا سيادتهم، سما عنصرهم، أخذوها وراثة، قسمت الأولى طبقات الشعب إلى أربع، 1- براهمان:هم الكهنة، 2- كشتاريا:هم الجند، 3- الفيسيا:العمال، أصحاب المهن، الزراع، 4- سُودار:الرقيق.
أنظر، الشهرستاني:الملل، ج3، ص706، هامش رقم 1.

(3) الذهبي:المصدرالسابق، ص26وما بعدها.

(4) الذهبي:نفس المصدر، ص31.

(5) قال الشاعر أبو العلاء المعّري:
إذَا أَمِنْتَ عَلَى مَالٍ أَخًـــــا ثِقَةٍ   فَاحْذَرْ أَخَاكَ وَلاَ تَــأْمَنْ عَلَى الحَرَمِ
فَالطَبْعُ فِي كُلِ جِيلٍ طَبْعُ مَلْأَمَةٍ   وَلَيْسَ فِي الطَبْعِ مَجْبُولٌ عَلِى الكَرَمِ
أنظر، أبوالعلاء المعّري:لزم ما لا يلزم(اللزوميات)، داربيروت للطباعة والنشر، لبنان، م2، ص455.

(6) ذو النون180هـ/796م-245هـ/860م، ثوبان بن إبراهيم و قيل:الفيض بن إبراهيم، أبو الفيض المصري، أحد من رووا عن الإمام مالك الموطأ، أبوه نوبي وقيل:من أهل إخميم، حكيما، فصيحا، إنتقل من مصر إلى بغداد زمن المتوكل، فلمّا دخل عليه وعظه حتى أبكاه، فردّه إلى بلده و كان الخليفة المتوكل يبكي كلّما تذكره.
أنظر،إبن كثير:البداية والنهاية، ج6، ص76.

(7) أبو العلاء المعّري:المصدرالسابق، ص455.

دعى في شعره إلى التحّلي بالأخلاق الفاضلة بدءً من التخّلي عن معاقرة أم الخبائث الخمر، التي كانت لها مجالس، أذهبت عقول الكثيرين من دُعاة تحضر تلك الفترة و هو في هذا يلتقي مع الجاحظ في التمسك بالأصل الممثل في القرآن الكريم بما قاله في شعره[1].

كما كان له نظرة إصلاحية تجديدية في مجال الإقتصاد بالدعوة إلى الجدِّية في الإمتثال لأمر الله في تطبيق ركن الزكاة، ترشيدا منه للحياة الإقتصادية ومنها الإجتماعية لِمَا لها من بُعد أخلاقي و مادي بما قاله في هذا الباب[2].

يحتاج المجتمع الإسلامي إذن إلى عقل إجتماعي وآخر سياسي وآخرإقتصادي وغيرهما لإيجاد حلول ميدانية، تلتقي مع الأصل الديني عندنا، حتى لا تُفقد الهوية وبالتالي فدعـوة الجاحظ إلى كسـب المعارف أمـر ضروري لكل فـرد حتى يُغيرما بنفسه من ناحيـة وغيره من ناحية أخـرى ويكون هـذا دليـله على إحترامه وإعترافه بحضارة و تراث غير المسلميـن.

ولم يكن أبو العلاء المعّري من المُعاصرين له الداعي الوحيد إلى التجديد، بل هناك أيضا الشاعر أبو العتاهية[3] الذي سجّل له بعضا ممّا أثر عنه من ترك ملّذات الدنيا والعمل للآخرة[4].

(1) قال الشاعر أبو العلاء المعّري:
لَوْ كَانَتْ الخَمْرُ حِلاً مَاسَمَحْتُ بِهَا لِنَفْسِي الدَهْرَ لاَسِرًّا وِلاَعَلَنَا
فَلْيَغْفِرْ الله كَـــــمْ تَطْغَى مَآرِبنَـا ورَبُنَا قَدْ أَحَـــلَّ الطَيبَاتِ لَنَا
أنظر، أبو العلاء المعّري:نفس المصدر، ص515.

(2) قال الشاعر أبو العلاء المعّري:
وَأَحْسَبُ النَاسَ لَوْ أَعْطَوْا زَكَاتَهُــمْ لَــمَا رَأَيْتَ بَنِي الإِعْدَامِ شَاكِينَا
فَإِنْ تَعِشْ تُبْصِرُ البَاكِينَ قَدْ ضَحِكُوا وَالضَاحِكِينَ لِفَرْطِ الجَهْلِ بَاكِينَا
فالطبْــعُ يُكسِرُ بَيْتًا أَوْ يُقَـــــومُهُ بِأَهْوَنَ السَعْيِ تَخْرِيجًا وَتَسْكِينَا
أنظر، أبو العلاء المعّري:نفس المصدر، ص517.

(3) أبوالعتاهية، أبو إسحاق إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي، مولاهم الكوفي، نزيل بغداد، تنسك في آخـر حياتــه، ولد عام130هـ/748م قال في المواعظ والزهد، كان أبو نوّاس يعظه ويتأدب معه لدينه و يقول:ما رأيته إلاّ توهمته أنّه سماوي و أنّني أرضي، مدح أبو العتاهية الخليفة المهدي و من خلفه و والوزراء، مات عام211هـ/826م.
أنظر،الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج10، ص195وما بعدها.

(4) قال الشاعر أبو العتاهية:
يَا خَاطِـــــبَ الدُنْيَا إلى نَفْسِهَا تَنَـــــحَ عَـــنْ خِطْبَتِهَا تَسْلَمِ
إنَّ التي تَخْطُبُ غَـــــــرَّارَةُ قريبَة العُرْس مِنْ المَأْتَـــــــم
بَـــلْ كُـــلْ مـا شِيـــــتَ آخِرَ هذا كُـــه المَـــــوْتُ
أنظر، الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص153.

عاصر الجاحظ الفيلسوف الكِندي[1] المُتأثر بالفكر الهندي، إذ وُجدت في آثاره نُسخة من المعتقدات الدينية الهندية[2] ، عُدّ أول فيلسوف عربي، قيل: أنّه كان من الطبيعيين، إيثارا منه لموضعه في العلم، ألّف كُتبا مختلــفة، خاصة كتــاب رسالته حول مدخل صناعة الموسيقى و حول التنجيم و نقض مسائل المُلحدين و في بُطلان قول من زعم أنّ الجزء لا يتجزأ[3]، ممّا ألّب عليه المعتزلة و المتصوفة حتى مات وحيدا[4].

إنّ طرحه الجريء هذا، أكسبه العداء خاصة أنّه بإدخاله الموسيقى إلى الساحة، مُبينا فضل تعلُمها في شحذ النفوس، أثارعليه حفيظة المُحَرمين للغناء و كان للجاحظ أُطروحات تُشبهها، لو لا أنّه إتّخذ القضـية و الإ نـتصار لها و لنقيضها و هـو ما جعله يسلم من العداء و سُخط المتوكل عدو المعتزلة الأول.

كما كان مُعاصرا للإمام أحمد بن حنبل، تميَزَ فقهه بالتقيُد بما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم و إعتمد ذلك المنهج، لإعتقاده بأنّـه الثابت الذي لا إجتهاد فيه، فإن لم يجد، إتّجه إلى فتاوى الصحابة- رضي الله عنهم-[5]، إذن كانت الآراء إزاء التُراث الوافد مُتضاربة وهوما أزّم الوضع وزاد الشُقة الأخلاقية، فكان إصرارالجاحظ على الإستبانة بإعمال العقل و بالتالي ترسيم المبدأ الأخلاقي، فكل معقول هو أخلاقي.

ذهب أبوحامد الغزالي[6]إلى "حسن الخلق يرجع إلى إعتدال قـوة العقـل و كمال الحكمـة

(1) الكندي185هـ/801م-260هـ/874م، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي...ولد بالكوفة جنوب العراق، كان أبوه أميرا على الكوفة زمن المهدي والرشيد، له مؤلفات، تلقى دراسته الأولى بالبصرة، ثم إستقر ببغداد، كان عالما في الرياضيات والفيزياء و إهتم بعلم الفلك.
أنظر، إبن النديم:الفهرست، ص315وما بعدها.
Nabhani koribaa : Docteures letres (les philosophes de l'islam), sned alger 1980 p p11.12

(2) Majid fakhry; A history of islamic philosophy, longman, columbia, university press, new york, secand edition 1983 p32.

(3) إبن النديم:المصدر السابق، ص317وما بعدها.

(4) Nabhani koribaa ;ibid, p 12

(5) عبد المنعم الهاشمي:الإمام أحمد بن حنبل، دارإبن كثير، دمشق، بيروت، طبعة أولى1417هـ/1996م، ص ص39،40.

(6) أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد بن أحمد،الإمام زين الدين، أبوحامد الغزالي الطوسي الشافعي، ولد بطوس ثاني مدن خراسان عام450هـ/1059م-505هـ/1112م، نشأ في أسرة متوسطة، متمسكة بالإسلام، من أب صالح، يعمل في غزل الصوف و يبيعه في دكان له بطوس، فنيسابور، بدأ تعلمه بطوس و تعلم الفقه بنيسابور، لزم إمام الحرمين أبو المعالي الجويني حتى تخرج بعد حفظه للقرآن، خرج بعد وفاة الجويني إلى العراق و اتصل بالوزير نظام المُلك الذي كان مجلسه مجمع أهل العلم، فولاه التدريس بمدرسته النظامية ببغداد، توفي عام505هـ/1112م، دفن بطوس.
أنظر، أحمد إبراهيم وأحمد عناية:مقدمة الكتاب، الغزالي(أبوحامد):إحياء علوم الدين بذيله المغني عن حمل الأسفار للإمام زين الدين أبي الفضل العراقي، ضبط و توثيق أحمد إبراهيم و أحمد عنابة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة أولى1426هـ/2005م، ج1، ص07.

و إلى إعتدال قوة الغضب و الشهوة و هذا الإعتدال يحصل على وجهين، أحدهما بوجود إلهي و كمال فطري، بحيث يُخلق الإنسان و يُولدُ كامل العقل حسن الخلق، قد كفى سلطان الشهـوة و الغضب...فيصير عالما بغير تعليم و مؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم...و سائرالأنبياء"[1].

كما يؤكد الجاحظ على أهم طُرق التعليم من خطابة و حِكم وأحاديث وغيرها من أقوال المتكلمين على إختلاف إنتماءاتهم مسجديين أو معتزلة وغيرهم، مُنبها إلى ضرورة التبكير في تعليم الفرد"التعلم في الصغر كالنقش في الحجر"[2]، كما يراه ضروي لاكتساب عادات جديدة تُغني عن بعض الطبائع"العادة توأم الطبيعة"[3] .

وهو ما ذهب إليه المتأخرون"و لا يُبْعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد يُنال بالإكتساب، فرُبَّ صبي خُلق صادق اللهجة و سخيًّا و جريا وربّما يُخلق بخلافه، فيحصُل ذلك فيه بالإعتياد ومُخالطة المُتخلقين بهذه الأخلاق وربّما يحصلُ بالتعلُم"[4] وبالتالي الدعوة إلى ضرورة الإهتمام بالتعليم، لفوائده كالإبتعاد عن التعصب.

بل و يدعو إلى ضرورة الإكثار من المعارف و إيجاد منهج لدراسة التخصصات التي تفرضها هذه الينابيع الغزيرة لجُملة المعارف" تكَثَرمن العلم لتعرف و تَقَلّلْ منه لتحفظ"[5]، أي الدعوة إلى إنشاء ما يشبه المدارس النظامية، تتفرع بها التخصصات لاختلاف مُيول الدارسين.

إنّ إيراده لعدّة خُطب و مواعظ و غيرها، دليل كاف عن إمكانية تبديل أخلاق بأخرى"لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير، لبطُلت الوصايا و المواعظ و التأديبات ولما قال الرسول صلى الله عليه وسلّم:"حسِّنوا أخلاقكم"[6].

يظهرأنّه قد طبَّق طريقة التعلُم هذه و أتت نتيجتها الإيجابية بدليل قوله:"كان يأتيني رجل فصيح من العجم، قال:فقلت له:هذه الفصاحة و هذا البيان لوإدَّعيت في قبيلة من العرب لكُنتَ لا تُنازَع فيها، قال:فأجابني إلى ذلك، فجعلتُ أَحَفِظُهُ نسَبًا حتى حفظه، فقلت له:"الآن لا تَتِهْ علينا"[7] و لا شك أنّ غاية التعلم هو إقرار التسامح و المحبّة بين الناس، فالمحبّة مقرونة بقلّــة

(1) الغزالي:إحياء علوم الدين، ج3، ص977.
(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص10.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص99.
(4) الغزالي:المصدرالسابق، ص977.
(5) الجاحظ:المصدرالسابق، ج1، ص175.
(6) الجاحظ:نفس المصدر، ص74.
(7) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص94.

الإستكراه، أي نبذ التعصب و هو ما يطابق"أمهات محاسن الأخلاق هي:الحكمــة و الشجاعــة و العِفّة والعدل والباقي فروعها"[1] و ما جاء في الأثر"صلاح شأن الدنيا بحذافيرها في كلمتين صلاحُ شأن الجميع التعايشُ والتعاشر، ملء مكيال ثُلثاه فطنة و ثُلثه تغافل"[2] وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلّم"المؤمن كثير بأخيه"[3].

يبرز تأثره بالعتابي وغيره، ممّن تأثروا بالنزعة الإنسانية التراثية وإنعكس ذلك على سلوكاتهم رغم أصلهم العربي وقبَليتهم وهو ما كان تأكيده، بما ذهب أحد الدارسين"إنّ العتابي العربي صليبة، الثعلبي نجارا[4]، كان يؤمن بالثقافة في نطاقها الإنساني، مُخالفا الكثيرين من أهل زمانه الذين كانوا على الأغلب منقسمين بين عروبيين وشعوبيين ومن ثمَّ لم يكن يجد غضاضة في تعلم لغة العجم و الإعتراف بعراقة ثقافتهم و فيض علمهم"[5].

تجلّى تأثُره بالعتابي في إعجابه بسلاسة لغة بعض القصّاصين بالعربيــة والفارسية "ومن القصّاص موسى بن يسار الأسواري و كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربيــة وكان يجلس في مجلسه المشهــور به، فتقعـد العرب عن يمينــه و الفرس عن يساره، فيُفسرها بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو أبْيَن"[6].

وهكذا يتبين ممّا سبق من قول، مدى البُعد الأخلاقي في تعميق أسلوب التسامح بين العرب أنفسهم وغيرهم، فرغم إختلاف الدين والعادات والتقاليد ورغم القبلية، فإنّ الإطّلاع على المعارف التراثية جمعهُم في حلقة علم واحدة، شحذ فيها نفوسهم وحرّك فيهم قُوة البُعد الإنساني المُحافظ على أخلاق الجماعة "الأخلاق تدعو إلى القيام بواجبات، من شأنها المحافظة على الجماعة أوعلى الإستمرارية".

"فالأخلاق مجموعة وصايا أو مُثُل عُليا وتمثُلات مجتمعية، تُمجد الخيركما يراه المجتمع وترفض الشرالمرذول والسيئ"[7] ويتذكرما حفظه عن مُدرسيه، فالأصمعي قال: "وصلتُ بالعلم و نِلتُ بالمُلَح"[8]، أي ضرورة لين جانب المُعلم، ليتقبّل الدارس علمه وهذه هي فنيات مهنة التدريس، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلّم مُعلما.

---

(1) الغزالي:إحياء علوم الدين، ج3، ص972.
(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص58.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ج2، ص45.
(4) نجاري، أنظر، قبيلة أزد رقم13، ص168.
(5) مصطفى الشكعة:الشعروالشعراء في العصرالعباسي، دارالعلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، جانفي1979م، ص498.
(6) الجاحظ:المصدرالسابق، ص10.
(7) علي زيعور:الفلسفة العملية والنظرية في الهند والصين، ص198.
(8) الجاحظ:المصدرالسابق، ج1، ص136.

كان ليِّنَ الجانب و اتبع منهجه الصحابة والتابعين حتى أثرعن الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه:"قيمة كل إمرئ ما يُحسن"[1] و يُعَقب الجاحظ على هذا الحديث بُرهانا منه على أخذه بما قال الصحابة والتابعون "فلولم نقف من هذا الكتاب إلاّ على هذه الكلمة، لوجدناها شافية كافية و مُجزأة مُغنية"[2].

يلتقي في مذهبه الأخلاقي هذا مع بعض المُتهجمين عليه كابن قتيبة [3] الذي وإن عاب القصّاصين في كذب أحاديثهم، إلاّ أنّهم يُخففون من حِدّة طبع المُتعصبين"القصّاص على قديم الأيام، فإنّهم يُميلون وُجوه العوام إليهم و يستبدرون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث ومن شأن العوام القُعود عند القاص، ما كان حديثُه عجيبا خارجا عن فَطْرِ العقول أو كان رقيقا يُحزن القلوب و يستغزرُ العيون"[4].

إذن مهنة القاص ضرورية في طريقة الجاحظ التعلُمية التربوية، التي يدعو إلى تأسيسها رغم وجود دُعاة التصوف، الذين مثّلوا في غالبيتهم السلبية، بإهتمامهم بالحياة المُطلقة، حتى طلّقوا الدنيا و مباهجها التي أخرجتهم من المجتمع الإنساني وجعلتهم لا يهتمون بعمل البـر[5] و نظروا إلى أنّ كل عالمهم أخروي في دنيا الأحياء، فحرموا بطونهم و نظرزاهد إلى فاكهة بالسوق، لم يستطع شراءها، فقال:"يا فاكهة، موعدي و إيّاك الجنّة"[6].

لا أستغرب هذا التوجه الثقافي التعليمي التربوي عنده، كونه كان معجبا بأهل العلم والكُتّاب والمصلحين كعبد الحميد الكاتب[7] الذي كان كاتبا ووزيرا للخليفة مروان بن محمد[8] و كان له معه وفاء خالص، ممّا يُذكر أنّ مروان قال له حين أيقن بزوال مُلكه:"قــد

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين،ج1، ص60.

(2) نفسه.

(3) إبن قتيبة، عبد الله بن مسلم، أبومحمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، صاحب التصانيف، ولي قضاء دينور، رأسا في علم اللسان العربي و الأخبار و أيام الناس، يرى رأي الكرامية، يميل إلى التشبيه، من الثقاة، مات عام296هـ/909م. أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج13، ص296وما بعدها.

(4) إبن قتيبة:تأويل مختلف الحديث، ص252.

(5) علي زيعور:الفلسفة العملية والنظرية ، ص198.

(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص145.

(7) عبد الحميد الكاتب، إبن يحي بن سعد الأنباري، أبو يحي الكاتب، تلميذ سالم مولى هشام بن عبد الملك، سكن الرقة ومجموع رسائله نحو من المائة، يقال:"أنّه إفتتح الرسل بعبد الحميد وأختتم بإبن العميد، مات آخرعام132هـ/750م. أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج5، ص ص462،463.

(8) مروان بن محمد، مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الجعدي، أمه ريّا، بويع له بدمشق عام127هـ/745م، يكنى أبا عبد الملك، إجتمع أهل الشام على بيعته إلاّ سليمان بن عبد الملك وغيره من بني أمية، قتل عام132هـ/750م. أنظر،المسعودي:مروج الذهب، ج3، ص291-312.

إحتجـتَ أن تصير مع عدُوي و تُظهـر الغدربي، لأنّ إعجابهم بأدبـك و حاجتهم إلى كتابتـك، تدعوهم إلى حُسن الظن بك، فإن إستطعت أن تنفعني في حياتي و إلاّ لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي، فردّ عبد الحميد:إنّ الذي أشرْتَ به علي أنفع الأمرين لك و أقبحهما بي و ما عندي إلاّ الصبرُ، حتى يفتح الله أو أُقتل معك"[1]، هذا يثبت مدى تعلُم الجاحظ من صدق موَدّة عبد الحميد، أثر عنه "العلم شجرة ثمرُها الألفاظ و الفكرُ بحرٌ جوهرُه الحكمة"[2].

أمّا إبن المقفع، كان قد قدّم للخليفة أبي جعفر المنصورالعباسي رسالة حول الإصلاح السياسي والإجتماعي للدولة الإسلامية[3] كمُحاولة تُبرزتأثُر الفكر الإسلامي بنظيره الفارسي فلا غريب أن يتّجه الجاحظ توجُهه بإصلاح كل فرد من الخاصة أو العامّة وتحسين أحواله المعرفية الهادفة لفرد أمثل.

ربّما ذاك الفرد الذي يُجَسِدَ رسالة إبن المقفع الإصلاحية و تكون له طاعة عبد الحميد للحاكم، مع التأكيد على الأصول الإسلامية ولو في وقت متأخر، ذكرهما بقوله:"و كان عبد الحميد الأكبر وإبن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما،لا يستطيعان من الشعرإلاّ ما يذكر"[4].

وها هو يُكمل مشوارمَنْ جعله مُقدَمًا على كتاباته في بدايات ظهور إسمه على قوائم الكُتَّاب وتـزامن عصره مع الشاعرالبحتري[5] الــذي عُرف بوفائه للشاعرأبي تمّام الطائي[6] علّمه أصول كتابة الشعر رغم كونه مطبوعا عليه.

والغريب أنّ البحتري إتّسم بصفات عدم الوفاء مع أغلب الناس، إلاّ أنّه حفظ المودّة لأستاذه أبي تمّام حتى بعد وفاته، فكان يمتثل لنصائحه بصفته مُعلما له، حتى فاقه شعرا وقيـل

(1) المسعودي:مروج الذهب، ج3، ص ص312،313.

(2) الثعالبي(أبو منصورعبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت429هـ):تحفة الوزراء، تحقيق حبيب علي الراوي- إبتسام مرهون الصفار، دارالأفاق العربية، ط1،1420هـ/2000م، ص114.

(3) أنظر، بشارقويدر:الإصلاح السياسي والإجتماعي للدولة الإسلامية من خلال رسالة الصحابة لابن المقفع، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر.

(4) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص142.

(5) البحتري206هـ/822م، أبوعبادة بن الوليد بن عبيد بن يحي بن عبيد الطائي البحتري المنبجي، مدح الخلفاء والوزراء صاحب مصر خمارويه، عاش أكثرمن70عاما، إجتمع بأبي تمام الطائي و أراه شعره، فأعجب به و قال له:أنت أميرالشعربعدي، بجّله المبرد، قيل:كان في صباه يمدح أصحاب البصل والبقل، له حماسة أستاذه، مات بمنبج أو بحلب. أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج13، ص ص486،487.

(6) أبو تمّام الطائي188هـ/804م-231هـ/846م، حبيب بن أوس، طائي صليبية، نسبُه إلى قحطان، ولد بقرية جاسم بناحية منبج قرب حلب.
أنظر، مصطفى الشكعة:الشعر والشعراء، ص631.

له مرّة:أنت أشعر من أبي تمّام، فما كان من البحتري إلاّ أن قال:"كلاّ والله، ذاك الأستاذ الرئيس والله ما أكلتُ الخبزَ إلاّ بـه...و لكنّي والله تابعٌ له، آخِذٌ منه، لائذٌ به، نسيمي يركدُ عنـد هوائـه و أرضي تنخفض عند سمائه"[1] و هذا يؤكد مدى جدِّية المعلم من ناحية وصِدْق المتعلم من ناحية أخرى، أي يجب أن يتصف كليهما بالأخلاق الحميدة التي تُقرب الأفراد وتُكْسِبَ المعارف.

ولا أدَّل من دراسة، أجراها المستشرق الأب آسين بالاثيوس[2](Asin Palacios ;p.m) لكتاب البيان والتبيين عام 1939م في إطارحركة التفاعل الثقافي بين المسيحية والإسلام، متتبعا ظاهرة التصوف من خلاله[3]، ربّما ليُدعم حقد الكنيسة على الإسلام والمسلمين، بما يعرفه عن طبائعهم وأهوائهم وفِتَنِهم التي تعوَدَ الجاحظ منها .

ومهما يكن، فإنّ الأمّة محتاجة في محنتها هـذه إلى تصحيـح الفهـم والإعتقـاد والإيمان، إعتمادا على ما أمر به الله وعلَّمه النبي صلى الله عليه وسلّم وإقامة السلوك والحياة والحركة على قاعدة الإيمان، بإعادة صياغة النُظُم والقِيَم والسلوكيات والمواقف وفق منظومة الإيمان المنبثقة من قال الله وقال الرسول، أي تنقية السلوك، ليوافق نقاء العقيدة، ثم العيش بها دون الركون إلى ظلم ظالمٍ[4]، أي أن يزهد الناس في دنياهم.

5- خصائص أسلوب كتاب البيان والتبيين:

يتميز أسلوبه من خلال كتاب البيان والتبيين بخصائص، تجعله يتميز عن غيره كالإكثار من الإستطراد والإستفاضة والإطناب[5] و هي خصوصية أملتها عليــه نزعته الكلامية التـــي

---

(1) مصطفى الشكعة:الشعر والشعراء، ص ص694،695.
(2) الأب آسين بالاثيوس1871م/1944م(Asin Palacios ;p.m)، ولد في سرقسطة، تخرج من معهدها الديني، تلقى العربية على ريبيراعام 1891م، نال دكتوراه من جامعة مدريد عام 1896م، نشررسالته عن العقيدة والأخلاق والتصوف لدى الغزالي عام 1901م، بعد فوزه في إمتحان الأستاذية، خلف كوديرا على كرسي العربية في جامعة مدريد عام 1903م ألقى خطاب إنضمامه إلى مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية في مدريد عن إبن مسرة ومذهبه عام 1912م وإلى المجمع اللغوي بها عن المصادر الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي عام 1919م وإلى مجمع التاريخ بها عن دراسة الفصل لإبن حزم عام 1923م، ثم حققه فيما بعد ونشره في05أجزاء، عين رئيسا للمجمع اللغوي عام 1943م، حرّر مجلة الأندلس، أنتخب عضوا في مؤتمرات المستشرقين، رتب في مكتبته تراجم علماء العرب بالأندلس، بلغت30ألفا. أنظر،نجيب العقيقي:المستشرقون، ج2، ص595.
(3) نجيب العقيقي:نفس المرجع، ص ص595،596.
(4) الفرياني(أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض ت301هـ):كتاب القدر، تحقيق الأستاذ خالد مصطفى طرطوسي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى1427هـ/2006م، ص ص05،06.
(5) كاظم جطيط:دراسات في الأدب العربي، دارالكتاب اللبناني، الطبعة الأولى1997م، ص66.

تحدو بصاحبها إلى إستيعاب التفاصيل والوصف الدقيق المُتشعب للجوانب المختلفة للموضوع المتناول، لأنّ ذلك يتطلب إيراد الأدِّلة المختلفة، من شعر وخُطب وحِكمٍ وغيرها وهو ما يُوَّسع الطرح والنقاش والجدال لإقناع الخصم خاصة إذا تعلق الأمر بالشعوبيين.

ومن خلال الكتاب أجاب على كل الأسئلة التي قد يطرحها القارئ لكتابه هذا و المقارن لمنهج كتابته مع منهج كتاب الحيوان، بما ذكره في أواخر الكتاب ذاته، من أنّه لم يكتبه بنفس طريقة كتاب الحيوان، بل جعل نصيبه أوفر من الشعر(1)، ربّما لأنّ الشعر كان وقتها وسيلة إقناع قبل الخطابة.

يعلل الإستطراد والخروج بالقارئ، بما ذهب إليه"إنّما يُخرجه معه من شيئ لشيئ ومن باب لباب"(2)، "ولكن قد يجري السبب، فيجري معه بقدر ما يكون تنشيط لقارئ الكتاب، لأنّ خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم، كان ذلك أرْوَحَ على قلبه و أزْيد في نشاطه، إن شاء الله"(3) وقال في موضع آخر:"إبقاءً على نشاط السامع"(4)، أي من لم يقرأه إستفاد من سماعـــه و شدَّةُ الإستطراد إليه أكثر.

كان هذا الأسلوب تجديديا بالنسبة لآدم متز(5)،" إنّ أسلوبه كان مستحدثا، إذ كثيرا ما يشوبُ طريقته في الكتابة الثرثرة والإستطراد إلى حد الإملال، لكن هذا بعينه هوما كان موضع لذّة المُحبين بالجاحظ وكانوا يستشعرون بأنّه إنقاذٌ لهم من طريقة العلماء السائدة إلى ذلـك الحين والتي كـانت ثقيلـة لـكثرة ما فيـها من الجـدّ وإظـهار العلم وكان المعجبون به يعتبرون الثرثرة الطبيعية الجميلة فنًا، تعمَّد الجاحظ أن يعالجه"(6).

ولا أدَّل على تعمُده هذا المنهج، تركيزه على تخيُر الألفاظ و الإيجاز والإبتعاد عن الإطالة الذي به يُقبل أو يُرفض رأيًا ما، مُبرهنا على ما توَصَل إليه من دراسة طبائع الناس.

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج4، ص14.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ص64.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ج1، ص128.
(4) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص76.
(5) آدم متز، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة بازل بسويسرا، توفي عام 1917م، ألف كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري بالألمانية، ثم ترجم إلى عدة لغات منها العربية.
أنظر، محمد عبد الهادي وريدة:كلمة المترجم للطبعة الأولى، آدم متز:الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، دارالفكرالعربي، القاهرة، طبعة 1999م، ج1، ص11.
(6) آدم متز:نفس المرجع، ص319.

لم يُرتب موضوعاته زمانيا أومكانيا، للتشويق"جعلتُ فداك، إنّما أُخرجُك من شيئ إلى شيئ و أُورد عليك الباب بعد الباب، لأنّ من شأن الناس ملالة الكثير وإستثقال الطويل وإنْ كثُرت محاسنُه وجمَّت فوائده...أردتُ أن يكون إستطرافك للآتي، قبل أن ينقضي إستطرافك للماضي...متى كنْتَ منتظرا وله مُتوقعا...أحْظَى لِمَا يردُ عليك و أشهى لِمَا يُهدى إليك وكلُ منتظر مُعَظَمْ و كل مأمُول مُكرَّم و كل ذلك رغبة في الفائدة وصبابة بالعلم"[1]، كما يُكثر من الإستشهاد بالشعر، مُستدلا به للإقناع، مُؤكدا به أسلوبه الحِجَاجِي.

يُذكر بين الحين والآخر بما قال أبو نوّاس، ربّما لأنّه معاصر له ومُقارب له سنًا أو لأنّه ممّن ظاهر بالمُحرَمات و تحدَّى بها و هو الشغوفُ باللذّة في مجتمع كان فيه البحث عن اللـذّة و الجري وراءها من السمات البارزة فيه[2].

وبالتالي فهو إلتقاء كليٍّ مع ما تدعو إليه الديانات الأخرى كالزرادشتية مثلا أو ربّما رآى فيه الجاحظ باعتباره يتحدث عن الإرادة صراعا بين الإرادة والرغبة فهو بمُجاهرته، قد وافق مُحيطه تماما وما تدعو إليه الشعوبية.

فمشكلة النسب عند أبي نوّاس تمس فتنته بالـذات و شهوة العرض و المعارضة في دخيلة طبعه[3] حتى ذهب البعض إلى الإقرار، بأنّه ليس ثمَّة أحد صوَّرَعصره كما صوَّره أبو نوّاس ولم يخدم الشعوبية، كما خدمها هذا الشاعر، إذ كان مُولعا بالتهتك و مهاجمة العرب[4].

يذكر في الكتاب مصادره من وزراء وشعراء وكُتّاب وفلاسفة وعلماء و كلُّهم له علاقة بالمنطق الفلسفي[5]، حتى قيل: "أنّه من فضلاء المعتزلة و المُصنف لهم و قد طالع كثيرا كتب الفلاسفة و خــلط و روَّج بعباراته البليغــة و حُسن براعته اللطيفة"[6]، يــذكرالواقدي[7] فيــما

(1) الجاحظ:رسائل الجاحظ (المجموعة الأدبية)، ص472.
(2) أحمدحيدوش:الإتجاه النفسي في النقد العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1989 م، ص125.
(3) أحمد حيدوش:نفس المصدر، ص130.
(4) أحمد كمال زكي:الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دارالمعارف، مصر، ط1971م، ص486.
(5) المنطق الفلسفي، قوانين يُعرف بها الصحيح من الفاسد، في حدود المعرفة للماهيات المفيدة للتصديقات.
أنظر، إبن خلدون:المقدمة، ص489.
(6) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص65.
(7) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد الأسلمي، مولاهم الواقدي المديني القاضي، صاحب التصانيف والمغازي و العلامة الإمام أبو عبد الله، أحد أوعية العلم على ضعفه المتفق عليه، ولد بعد عام120هـ/738م، سمع من صغار التابعين، خلط الغث بالسمين، لا يُستغنى عنه في المغازي و أيام الصحابة و أخبارهم، قال عنه إبن حنبل:"الواقدي كذّاب"، مات على القضاء ببغداد عام207هـ/823م،قيل: "أنّ حديثه متروك".
أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج9، ص454وما بعدها.

ذكره من أنّه كان يروي عن بعض رجاله، أنّ موسى كانت عليه شآمة، فيها شعرات وليس يدل القرآن على شيئ من هذا، لأنّه ليس في [1] قوله تعالى "واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي"[2]، دليل على شيئ دون شيئ[3]، ثم أبوالحسن المدائني[4] و هم من الموثوق فيهم، فيما تخصّصوا فيه.

يستشهد بآيات قرآنية غير شاك في النص القرآني، فقد هزأ من الذين يقولون بأنّ أصل العرب من قبيلة ثمود "فأمّا ثمود فقد خبَّر الله عنهم[5]، فقال:"وثمودا فما أبقى"[6]...، فأنا أعجب من مسلم يُصدق بالقرآن، يزعم أنّ قبائل العرب من بقايا ثمود" وهو بالتالي يرُد على تأويل أبي عبيدة" وكان أبو عبيدة يتأول في قوله:"وَ ثَمُودًا فَمَا أَبْقَى"[7].

يؤكد إعتماده في تفسيره للقرآن على المعقول لا المنقول وحده، ما أظهر أسلوبه ظاهريا إتّباعا لأسلوب رجال الحديث في إثبات السند كنقد خارجي، بينما الباطني، فيُعنى بالكشف عن توليد النص من خلال دراسته له، كأن يتعرف على ألفاظ النص ومُعاينة و يبحث مبلغ صلتها بما يعرف عمّن نُسب إليه النص أو يقارن أو يطابق بين الفلسفة التي صدرت عنها أفكار النص و ذلك ما يثبت بتدخلاته[8].

في كتاب البيان عدّة أدلة، كتدخله في هدف أهل النحو من دراستهم له "و لم أرَغاية النحويين إلاّ كُلَّ شعر فيه إعراب"[9]، كما تحرَّى اليقين في إيراد أخباره، كذكر رابعة القيسية بإسمها المشهورة به، العدوية، أمّا عبد الحميد الكاتب، فذكره بإسم الشهرة عبد الحميد الأكبر.

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص31.
(2) سورة :النجم،الآية: رقم51.
(3) الجاحظ:المصدرالسابق، ص31.
(4) أبو الحسن المدائني، أبوعلي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني الإخباري، نزل بغداد و صنّف التصانيف، عجبا في معرفة السِيروالمغازي والأنساب بأيام العرب، مصدقا فيما ينقله على الإسناد، ولد عام132هـ/750م، نشأ بالبصرة متكلما، حكي عنه، أنّه دخل على المأمون، فحدّثه بأحاديث في علي كرم الله وجهه، أخبار قريش سيرة إبن سيرين، قصة أصحاب الكهف، مات عام840م، في دار إسحاق الموصلي.
أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج10، ص400وما بعدها.
(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج4، ص128.
(6) سورة:طه،الآية:رقم27.
(7) الجاحظ:المصدرالسابق، ص ص128،129.
(8) فالح الربيعي:تاريخ المعتزلة فكرهم وعقائدهم،الدارالثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى1421هـ/2001م، ص73.
(9) الجاحظ:المصدرالسابق، ج4، ص91.

غلبت على تقديم مواضيع الكتاب الجدِّية، إذ كان حظه قليلا من الهزل وبالتالي فقد خالف جزئيا ما كان مألوفا في كتبه الأخرى أو فيما دعى إليه إبن المقفع في تأليف الكتب"و قد إختبرت منك ذلك و إخترت أن تضع هذا الكتاب وتُعمل فيه فكرك و تُجْهد فيه نفسك، بغاية ما تجد إليه السبيل و لْيكن مُشتملا على الجدِّ و الهزل و اللهو والحكمة و الفلسفة"[1].

ذهب المستشرق كراديفو[2]"أنّ الطابع الأدبي لا العلمي الغالب على كتب الجاحظ"[3]، كما شاطر الفيلسوف رينان[4] في القول: بأنّه كبقية علماء العرب والإسلام، في الإعتماد على الحفظ لا على البحث[5]، أمّا آدم متز، فشبّه أسلوبه في الكتابة بمنهج الهنود بقوله: "مزج بين الدُرِّ والبعر"[6] .

غلب على الكتاب بعض الكلمات الفارسية، دليلا على معرفته للغة الفارسية وهو ما يستدعي منذ تلك الفترة إنشاء معجم للكلمات خاصة المُوّلّدَة، نتيجة التأثر والتأثير بين كلام العرب وغيرهم و بدت نزعته الفلسفية واضحة، باستعماله لألفاظ مثل آلة "وأنّ البيان يحتاج إلى تمييز و سياسة وإلى ترتيب و رياضة وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة[7].

---

(1) إبن المقفع (عبد الله):كليلة ودمنة، تقديم مرزاق بقطاش، موفم للنشر1988م، ص23.

(2) كراديفو:Carra de vaux bon، البارون كراديفو، مشتشرق فرنسي، ولد عام1867م، درس العربية ودرَّسها بالمعهد الكاثوليكي بباريس، إهتم بالرياضيات، الفلسفة، التاريخ و إشتهر بهما، ترجم كتاب التنبيه والإشراق للمسعودي عام 1897م،1902م و مختصر العجائب للمسعودي بباريس عام 1898.
أنظر، نجيب العقيقي:المستشرقون، ج1، ص263.

(3) محمد عبد المنعم الخفاجي:أبوعثمان الجاحظ، ص282.

(4) رينان:Renane، ولد في مدينة تريجيه، من أعمال بريطانيا بفرنسا، دخل المدارس اللاهوتية حيث برز فيها، تشبَع باللغات الشرقية حتى صار من ثُقاتها، ثم أخذ بمذهب حرية الفكر ورحل إلى المشرق ونزل بلبنان حيث صنّف كتابه حياة يسوع في ديرالآباء اليسوعيين بغزير، إهتم بالعقائد الإسلامية، أنتخب عضوا في المجمع اللغوي الفرنسي عام 1878م.
أنظر، نجيب عقيقي:المرجع السابق، ج1، ص202.

(5) محمد عبد المنعم خفاجي:المرجع السابق، ص282.

(6) آدم متز:المرجع السابق، ج1، ص11.

(7) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص14.

الجاحظية حوصلة تجربة الجاحظ الشخصية، من مُشاهـدات عينيــة إلى مُدركات عقلية، إنفرد فيها عن بقية المعتزلة بآراء في نظره كفيلة بحل أزمة المجتمع الإسلامي، ميَّزها دعوته إلى إفادة كل فرد من معارفه الفطرية و ما يكتسبه بالتكــرار، بإكتساب ثقافــة الـــوافد و تُراثه البعيد عن الإسلام و اللغة العربية، لكن بشرط تعريبه ثم أسلمته، قصد التماشي مع الأصالة العربية.

ولا يتم ذلك إلاّ بوجود إرادة التغييرعند كل فرد لنفسه أولاً، باستعمال وسائط، تتمثل في طُرُق التعلُم المُختلفة، مُركزاعلى الشك كوسيط أساسي في الوصول إلى اليقين.

إنّ إكتساب ودراسة تراث الغيـر، هندي أوفارسي....، ضرورة أكثر من إختيار، فهو يُمثل المُعاصرة في ذاك الوقت، التي لا بدّ من مُواكبتها، ثُم إنّ عقلنته، تعني المُحافظة على أخلاقيات الأفراد المسلمين، إذ لا خير في مُعاصرة تجلبُ الدمار وتُؤجج نارالفتن.

أمّا مسألة تعريبــه، فتعني شعبـويته، فأغلبية المجتمع تنطق العربية ولا يُمكن إقرار العدل وغيره من الفضائل، إلاّ في ظل حاكم و فرد مُثقف، يُشكل بها عُضْوًا في مُجتمع مُسلم، ثم إنّه لا تعارُض بين ما يدعُو له الدين والعقل، فلِمَ لا نُعقلن كل شيئ؟.

أزمة العالم الإسلامي إذن تكمُن في كيفية ربط العلاقة بين الأصل الذي هوالدين الإسلامي والتراث الـــوافد، من فلسفات و علــــوم تجريبية و مُجــون و...، من أهــل الإلحاد و أصحاب المِلــل و الأهواء.

وهُم في كل الأحوال، يبــقون منابــعا لمختلف المعارف التي من الواجب الإطلاع عليها، على الأقل لمعرفة المُتهجمين على حرمة ديننا، مُحاولين إفقادنا هويتنا، لذلك لفت الجاحظ النظر إلى دور المثقف المُستقبلي، مُعلما، شاعرا....

إنّ التغيير يتطلب تجنيد كل الطاقات وإيجاد مؤسسات ثابتة، تقوم بهذا الدورإلى جانب ما يقوم به الفرد بشخصه، لخلق ثقافة التواصل مع الآخر، فثقافة الحوار مصدرها المُثقف المُتفتح لا المُتقوقع، ممّا يستوجب الإهتمام بتعليم النشء، لتقديم الفرد النموذج لمُجتمع إسلامي أمثل.

إرادة التغيير ستُكَوِنُ جيلا جريئًا، لا يُكَوِنُ طبقة عازلة بينه و بين السلطة، بل يتعاون معها لإقرارالحق و العدل، فالحاكم سيكون واحدا من هؤلاء و تقديم كتاب البيان والتبيين بهذا الطرح إلى أحمد بن أبي دؤادة، سيُسهل تطبيق مشروع الجاحظ الإصلاحي، القائم على التربية

والتعليم و هو ما سبق طرح أبو حامد الغزالي بشأن تأسيس المدارس النظامية ذات تخصصات و المنعكس الشرطي حسب تعبيره وعبرَّ عنه بالعادة.

فالعالم الإسلامي في حاجة إلى مهارات ميدانية محلية، تلتزم بتغيير نفسها وترغيب غيرها في ذلك، إذ كانت الضرورة مُلّحة وقتها إلى أفراد واعين بثقافة الحوار، خريجي مؤسسات أخلاقية زهدية لإنهاء الفتن.

وللأسف أكثرالفتن من الفرق الدينية أو الكلامية التي تحتمي بالدين وتتعصب لحقها في دعواها التي كان أكثرها ضد السلطة الأموية أوالعباسية، قصد إقلاعها بإستعمال العامّة الجاهلة.

كان التعليم إذن وحده الكفيل باحتواء هذه الطبقة و جعلها تتعاون مـع السُلطة للتغيير، لا بالإبتذال لها، فاللغة وسيلة للفتن ووسيلة أيضا لإصلاح الأوضاع، لأنّ الحوار يتم بها و كلما كان اللسان أبين، كان حظُ الفتن أقل.

فهل كان للجاحظية و المنهج التعليمي سبْقُ في تاريخ الدولة الإسلامية؟ أم أنّهما جديد هذا الأديب؟وما علاقتها بأصول المعتزلة؟.

هذا ما سأحاول الإجابة عليه من خلال كتاب البيان والتبيين في الفصل الثالث/ إن شاء الله.

الفصل الثالث

المعتزلة

بين الأصول والتطور

حسب كتاب "البيان والتبيين"

الفصـــــــل الثالـــــث

المعتزلة بين الأصول والتطور
حسب كتاب "البيان والتبيين"

شكّل موضوع المعتزلة أساس دراسات متعددة، منها إستشراقية وأخرى عربية، بعضها أكّد الأصل الأجنبي لها، كونها نابعة من موالي دُخلاء، كما هناك تشابه بين مادعت إليه وما تدعو له أغلبية المذاهب غيرالإسلامية كاليهودية والمسيحية والبعض الآخرجعلها محلية باعتبار أنّ الموالي تشكيلة طبيعية في المجتمع الإسلامي.

كان الجاحظ أحد المهتمين بهذه القضية التي وقف الكل متنازعا فكريا حولها وله رأي حولها، وعظية إسلامية، بل جعل من كل الخلفاء في صدر الدولة الإسلامية ومن جاء بعدهم زُهَّادا، مشيرا إلى تقوى وإخلاص رجال القدَريةِ الأوائل، كونهم تخَرَجُوا من مدرسة الحسن البصري المشهود له بالفضيلة والزُهد.

والحقيقة أنّ العدل الذي دعى إليه وُعّاظها، كان مطروحا قبل ميلهم إلى تحقيقه خاصة وأنّ البصرة كانت مسرحا لصراعات حربية وأخرى كلامية بين المسلمين، إحتارالناس في تحديد وجهة أصحابها في الدنيا والآخرة، بدءً من أصحاب الجمل وموقعة صفين.

ما جعل العودة إلى النصوص القرآنية بالدراسة التمحيصية ضروريا لفهم ما يحدث في الساحة وبالتالي إعادة صياغة المفهوم الحقيقي للعقيدة وتثبيت فكرة الإيمان، الذي إفترق الناس حول تحديد مفهوم له خاصة وأنّ الفكرة المطروحة وقتها، تمحورت حول تسمية وحُكم من يلتقي عنده الإيمان مع إرتكاب الكبائر.

حاولت مدرسة الحسن توجيه الأفراد المسلمين لِمَا فيه خيرهم عن طريق الوعظ ومحاسبة النفس وتفرع عنها مدارس للقصّاصين وأخرى للتوّابين، لتظهر مدرسة الحبُّ الإلهي تتويجا لكل هذه الدراسات الفرعية .

ولمّا كان حكام الدولة الأموية، يمثلون العدل الإلهي، ظنّ الوُعّاظ أنّ دعوتهم الإصلاحية ستكون أسهل لأنّ فكرة العدل قائمة، فأعلنوا عن برنامجهم الذي بدأ بالقصر أولا ومن ثمَّ يعم الناس كلهم، بدءً من دور كبيرهم في أسرة الخليفة عبد الملك بن مروان وصولا إلى علاقة غيلان بالخليفة هشام بن عبد الملك، ليصطدموا بواقع آخر ومعاملات منافية للعدل.

حفّزت أفعال حكام بني أمية وغيرهم من الإتجاهات الأخرى جماعة مفكرين أبرزهم واصل بن عطاء لتطوير منهج القدَريين إلى إعتزالٍ له أسسٌ عقلانية، ينصاع له الكل بدءً من العامّة وصولا إلى الخاصة ، فكيف كانت كل هذه المراحل السابقة الذكر مقدمات لظهور المعتزلة ؟.

ذاك ما سأحاول الإجابة عليه ممّا أشار إليه الجاحظ في كتاب البيان والتبيين/إن شاء الله.

1- المدارس الزهدية الأولى:

تعدّدت مدارس الزُهد بكثرة الزُهّاد في المدينـــة المنورة وغيرها، لكني سـأركزعلى مدارس البصرة، لما له من علاقة بموضوع البحث.

أ- مدرسة الحسن البصري:

1 - سيــــرتـــه:

تركت شخصية الحسن البصري أثرا كبيرا في عهد الخلافة الأموية وحظيت بمكانة دينية حتى في عهد الخلافة العباسية، رغم كونه من الموالي أصلا، ليس عربي الأصل، وُلد في المـدينة المنورة من أبٍ فارسي، أسرَه العرب عند سقوط مدينته و قيل: كان والده نصرانيا ثم أسلـم، تسمّى باسـم يساروتــزوج من أمِّ الحسن خيرة و لـمّا وُلـد لهـما الحـسن عـام21هـ /642م، أُعْتقا، كانت أمّه محدثة و قاصّة وهو ما كان له تأثير على سلوكات إبنها.

شهد الثورة على الخليفة عثمان بن عفّان[1]، ثم الأحداث السياسية التي شهدتها الدولة الإسلامية، خاصة فترة التحول من الخلافة الراشدية الشورية الحكم إلى الخلافة الأموية الوراثية الحكم، ثم إنتقلت أسرته إلى البصرة، لترى الفُرقة بين المسلمين[2].

يذكره الجاحظ بأنّه من الخطباء والعُبَّاد[3] وتارة يذكره بالزاهد[4]، دليلا على قوة تأثيره في السامعين بكلامه ولغته وإقناعه، حتى شدَّ إليه قلوب وعقول الناس، فقال أحدهم: "والله ما تمنيت كلاما قط أحفظه إلاّ كلام الحسن يومئذ"[5].

---

(1) عثمان بن عفان23هـ/644م-35هـ/656م، الخليفة عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب القرشي الأموي، ثم الأموي المكي، ثم المدني، ولد في العام السادس من الفيل، أسلم قديما، هاجر الهجرتين الأولى والثانية، تزوج بنتي الرسول صلى الله عليه وسلم، روي له عن الرسول مائة وستة حديثا ولي الخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب .
أنظر،السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص133.

(2) علي سامي النشّار:نشأة الفكرالفلسفي في الإسلام، دارالسلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط1،1429هـ/2008م، ج3، ص1294.

(3) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص234.

(4) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص159.

(5) الجاحظ:نفس المصدر، ج2، ص143.

ركّز مواعظه تبعا لما أثرعن الرسول صلى الله عليه وسلّم والصحابة والتابعين، فكان يستشهد في كلامه بقوله:"أوصاني ربي بتسع، أوصاني بالإخلاص في السرِّ والعلانية وبالعدل في الرضى والغضب وبالقصد في الغنى والفقر وأن أعفو عمّن ظلمني وأعطي من حرمني وأصل من قطعني وأن يكون صمتي فكرا ونُطقي ذكرا ونظري عبرا"(1).

وهذا تلخيص مباشر لما قاله الجاحظ في مذهب الجاحظية لإصلاح النفوس وتكوين الفرد الصالح وسبق الحسن البصري الجاحظ ، في كون الحسد أكبر مرض يصيب النفوس ويحول دون التفكير، خاصة وأنّه كان يعيش في ظل الدولة الأموية، عُرف جُلُّ حُكامها بالجَوْر وتفشي الحسد في الرعية، فأثرعنه "أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة، فالأصول الثلاثة: الحسد الحِرص، حُبّ الدنيا والفروع الستة:حُبُ النوم، حُب الشبع، حب الراحة، حب الرياسة، حب الثناء وحب الفخر"(2).

يعترف له الجاحظ بالتقدم في فن الخطابة "فأمّا الخُطب، فإنّنا لا نعرف أحدا، يتقدم الحسن البصري فيها"(3) ويبدو أنّه لم يُخاطب الفــرد المسلم فقط، بل كان يخاطب كل إنسان لأنّ الكُل مسؤول عن تصحيح ذاته والبلوغ بنفسه درجة الصلاح، فكان يبدأ كل خُطبه(4) ب "والله يا ابن آدم، ما تُوجهك إلاّ خطاياك، قد أُريدَ بك النجاة، فأبيتَ إلاّ أن تُوقع نفسك"(5) .

وفي هذا الجزء إقرار من الجاحظ أنّ الحسن البصري بأنّ الشر من الإنسان وأنّ القدَر بيد الإنسان، لأنّه له القدرة على تغيير أخطائه ولعّل هذا تأكيد على أنّ الإنسان يستطيع أن يتلافى ما قُدر عليه وتأكيد التوجُه القدري لدى الحسن كسند .

كان الحسن مُتتبعا في سلوكاته وأفعاله سيرة الرسول صلى الله عليه وسلّم القولية والفعلية ويتحَرّى في أن يعلمها لغيره، بدءً من الصلاة والظاهرأنَّ السيرة قد غُيِّب تطبيقها في أيام بني أمية، فكان يقول: "ما أعجبَ قوما يروون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم في نعليه، فلمَّا إنفتل من الصلاة، علم أنَّه قد كان وطئ على كذا وكذا وأشباها لهذا الحديث، ثم لا ترى أحدا منهم، يُصلي مُنتعلا"(6)، أي هذا تأكيدا على تضييع بني أمية للسيرة النبوية.

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص48.
(2) إبن عبد ربه:العقد الفريد، ج2، ص322.
(3) الجاحظ:المصدرالسابق، ج1، ص235.
(4) أنظر، نص إحدى خطب الحسن البصري كاملة بالملحق رقم10، ص165.
(5) الجاحظ:الحيوان، ج5، ص100.
(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص118.

كان يذكرالموت في أغلب كلامه، حتى قال له أحد:أني أكره الموت، فردّ عليه:"ذاك أنَّك أخَّرْت مالك ولو قدَّمته، لسرَّك أن تلحق به"[1] وفي ذلك تأكيد على الصَدقة لما فيها من منافع فهي تجمع الناس على الألفة وكان يردّد قول الرسول صلى الله عليه وسلّم في أمرالزكاة "حصِّنوا أموالكم بالزكاة و داووا مرضاكم بالصدقة وإستقبلوا البلاء بالدعاء"[2] وفي هذا إبراز لما يدعو إليه الجاحظ، من أنَّ الإنسان يمكن أن يُغير المُقدرعليه بإرادته.

رأى ضرورة إلتزام القاضي بتطبيق ما يلزمه الشرع، من تطبيق حدود الله، فكان ناهيا عن التجاوز، إذ شهد بعض الأمراء وقد تعدَّى إقامة الحد وزاد في عدد الضرب، فكلَّمه في ذلك، فلمَّا رآه لا يقبل النُصح، قال:"أمَّا إنَّك لا تضرب إلاَّ نفسك، فإن شئت فقلل وإن شئت فكثِر"[3] وهذا دليل على قيامه بأساس الدين، المتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى عند الحُكّام، ناهيك عن حكّام الدولة الأموية، أي لا يخاف لومة لائم في الحق وإقامة الحدود.

وهذا تعبير على مدى إلتزامه بالشرع، الذي لم يكن يتوقف عند العدل في المعاملة بين الناس وما شابه ذلك، بل القيام بالفعل "ولا بدّ من الإيمان بالشرع وهو الإيمان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعد والوعيد، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كُتبه وليس في المراد بالشرع، مجرد العدل بين الناس في معاملاتهم، بل الإنسان كفرد لا بدّ له من فعل وترك، أي الإنسان مُتحرك بالإرادات، فإذا كان له إرادة، فهو متحرك بها ولا بدّ أن يعرف ما يريده، هل هو نافع له أوضار؟ وهل يُصلحه أو يُفسده؟[4].

دعى إلى ترك التقية والظن، لِما له من أسوإ الأثرعلى الفرد والمجتمع ويرى أنَّ المُداراة هي التي تسببت في فتن الدولة الإسلامية "لو تكاشفتم ما تدافنتم"[5]، حتى قيل عنه "كان أشبه الناس علانية بسريرة وسريرة بعلانيـة وآخـذ النــاس لنـفسه، بـما أمر به غيره، ياله من رجل إستغنى عمَّا في أيدي الناس من دنياهم وإحتاجوا إلى ما في يديه من يديه"[6] والأكثر يدعو إلى عدم ترك العمل الحسن، من جرّاء كثرة الفساد في الناس، بقوله "إن كنتَ كلّما رأيتَ قبيحا ترَكْتَ له حسنًا، أسْرَعَ ذلك في دينك"[7].

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص179.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ج2، ص56.
(3) الجاحظ:الحيوان، ج5، ص100.
(4) ابن تيمية:الرسالة التدمرية، ص93.
(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص48.
(6) إبن عبد ربه:المصدرالسابق، ص230.
(7) الجاحظ:المصدرالسابق، ج1، ص83.

2- الحسن البصري والإعتزال:

رغبة من الجاحظ في الإنتساب المباشر بالجاحظية لمدرسة الحسن، عظَّم دورالعقل عنده بقوله:"لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكَّر، فإن كان له قال وإن كان عليه سكت وقلب الجاهل من وراء لسانه، فإن هَمَّ بالكلام تكلَّم به له أو عليه"[(1)].

ويُخصص توافُقه مع الجاحظية المؤمنة بالشك كوسيط للمعرفة ومن ثمَّ إلى اليقين، أورد قوله "ما رأيت يقينا لا شك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه، من أمرٍ نحن فيه"[(2)] .

يظهرأنَّ الشك مفيد في الحياة العلمية أكثر وذاك ما ذهب إليه إبن سينا "الشك في الحياة العملية ظاهرة مُتفشية، تُفسد على الناس حياتهم وتقطع علاقاتهم ببعضهم البعض وتنزع الثقة بالصديق من صديقه والأخ بأخيه ولكنّها بالحياة العلمية تسمو بالمجتمع إلى مراتب النُضج الفكري والكمال الإنساني، إذا إلتزم حدود الإتزان"[(3)].

وإن كان ذلك يــؤكد ما أراده الجـاحظ، إلاَّ أنَّ العــقل ليس حكرا على المعتزلة في تفعيله بل هو أيضا عند أهل السنّة والشيعة وغيرهم، كيف لا والقرآن أصلا يتفق مع مبادئ العقل.

أمَّا عن اليقين عند الحسن، فهو اليقين الأخلاقي، الذي تفشل أمامه كــل محاولات التمويه لخلق الفتن في أي مجتمع ليس فقــط الإسلامي، لأنَّ هــذا الزاهــد كان إنساني عالمي الموعظة، فاليقين عنده هو إقتناع المرء بأنّه يستطيع أن يتَّخذ إزاء ما يعتقد حقيقته قرارًا عمليا مُوافقا وإن كان هذا الإقتناع لا يتنافى مع إمكان الخطإ، هو ذاك الحاصل برؤية العَيَان بقوة الإيمان، لا بالحُجَّة والبرهان[(4)] والدليل على أنّ الحسن لم يكن من دُعاة القَدَريةِ، أخذُه عن إبن عبّاس[(5)].

---

(1) الجاحظ :البيان والتبيين، ج1، ص119.

(2) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص140.

(3) إبن سينا:التنبيهات والإشارات، ص38.

(4) جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص ص588،589.

(5) إبن عبّاس، عبد الله بن عباس، حبرالأمة وفقيه، إمام التفسير، أبو العباس عبد الله، عم الرسول صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب، إسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي الهاشمي، المكنّي الأمير رضي الله عنه، ولد بشعب بني هاشم، عام 3هـ/624م، صحب النبي أزيد من ثلاثين شهرا وحدَّث عنه، أمه هي أم الفضل لُبابة بنت الحارث بن حزن بن يجبرالهلالية، دعى له الرسول"اللهم علمه تأويل القرآن" قيل:أنّه كان من القرآن بمنزل وكان يقوم على المنبر، فيقرأ سورة البقرة وآل عمران، فيفسرهما آية، آية، قال عنه عمر: ذلك فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول"، "لقد علِمتَ علما ما علمناه"، قيل:"هو ترجمان القرآن"، توفي عام68هـ/688م أو69هـ/689م.
أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج3، ص331وما بعدها.

الذي أكّد أنّه لا بدَّ من الإيمان بالقدَرِ لتمام التوحيد بذكره "هو نظام التوحيد، فمن وحَّد الله وآمن بالقدر[1]، هو من تمام التوحيد ومن وحَّد الله وكذّب بالقدر، نقض توحيده"[2] وكان الحسن يقول:"من كذَّب بالقدر، فقد كفر"[3]، فكيف ينتسب إليه والجاحظ ممَّن ينفون أنَّ القدَر بيد الله؟.

يرتب إبن المرتضى الحسن في الطبقة الإعتزالية الثالثة، ذكر أنّه كُلِم في القدر، فكفَّ عن ذلك، قلت قد رُوي أنّه خُوِّف بالسلطان، فكفّ عن الخوض فيه، في حين ذهب المبرد إلى أن الحسن كان ينكر الحكومة ولا يرى رأي الخوارج وكان إذا تمكَّن في مجلسه، ذكر عثمان فترحَّم عليه ثلاثا ولعن قتلتَه ثلاثا ويقول: لو لم نلعنهم للُعنَّا، ثم يذكرعليًا فيقول:لم يزل أمير المؤمنين علي رحمه الله، يتعرفه النصر ويساعده الظفر، حتى حكَّم، فلِمَ تحَكَّمَ والحق معه، ألا تمضي قُدُمًا لا أبا لك وأنت على الحق[4].

قد يُفهم من هذا نكران حُكم الخليفة معاوية بن أبي سفيان[5] وذلك لا يقتضي مخالفة ما قدَّمنا وكان الحسن في زمان عظُمَ الخطر من بني أمية خاصة الحجّاج[6] و ربّما يتّقي، فيُظن به ماظنوا.

---

(1) القدَر، لغة القضاء ومبلغ الشيئ والطاقة والقوة، يطلق على ما يحكم به الله من القضاء على عباده وعلى تعلق الإرادة بالأشياء في أوقاتها وفرّقوا بين القضاء والقدر، فالقدر هو وجود الممكنات من العدم إلى الوجود، خروجا مطابقا للقضاء أمّا القضاء، وجود الممكنات في العقل الإلهي مجتمعة والقدر وجودها متفرقة في الأعيان، بعد حصول شرائطها، إذن القضاء هو الحكم على أعيان الموجودات بأحوالها من الأزل إلى الأبد، مثل الحكم بأنّ كل نفس ذائقة الموت، أما القدر فهو تفضيل هذا الحكم، بتعيين الأسباب وتخصيص إيجاد الأعيان بأوقات وأزمان بحسب قابلياتها وإستعداداتها المقتضية للوقوع منها وتعليق كل حال من أحوالها بزمان معين وسبب مخصوص، الأشاعرة قالوا:قضاء الله هو إرادته الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه، فيما لا يزال وقدَرُه إيجاد الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها وأحوالها، يطلق القدرعلى إسناد أفعال العباد إلى قدرتهم، لذلك لقب المعتزلة بالقدرية، لقولهم بأنّ كل إنسان خالق لأفعاله.
أنظر،جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص ص186،187.

(2) إبن تيمية:المصدرالسابق، ص92.

(3) الذهبي:سير النبلاء، ج4، ص581.

(4) المبرد:الكامل، ج3، ص216.

(5) معاوية بن أبي سفيان، أول خلفاء الدولة الأموية41هـ/661-60هـ/680م، صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي أبو عبد الرحمن، كاتب وحي الرسول، أمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أسلم عام الفتح، صحب الرسول وكتب الوحي بين يديه مع الكتاب وروى عنه أحاديث، كان الحسن البصري ينقم عليه قتاله عليا واستلحاقه زياد بن أبيه ومبايعته ليزيد إبنه.
أنظر، إبن كثير:البداية والنهاية، ج4، ص502.

(6) الحجّاج، إبن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف وهو قصي بن منبه بن بكر بن هوازن أبو محمد الثقفي، أمه فارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي، ولد عام36هـ/656م، وقيل:40هـ/660م أو41هـ/661م، نشأ فصيحا، بليغا، حافظا للقرآن، تزوج من بنت عبد الله بن جعفر، حجّ مرة واحدة، سمع عن إبن عباس، روى عن أنس وعبد الملك بن مروان، بنى مدينة واسط عام84هـ/703م فرغ منها عام86هـ/705م، ولاّه عبد الملك إمرة الجيش، نُقطت المصاحف في زمنه، نقمة على أهل العراق، إستغفرالله قبل موته، في27رمضان عام95هـ/714م.
أنظر، إبن كثير:نفس المصدر، ج5، ص240 وما بعدها.

أخذ المذهب عن أصحاب رسول الله، قال:"لقيت ثلاثمائة من الصحابة، منهم سبعون بدريا"[1]، قد يفهم منه أنّ الحسن البصري كان أميل إلى مذهب الشيعة ويُجاري أهل الإعتزال ومن ناحية أخرى أنَّ الإعتزال مذهب له جذوره إلى الصحابة رضوان الله عليهم.

في حين يرُد إبن عبد ربه على هذا، أنّه ذُكِر القدر في مجلسه، فقال:"إنّ الله خلق الخلق للإبتلاء، لم يطيعوه بإكراه ولم يعصوه بغلبة، لم يهملهم من المُلك وهو القادرعلى ما أقْدَرَهُم عليه والمالك لِمَا ملّكهم إيَّاه، فإنْ يأتمر العباد بطاعة الله، لم يكن الله مُثَّبطا لهم، بل يزيدهم هدى إلى هداهم وتقوى إلى تقواهم وإن يأتمروا بمعصية الله، كان الله قادرا على صرفهم إن شاء وإن خلّى بينهم وبين المعصية، فمِنْ بعد إعذار وإنذار"[2]، ثم كيف يكون قدَريًا وهو كان ينهي الناس عن إتباع معبد الجهني؟[3]"لا تُجالسوه، فإنّه ضال مُضل"[4].

حثَّ على التواضع وطلب العلم "التقدير نصف الكسب والتودد نصف العقل وحُسنُ طلب الحاجة نصف العلم"[5] و حذَّر من الإفراط في حُبِّ الدنيا وملّذاتها والحرص الزائد عليها بالعمل لمشروع الآخرة و دارالبقاء "يا ابن آدم، بع دنياك بآخرتك، تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك، فتخسرهما جميعا، يا ابن آدم إذا رأيت الناس في الخير، فنافسهم وإذا رأيتهم في الشر يتنافسون، فلا تغبطهم له الثواء هنا قليل والبقاء هناك طويل"[6].

وهذا هو نفسه كلام أهل الزهد[7]، فالتذكرة بالموت، ليس معناه الكف عن السعي أو التوقف عن الحركة، بل ليكون سعي الناس راشد وحركتهم رزينة[8]، أي كلّما أكثر الفرد من ذكر الموت، إستعد لها بالأعمال الصالحة.

---

(1) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص24.

(2) إبن عبد ربه:العقد الفريد، ج2، ص377.

(3) معبد الجهني، أول من نطق بالقدربالبصرة ومعه أبو يونس الأسواري، أخذا هذا الكلام عن سنسويه وقيل: سوسن من أهل العراق، كان نصرانيا، أسلم، ثم تنصر، قيل: أنّ الحجّاج عذّبه وقُتل صبرا بعد80هـ/699م.
أنظر، الفرياني(أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض ت301هـ):كتاب القـدر، تحقيق الأستاذ خالد مصطفى طرطوسي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى1427هـ/2006م، ص156وما بعدها.
أنظر، علي سامي النشّار:المرجع السابق، ج1، ص363.

(4) الفرياني:المصدر السابق، ص156.

(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص93.

(6) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص118.

(7) الزهـــد، في اللغة ترك الميل إلى الشيئ، نوعان:في الحرام وفي الحلال، فإذا كان في الحرام، كان فرضا وإن كان في الحلال، كان فضلا، أمّا إصطلاحا، بغض الدنيا والإعراض عن شهواتها، قريبا من معنى التقشف، لأنّ التقشف ترك الترفه والنعمة ومحاربة النفس في سبيل الوصول إلى الكمال الأخلاقي وقيل:الزهد ترك راحة الدنيا، طلبا للآخرة".
أنظر،جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص ص641،642.

(8) محمد الغزالي:الإسلام والطاقات المعطلة، ص21.

يورد الجاحظ ما قاله الحسن في باب الصمت، تأكيدا لمذهب الجاحظية "إملاء الخير خير من الصمت والصمت خير من إملاء الشر"[1]، كما أنّ الفرد يجب أن يخاف الله وحده لا الإنسان "من خاف الله، أخاف الله منه كل شيئ ومن خاف الناس، أخافه الله من كل شيئ"[2].

قيل:أنّه بقي متواريا من الحجّاج حتى أماته الله ولا يفهم من ذلك تخوفه منه، إنّما درءً لفتنة أبدية كانت ستحدث لو قتله، لذلك لـمّا سمع بموته، سجد شكرا لله، قائلا:"اللهم أمّته، فأذهب عنّا سُنّته"[3] وهذه الرواية تناقض سابقة لها مفادها، أنّ الحجّاج بعث إلى الحسن وقد همّ به، فلما قام بين يديه، قال:يا حجّاج، كم بينك وبين آدم من أب؟، قال:كثير، قال الحسن:فأين هم؟، قال:ماتوا، قال الحسن:فنكس الحجّاج رأسه وخرج الحسن[4] وقيل: همَّ بقتله عدّة مرات ولم يوفقه الله، رغم أنّ الحسن كان ينهي إبن الأشعث عن الخروج[5] .

يرى الحسن أنّ دَرْء النفس ومحاسبتها هو مطية التغيير الفردي "إنّكم لا تنالون ما تحبون، إلاّ بترك ما تشتهون ولا تُدركون ما تُؤَمّلون، إلاّ بالصبرعلى ما تكرهون"[6] ويحث على العمل في الدنيا باتباع مبادئ الشرع "ليس الإيمان بالتحَّلي ولا بالتمني و لكن ما وقر في القلوب و صدَّقته الأعمال"[7].

يرى أنّ محاسبة النفس ومراجعة أعمالها وفق ماجاء في القرآن الكريم، الأساس الأول لإصلاحها وهو يدخل فيما دعى له الجاحظ من تغيير فردي "رحم الله رجلا خلا بكتاب الله، فعرض عليه نفسه، فإن وافقه، حمد ربّه وسأله الزيادة من فضله وإن خالفه، إعتتب وأناب ورجع من قريب، رحم الله رجلا، وعظ أخاه وأهله، فقال:يا أهلي، صلاتكم، صلاتكم، زكاتكم، زكاتكم، جيرانكم، جيرانكم، إخوانكم، أخواتكم، مساكنكم، مساكنكم، لعّل الله يرحمكم يا ابن آدم، كيف تكون مسلما ولم يسلم منك جارك؟ وكيف تكون مؤمنا ولم يأمنك الناس؟"[8].

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص104.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص130.
(3) إبن كثير:المصدرالسابق، ص259.
(4) إبن كثير:نفس المصدر، ص256.
(5) نفسه.
(6) الجاحظ:المصدرالسابق، ص141.
(7) الجاحظ:نفس المصدر، ص128.
(8) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص120.

كما أنّ إصلاح الفرد لغيره، متوقف على ما أصْلَحَ به نفسه "لا يستحق أحد حقيقة الإيمان، حتى لا يَعيبَ هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوبهم، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه، فإنّه إذا فعل ذلك، لم يُصلح عيبًا، إلاّ وجد في نفسه عيبا آخر، ينبغي له أن يُصلحه، فإذا فعَل ذلك، شغَل بخاصة نفسه عن عيب غيره وإنّك ناظرٌ إلى عملك بوزن خيره وشرِّه، فلا تحقرَّنَ شيئا من الخير وإن صغُر، فإنك إذا رأيتَه، ساءك مكانه"(1).

حثَّ على دورالعلماء في خدمة أهل الدنيا من حيث هي مُقدمة لأخراهم "إنَّ العلماء كانوا قد استغنوا بعلمهم من أهل الدنيا، كانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا، ما لا يقضي أهل الدنيا بدُنياهم فيها وكان أهل الدنيا يبذلون علمهم لأهل الدنيا، رغبة في دنياهم، فرغِبَ أهل الدنيا بدنياهم عنهم وزهدوا في علمهم، لمّا رأوا من سوء موضعه عندهم"(2) .

يرى الحرص رفيق لكل عمل "ما أُعْطي رجل من الدنيا شيئا، إلاّ قيل له خذه ومثله من الحرص"(3) ولا ينسى الفرد المُصلح لنفسه، أنّ التكبُر قد يُذهب بكل ما أتاه الله و يَفقِد طعم السعادة، حتى يصبح مرتدي ثوب الصوف أسعد من مرتدي ثوب الحرير"إنَّ قومًا جعلوا تواضعهم في ثيابهم وكِبَرَهم في صدورهم، حتى لصاحب المُدَرَعَةِ بمُدرعته أشدُّ فرحًا من صاحب المُطْرَفِ بمُطرفه"(4) ويرى من الضروري ترْك الناس للفتنة "من عمل بالعافية فيمن دونه، رُزِق العافية ممَّن فوقه"(5).

يقدم إبن خلدون لإصلاح النفس تلخيصا وتوضيحا لِمَا رسم الحسن لمذهب الزهد والإنفراد عن الخلق والإقبال على العبادة، إختصوا بمآخذ مُدركة لهم وذلك أنَّ الإنسان بما هو إنسان، إنَّما يتميزعن سائرالحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان، إدراك للعلوم والمعارف، من اليقين والظن والشك والوهم وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضى والغضب والصبر والسُكر وأمثال ذلك، فالرَوْح العاقل والمُتصرف في البدن، تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال وهي التي تميَزَ بها الإنسان وبعضها ينشأ من بعض، كما ينشأ العلم من الأدِّلة والفرح والحزن عن إدراك المُؤلم أوالمُتلذذ به والنشاط عن الحُمام والكسل عن

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص ص120،121.
(2) نفسه.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص134.
(4) نفسه.
(5) الجاحظ:نفس المصدر، ص159.

الإعياء وكذلك المُريد في مُجاهدته وعبادته لا بدّ وأن ينشأ له عن كُتَل مُجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحال، إمّا أن تكون نوع عبادة، فتُرَسَخ وتصير مقاما للمريد وإمّا أن لا تكون عبادة وإنّما تكون صفة حاصلة للنفس، من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أوغير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترَّقى من مقام إلى مقامٍ، إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة، التي هي الغاية المطلوبة للسعادة[1].

عاصر الحسن البصري إبن عبّاس وجذبه إليه بمنهج التفسيروإستمع إليه، إذ يُعدّ الحسن أحد التابعين، الذين مهَّدوا لوضع الأساس لعلم إعراب القرآن[2] وأحد القُرّاءِ[3][4]، شهد الجاحظ على ذلــك "إنَّ أول من عُــرف بالبصرة إبــن عبّاس، صعد المنبر، فقرأ سورة البقرة ففسَّرها حرفا، حرفا"[5] .

يؤكد إبن عبّاس رضي الله عنهما، مصادر علمه بقوله:"قلب عَقُول ولسان سؤُول"[6] ومن شدة إحترام الحسن التلميذ لمُعلمه إبن عبّاس، فقد حفظ له الوفاء، إذ قيل له: يا أبا سعيد، إنَّ قوما زعموا أنَّك تذُم إبن عبّاس، قالوا:فبكى حتى إخضلَّت لحيته، ثم قال:"إنَّ إبن عبّاس، كان من الإسلام بمكان، إنّ إبن عبّاس كان والله له لسان سؤول وقلب عقول"[7] وكان يدعو إلى العلم "العلم أكثر من أن يُحْصَى، فخُذوا من كل شيئ بأحسنه"[8] وهكذا يتبين أنَّ الحسن، قد شكَّل مدرسة بمواعظه.

(1) إبن خلدون:المقدمة، ص468. إنّ الترتيب الذي أوجده إبن خلدون، للوصول إلى هدف الزاهد، هو نفسه، الذي ذكره الجاحظ في إنتقال العلم من الفرس إلى غيرهم "وفي الفرس الخُطباء، إلاّ أنّ كل كلام الفرس وكل معنى للعجم، فإنّما هوعن طول فكرة وعن إجتهاد رأي وطول خلوة وعن مُشاورة ومُعاونة وعن طول التفكر ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الأول وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى إجتمعت ثمارُ تلك الفكرة عند آخرهم.
أنظر، الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص49.
(2) صبحي صالح:مباحث في علوم القرآن، ص120.
(3) القُرَّاء، فرقة زاهدة في عهد الخلفاء الثلاثة وحين قامت الفتنة بين علي ومعاوية، وقفوا بجانب علي، ثم إنشقوا عنه ومنهم خرجت أكبر فرقة سياسية زاهدة هي الخوارج.
أنظر، علي سامي النشَّار:نشأة الفكر الفلسفي، ج3، ص1239.
(4) علي سامي النشّار:نفس المرجع، ج3، ص1297.
(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص62- 108.
(6) نفسه.
(7) الجاحظ:نفس المصدر، ص62.
(8) الجاحظ:نفس المصدر، ج2، ص33.

وُصِف الحسن بأنَّه من المُتصوفة السنيين[1]، كان يدعو إلى التغيير بإصلاح النفوس وبالتالي يرمي إلى إصلاح الفرد عن طريق مراقبة النفس قبل إصلاح الجماعة، فإذا تمَّ ذلك وهو أمرٌعسير، لأنَّ ذلك رياضة مُتجددة، تُوَّلد العزم، أي الإرادة الحقيقية المسيطرة ولكي تكون، ينبغي على الإنسان، أن يُصيب حقيقة الإيمان والطريق إليه هومراقبة النفس والتجاوُز عن عيوب نفوس الآخرين[2]، حتى كان له تأثيرعلى الحجَّاج، الذي كان يدعوالحسن بسيد البصرة وحاكمها الحقيقي[3].

ب- <u>دور القصّاصين والتوّابين:</u>

إشتهرت البصرة بالقصّاصين، الذين لهم دورالمعلم بالطريقة الروائية، أخذ الحسن عن بعضهم إذ قيل: أنّ أمّه كانت قاصّة[4]، كان لها عليه تأثير، قاده فيما بعد للإستفادة من أحد النُسّاك والزُهاد عامربن عبد قيس في البصرة، إعترف له الجاحظ بحقيقة الزهد وفضله "وكما أنك لوولَّدْت كلاما في الزهد و موعظة الناس، ثم قلت:"... عامر بن عبد قيس العنبري... لَتَضاعَفَ حُسنه و لَأَحْدَثَ له ذلك النسب نضارة و رفعة لم تكن له"[5].

ربَّما لأنَّها صادرة عن نيّة صادقة، إذ أُثرعنه "الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان، لم تُجـاوزالأذان"[6]، ذكـرَه عـدّة مـرات على قوائـم الزهّـاد و النسّاك[7]، يؤكد الجاحظ على أهم ميزة عند القاص للتأثير "من تمام آلة القصص، أنْ يكون القاص أعمى ويكون شيخا بعيد مدى الصوت"[8].

---

(1) عليٰ محمد الصلابي:الدولة الأموية، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، الفسطاط، الطبعة الأولى 1426هـ/2005م، ج2، ص297.
(2) علي سامي النشّار، المرجع السابق، ج3، ص1302.
(3) علي سامي النشّار:نفس المرجع، ص1298.
(4) علي سامي النشّار:نفس المرجع، ص1294.
(5) الجاحظ:البخلاء، ص11.
(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج4، ص96.
(7) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص161. الجاحظ:نفس المصدر، ج2، ص08.
(8) الجاحظ:نفس المصدر، ج1، ص58.

إشتهرت البصرة أيضا بشخصية القاص أبو الفضل بن عيسى الرقاشي، الذي كان يدعو في قصصه للإعتبار"سل الأرض، فقال:"من شقَّ أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك، فإن لم تُجبك صُوَّرًا، أجابتك إعتبارا"[1] .

ويضيف الجاحظ بوصفه "من أخطب الناس وكان متكلما، قاصًّا جيدا"[2]، فكان يفسر القرآن بالرأي، حتى قال له أحد:لولا أنّك تفسرالقرآن بالرأي لأتيناك، فردّ عليه:فهل تراني أحرم حلالا أو أحلل حراما؟ وإنّما كان يتلو الآية التي فيها ذكر الجنّة والناروالموت والحشر وأشباه ذلك[3] .

ويبدو أنَّ قصص هؤلاء لم تكن مقتصرة على المجال الديني، بل متفرقة، ذكر الجاحظ "كان عندنا بالبصرة، قاصًّا أعمى، ليس يحفظ من الدنيا، إلاَّ حديث جرجيس، فلمَّا بكى واحد من النظَّارة، قال القاص:"أنتم من أي شيئ تبكون، إنَّما البلاء علينا معاشر العلماء"[4]، دليل على تعظيم أمر ما يُقَدمون للناس و البُكاء هو تأكيد عن مدى صدق تعبيرهم القصصي.

وهذه من أبرز الطُرُق التعلمية، التي تجعل الفرد يبكي تأثُرا بما يسمع، يورد الجاحظ قاصًّا يدعى أبو علي الأسواري وهو عمرو بن فائد، قصَّ ستا وثلاثين سنة، فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة، فما ختَم حتى مات، لأنَّه كان حافظا للسِيَر ولوجوه التأويلات، فكان ربَّما فسَّرآية واحدة في عدَّة أسابيع، كأنَّ الآية، ذكر فيها يوم بدر وكان هو يحفظ ممَّا يُجَوزُ أن يلحق في ذلك الأحاديث و يقص في فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك[5].

ربّما لإبانة هؤلاء الحق من الباطل، كان بنو أمية لا يقبلون الرواية، إلاَّ أنَّ يكون راوية للمراثي، قيل:ولِمِ ذلك؟ قيل:لأنّها تدل على مكارم الأخلاق[6]، لذلك كان عامة قصَّاص البصرة، يجلس إليهم عامة الفقهاء[7].

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص207.
(2) نفسه.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص196.
(4) الجاحظ:نفس المصدر، ج4، ص84.
(5) الجاحظ:نفس المصدر، ج2، ص10.
(6) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص05.
(7) الجاحظ:نفس المصدر،ج1، ص206.

ذهبت فئة من الناس إلى تعذيب نفسها للتوبة من الخطأ، عن طريق صوم غيـر الفريضة، إذ ذكر أناسٌ رجلا بكثرة الصوم وطول الصلاة وشدّةِ الإجتهاد، فقال أعرابي كان شاهدا لكلامهم:بئس الرجل هذا، يظن أنّ الله لا يرحمه، حتى يُعـذِّبَ نفسه هـذا التعذيب"[1] أي سبقت رحمة الله عذابه، فالصوم لغيرالفريضة ليس واجبا وليس مُحتّمًا على الله، أن يفرض عليه العبد الإستجابة لدُعائه.

ذكــروا أنَّ رجـلاً صـام سبعين سنـة، ثـم دعـى الله بـحاجة، فلـم يُستجب لـه، فرجع لنفسه فقال:"منكَ أتيتُ"[2] وعلّق الجاحظ على ذلك "فكان إعترافه أفضل من صومه"[3]، أي يرجو الإنسان رحمة ربه في كل ما يعمل وما يرتضي.

والحقيقة أنّ الإفراط في الصوم دليل على تأثير الديانة اليهودية خاصة المقاربة واليُوذعانية[4]، إذ دخل أحد النسّاك على صاحب له وهو يكيد بنفسه، فقال له:طِبْ نفسًا، فإنَّك تلق ربًا رحيمًا، قال:أمَّا ذنوبي، فإنّي أرجو أن يغفرها الله لي، ليس إغتمامي إلاّ لمن أدَعُ بناتي، قال له صاحبه:"الذي ترجوه لمغفرة ذنوبك، فأرجِه لحفظِ بناتك"[5].

ت- <u>ممثلو الحُب الإلهي والبكّاؤون:</u>

الحُبُّ الإلهي قمّة عشق العبد المؤمن لربِّه، مثَّلِتْ مدرسته رابعة العدوية[6]، ذكرها الجاحظ ضمن قائمة النسّاك والزهّاد "ومن النساء، رابعة القيسية[7]، إختارت العزلة بنفسها لـعبـادة ربها وإصلاح سريــرتها، إذ قيل لها:هل عملت عمــلا قط ، تريْنَ أنّه يُـقبل منـك؟ قالت:"إنْ كان شيئ، فخوفي من أن يُردّ علَيَّ"[8].

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص07.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ص128.
(3) نفسه.
(4) اليوذعانية والمقاربـــة، نُسبوا إلى يوذعان، رجل من همذان، قيل: إسمه يهوذا، حثّ على الزهد، تكثير الصلاة، نهى عن اللحوم، كان يرى للتوراة ظاهرا وباطنا وتنزيلا وتأويلا، خالف بتأويلاته كافة اليهود في التشبيه، مال إلى القدر، أثبت الفعل حقيقة للعبد وقدرُ الثواب والعقاب عليه، شدّد في ذلك.
أنظر، الشهرستاني:الملل والنحل، ج2، ص240.
(5) الجاحظ:المصدرالسابق، ص117.
(6) رابعة العدويـــــة، البصرية الزاهدة العابدة الخاشعة، أم عمرو رابعة العدوية بنت إسماعيل، ولاؤها للعتكيبين، حمل الناس عن أمها الحكمة، عاشت ثمانين عاما، توفيت عام180هـ/796م.
أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج9، ص ص241، 242.
(7) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص161.
(8) الجاحظ:نفس المصدر، ص145.

ومن شدَّة ولهها بربِّها، ترفض الخـدَمَ لخـدمة بيتها، تفرُغًا منها لعبادتها وتعليم تلاميذها، ممَّن أرادوا التعرُف إلى الوالهة بحُبِّ ربِّها، ليزدادوا له عشقا، إذ قيل لها:لو كلَّمتِ رجال عشيرتك، فاشتروا لك خادَمًا، تكفيك مهنة بيتك، قالت:والله، إنّي لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسأل من لا يملكها؟"[1].

إتَّخذت هي الأخرى الصلاة النافلة تقرُبا إلى الله، كانت تُصلي الليل كلّه، فإذا طلع الفجر، هجعت هجعة حتى يُسفر الفجر وتقول:يا نفس كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟، يُوشك أن تنامي نومةً، لا تقومين منها إلاّ ليومِ النشور"[2].

وهكذا يتبين قيمة مُحاسبة النفس، للسُمُوِ بها عن الدنايا وأنَّ ذاك أسبق من أي عمل يباشره الفرد وهذا ماذهب إليه إبن سينا "نقيُ السريرة مستقيم السيرة، الذي لا يميل مع الهوى وينظرإلى الحق بعين الرضى والصدق"[3] ولنا عبرة، فيما قال إبن عبّاس رضي الله عنهما: "الهوى إله معبود"[4].

نبَّه الجاحظ إلى ضرورة الإهتمام بتعلم النحو والإعراب وأشار إلى تلك الأخطاء باللحن، إذ قيل: أنّ الموالي أول من أفسد النحوَ[5] وقيل: أنَّ الخليفة عمر بن عبد العزيز كان ينزعج لذلك، إذ كان عنده رجلان، فجعلا يُلحنان، فقال الحاجب:قُومَا، فقد أوذيتما أمير المؤمنين، قال عمر:أنت آذى لي منهما[6].

والظاهر أنّ تعلُم النحو والإعراب، كان بالنسبة لأهل الزُهد كالفريضة، إذ من آداب قراءة القرآن، يُستحب البُكاء والتباكي، لمن لا يقدر عليه والحُزن والخُشوع، قال تعالى: "وَيَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ"[7] وفي الصحيحين قراءة إبن مسعود على النبي صلى الله عليه وسلّم وفيه "فإذا عيناه تذرفان"[8].

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص115.
(2) الذهبي:سير أعلام النبلاء ، ج9، ص241.
(3) إبن سينا:الإشارات والتنبيهات ، ص52.
(4) الجاحظ:المصدرالسابق، ج1، ص160.
(5) الجاحظ:نفس المصدر، ج2، ص76. ذكر الجاحظ عدّة أمثلة في أبواب خاصة باللحن، والمقصود الأخطاء النحوية، أو إستعمال كلمات، لا تعبر عن المقصود، في الجملة الواحدة.
(6) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص195.
(7) سورة:الإسراء،الآية:رقم109.
(8) السيوطي(جلال الدين):الإتقان في علوم القرآن، خرج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، طبعة أولى1427هـ/2006م، ص291.

إشتهرت البصرة خاصة عند القصّاصين أو مُمثلي الحب الإلهي بالبكّائين، كونهم يشتركون كلُهم في قراءة القرآن، فقد أُثِر عن الخليفة عمر بن الخطاب قوله:"تعلّموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض"[1] وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد صلاة العشاء يجلس للبكاء حتى تغلبه عيناه[2].

2- خلفاء بني أمية والوُعّاظ الأوائل:

1 – الخليفة عبد الملك بن مروان ومعبد الجهني:

أورد الجاحظ إحدى خُطب الخليفة عبد الملك بن مروان[3]، تؤكد زُهده و دعوة الناس إلى محاسبة أنفسهم قبل فوات الأوان[4]، يتّفق محتواها مع دعوة الجاحظية، من أنّ الإنسان يملك إرادة التغيير لنفسه وهذا ما جعل البعض يذهب إلى القول: بأنَّ الله لا يخلق الشر[5]، بل الشر من الناس أنفسهم وبالتالي من حكّام بني أمية و تناسوا قول الرسول صلى الله عليه وسلّم:"إنَّ الله – عزّ وجل- لو عذَّب أهل السماء وأهل الأرض وهو غير ُظالم لهم و لو رحمهم، كانت رحمته إيَّاهم من أعمالهم و لو أنَّ لامرئ مثل أُحُدٍ ذهبًا، يُنفقه في سبيل الله – عزَّ و جلّ- حتى يُنفذه و لا يُؤمن بالقدَرِ خيره و شره دخل النار"[6].

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص141.

(2) إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص319.

(3) عبد المـــــلك، بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، أبو الوليد، ولد عام26هـ/647م، بويع من أبيه، في خلافة إبن الزبير، فلم تصح خلافته وبقي متغلبا على مصر والشام، ثم غلب على العراق، إلى أن قتل الزبيرعام73هـ/692م، فصحّت خلافته65هـ/685م، سمي بأبي الذباب، نتيجة لشدة بخره، أول من غدر في الإسلام وأول من نهى الكلام في حضرة الخلفاء وأول من نهى عن الأمر بالمعروف، قيل: لمّا أفضت إليه الخلافة، كان المصحف في حجره، فأطبقه قائلا:هذا آخر العهد بك، قيل:كان إذا قعد للحكم، قِيمَ على رأسه بالسيوف وقيل له:من أفضل الناس؟، قال:من تواضع عن رفعة وزَهد عن قدرة وأنصف عن قوة، مات عام86هـ/705م.
أنظر، إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص177وما بعدها.

(4) نص الرسالة كاملة:"إنَّ الله عزَّوجل، جعل لعباده عقولا، عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته، فالناس بين مُحسن بنعمة الله عليه ومسيئ بخذلان الله إيَّاه ولله النعمة على المحسن والحُجّة على المسيئ، فما أولى من تمَّت عليه النعمة في نفسه و رآى العبرة في غيره، بأن يضع الدنيا حيث وضعها الله، فيُعطى ما عليه ولا يتَكَثّرممَّا ليس له فيها، فإنَّ الدنيا دار فناء ولا سبيل إلى بقائها ولا بدّ من لقاء الله عزّ وجل، فأحذركم الله الذي حذّركم نفسه و أوصيكم بتعجيل ما أخَّرته العجزة، قبل أن تصيروا إلى الدار، التي صاروا إليها، فلا تقدروا فيها على توبة وليست لكم منها أوبة وأنا أستخلف الله عليكم وأستخلفه منكم".
أنظر، الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص23.

(5) إبن كثير:المصدرالسابق، ص106. محمد علي الصلابي:الدولة الأموية، ج2، ص214.

(6) الفرياني:كتاب القدر، ص101.

يشيد الجاحظ بمكانة معبد الجهني العلمية وخُلقه في باب المعلمين، ربّما إبرازًا منه لدوره في الوعظ والتأثير على الخليفة أيضا، إذ إرتفعت مكانته عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة[1].

كان معلمًا لأولاد الخليفة عبد الملك بن مروان، خاصة لإبنه سعيد[2]، ثم إنّ قاتله الحجّاج، كان جاهلا على ما يبدو، رغم حرصه على القرآن الكريم، إذ لعنه رجل من الخوارج، لمّا سأله عن رأيه في الخليفة عبد الملك، فردّ عليه:لعنه الله و لعنك معه، قال الحجّاج:إنَّك مقتول، فكيف تلق الله؟، ردّ:ألقى الله بعملي وتلقاه أنت بدمي[3].

2- الخليفة عمر بن عبد العزيز وغيلان الدمشقي:

عاصر الخليفة عمر بن عبد العزيز[4] الحسن الذي وليَ القضاء في عهده[5]، كانت بينهما مراسلات، حثَّه فيها على طلب الآخرة، دون إهمال أمورالدنيا "أمَّا بعد، فكأنَّك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل"[6] و ذكرَ مرّة بعضا من وُلاّة بني أميّة "إمتلأت الأرض والله جوْرا"[7].

كان حريصا على حفظ الأنفس، بعدم إراقة دماء المسلمين، حتى و إن إنتفضت جماعات منهم في خراسان أو غيرها، كتب إليه أحد وُلاَّتـه عليها "إنَّ أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم وإنَّه لا يُصلحهم إلاَّ السيف والسوط، فإن رآى أمــير المؤمنين، أن يــأذن لــي في ذلك فكتب له "أمّا بعد، فقد بلغني كتابك، تذكُر أنّ أهل خراسان، قد ساءت رعيتهم وأنَّه لا يصلحهم إلاَّ السيف والسوط، فقد كذبْتَ، بل يصلحهم العدل والحق، فأبْسِطْ ذلك والسلام"[8].

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص170.
(2) نفسه.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ج2، ص128.
(4) عمر بن عبد العزيز99هـ/718م-101هـ/720م، إبن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، من أئمة الإجتهاد، أمه أم عاصم بن عمر بن الخطاب، ولد عام63هـ/656م، ثقة مأمونا، له فقه وعلم وورع، روى حديثا كثيرا، عادل، كان يبكي لمجرد ذكرالموت، ظلَّ في المدينة حتى عام85هـ/704م، عام وفاة أبيه فاستدعاه عمه عبد الملك بن مروان وعيّنه واليا على دمشق وخلطه بأبنائه، زوّجه إبنته فاطمة، ثم واليا على خناصرة شمالي شرق الشام، ثم عينه ابن عمه الوليد بن عبد الملك واليا على المدينة87هـ/706م-93هـ/712م، فعمّها العدل والأمن، أشرك معه أهل العلم والفضل.
أنظر، إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص114وما بعدها. محمد قباني:الدولة الأموية من الميلاد إلى السقوط، دار وحي القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى1427هـ/2006م، ص56.
(5) إبن كثير:نفس المصدر، ج4، ص582.
(6) الجاحظ:المصدرالسابق، ج1، ص76.
(7) المبرد(أبوالعباس محمد بن يزيد):الكامل، عرضه وعلق عليه محمد أبو الفضل السيد شحاته، دارنهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ج2، ص109.
(8) السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص194.

يعْتِبر الخليفة عمر أنَّ أكثرَ سقطات الإنسان من فلَتاتِ لسانه، فكان يتعوذ منه"اللهم إنّي أعوذ بك من شرِّ لساني" و يأمر كُتّابه بكتابة هذا الدعاء في رسائله[1]، كان كثير الجلوس للعلماء خاصة الزُهري[2]، الذي كان يقول: بأنَّ الزهد ليس بشَعْثِ اللمّة ولا قشفِ الهيئة و لكنَّه ظلْفَ(منع) النفس عن الشهوة[3] وهو ألاّ يغلب الحرام صبرك ولا الحلال شكرك[4].

ورغم ما ذهب إليه محمد عبد المنعم خفاجي، إلى أنّ الجاحظ يستهزأ من الخليفة عمر بن عبد العزيز و يُكَفِرُه[5]، إلاّ أنّي لا أرى ذلك، بل يُقرُ أنّه من المؤمنين بالقدَرِ خيره وشره من الله، مستشهدًا بأنَّه حين دفن إبنـه عبد الملك و لمَّا سوَّى قبره بالأرض...قال:"رحمك الله يابني، فلقد كنتَ بارًّا بأبيك ومازلت، مُذْ وهبك الله لي، بك مسرورا ولا والله، ما كنت قط أشدُّ بك سرورا ولا أرْجى لِحظِي من الله فيك مني، مذ وضعتك في هذا الموضع، الذي صيَّرك الله إليه، فغفرالله ذنبك و جزاك بأحسن عملك و تجاوز عن سيئتك ورحم الله كل شافع، يشفع لك بخير، من شاهد أوغائب، رضينا بقدر الله و سلَّمنا لأمره، فالحمد لله رب العالمين، ثم إنصرف"[6].

يبدو من الكلام السابق، أنَّ الخليفة عمرعلى مذهب أهل السنَّة في الإيمان بالقدر، طبقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلّم:"تعلّم، أنَّ ما أصابك ما كان ليخطئك وما أخطأك ليصيبك"[7] ويروي مالك بن أنس[8] عن حديث لعمّه، قال:كُنت أسيرُ مع عمر، فاستشارني في القدَريةِ؟.

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص20.

(2) الزهري، الإمام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله الأصغر بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي الزهري القرشي المدني، يكني بأبي بكر، يعرف بالزهري، ولـد في المدينة عام51هـ/671م أحد التابعين، حفظ القرآن في80يوما، ذكي، له رغبة ملحة في طلب العلم، قالت له زوجته:"والله لهذه الكتب، أشد علي من ثلاث ضرائر"شديد الإحترام لشيوخه، رحل لطلب علوم عصره، محدث موثوق، قال فيه الإمام مالك:ما أدركت بالمدينة فقيها، محدثا غيرواحد، إبن شهاب الزهري، قيل له:زعموا أنَّك لا تُحدث عن الموالي؟، فقال:إنّي لأتحدث عنهم ولكن إذا وجدت أبناء المهاجرين والأنصار، أتكئُ عليهم، فما أصنع بغيرهم.
أنظر، إبن سعد:الطبقات الكبرى، دارصادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان1376هـ/1957م، ج2، ص388. علي محمد الصلاّبي:الدولة الأموية، ج2، ص444،

(3) الجاحظ:المصدرالسابق، ج2، ص145.

(4) نفسه.

(5) محمد عبد المنعم خفاجي:أبوعثمان الجاحظ، ص126.

(6) الجاحظ:المصدرالسابق، ص21.

(7) الفرياني:كتاب القدر، ص90.

(8) مالك بن أنس، أبوعبد الله مالك بن أنس، إمام دارالهجرة، سيد الحجاز، عربي من سُلالة أقيال حمير، ولد بالمدينة عام95هـ/714م، نشأ بها، أدرك خيار التابعين من الفقهاء والتابعين، فقيل:"لا يُفتى ومالك بالمدينة"، رحل مع الرشيد إلى الحجاز، ليسمع مُوطأه، كان فقيرا و تحسَن حاله، لمّا كثُرت عليه منح الخلفاء، توفي عام179هـ/795م.
أنظر، السيد أحمد الهاشمي:المرجع السابق، ج2، ص ص164،165.

فقلت أرى أن تستتيبهم، فإن تابوا و إلاّ عرضتهم على السيف، فقال:أمَّا عن ذاك رأيي و قال مالك:و ذاك رأيي[1] وهو ما يتوافق مع ما ذكره محمد بن سيرين[2] "ما يُنكر القدَرية، أن يكون الله، قد علم من خلقه عِلمًا، فكتبه عليهم"[3].

كان الخليفة عمر يتوخى في القدر، ما ذهب إليه الأوائل من صحابة و تابعين ومعهم الحسن البصري ورغم ذلك، يُــورد الجاحظ خبرا عن غيلان الدمشقي[4] وهو أحد رواد مذهب القدرية، أي المنادين بأنّ الإنسان مالك لقدره.

فقد وَصف كلام المُتكلم شبيب بن شيبة[5] أيام الخليفة المهدي، بقوله:"ما أحسن ما تكلّم به، على أنّه أخذَ مواعظ الحسن ورسائل غيلان، فلقح بينهما كلاما"[6]، ما يؤكد به أنّ رجال القدرية الأوائل، كانوا وُعّاظا وأنّ لغيــلان مدرسة وعــظٍ، إمتدادها لمدرسة الحســن البصري كان شبيب بن شيبة، أبرز تلاميذها.

---

(1) الفرياني:كتاب القدر، ص134.

(2) محمد بن سيرين، أبو بكر بن أبي عمرة الأنصاري، مولى أنس بن مالك النضري، أبوه من سبي عين التمر، أسره خالد بن الوليد، إشتراه أنس بن مالك، ثم كاتبه، ولد لعامين بقين من خلافة عثمان، كان صادقا، مأمونا، عالما، فقيها، إماما، مات عام110هـ/728م.
أنظر:إبن كثير:المصدر السابق، ص350.

(3) إبن عبد ربه:العقد الفريد، ج2، ص378. حول موضوع القدر، قال رجل لعلي كرّم الله وجهه:ما تقول في القدر؟ قال:ويحك، أخبرني عن رحمة الله، أكانت قبل طاعة العباد؟، قال:نعم، قال علي:أسلم صاحبُكم و كان كافرا؟، فقال له الرجل:أليس بالمشيئة الأولى التي أنشأني بها و قوَّمَ خلقي، أقوم و أقعد و أقبض و أبسط، قال له علي:إنَّك بعدُ في المشيئة أما إني أسألك عن ثلاث، فإن قلتَ في واحدة منهن لا، كفرت وإن قلت نعم، فأنت أنت، فمدَّ القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول، فقال له علي:أخبرني عنك، أخلقكَ الله كما شئت أو كما شاء؟، قال:بل كما شاء، قال:فخلقك الله كما شئت أو لِمَا شاء؟، قال:بل بما شاء، قال:فيوم القيامة، تأتيه بما شئت أو بما شاء؟، قال:بل بما شاء، قال:قُم، فلا مشيئة لك[5].
أنظر، إبن عبد ربه:المصدر السابق، ص379.

(4) غيلان الدمشقي، إبن مُسلم الدمشقي، الشخصية القدرية الثالثة والمثل الأعلى للدفاع عن عقيدته والثبات عليها في وجه بني أمية، أُختلف في إسمه، بعضهم قال:غيلان بن مسلم القبطي والآخر، قال:هو نبطي، غيلان بن يونس وقيل: إبن مسلم أبو مروان، مولى عثمان، درس في المدينة على الحسن بن الحنفية، الذي كان يعتنق الإرجاء، إشتهر بفصاحته وبلاغته، قال فيه إبن الحنفية :"هوحُجّة الله على أهل الشام و لكن الفتى مقتول"، عاد إلى دمشق وسكنها بشرقها، تردد على المدينة، أثّر في عُلمائها و تأثر بمعبد الجُهني وهناك من يجعله من مدرسة الحسن، كان داعية لمذهبه في علانية.
أنظر، إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص25وما بعدها. علي سامي النشّار:نشأة الفكر الفلسفي، ج1، ص ص365.

(5) شبيب بن شيبة، شبيب بن عبد الله المنقري التميمي، خطيب البصرة، نشأ بها، إمتاز بخطبه القصار، عرف أبوجعفر المنصور قبل خلافته، ثم بعدها، فجعله في حاشية ولي عهده المهدي، بقي كذلك إلى أن مات عام170هـ/787م.
أنظر،السيد أحمد الهاشمي:جواهر الأدب، ج2، ص ص146،147.

(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص198.

يظهر أنّ الجاحظ، أراد التنبيه إلى زهد غيلان الدمشقي المشابه لزهد الحسن، حتى تشابها في المواعظ و أنّهما من منبع واحد، هو مدرسة المدينة المنورة، إلاّ أنّ غيلان من دعاة القدرية، إذ أظهر مقولته أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي كان له على ما يبدو مناقشات متعددة وسأله في إحداها عن طريقة معاملة أهل القدر، لمّا كثُرت أسئلة الناس حوله، فأجابه بقوله:"من لم يؤمن بالقدر، فقد كفرو من حمل ذنبه على الله، فقد فجر[1]، رغم أنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم نهى عن مجالسة أهل القدر"لا تجالسوا أهل القدر ولا تناكحوهم"[2].

قال عبد الله بن مسعود[3]رضي الله عنه:"ما كان كُفرٌ بعد نُبوة إلاّ كان معه التكذيب بالقدر"[4]، ربّما حاول الخليفة عمر إستتابته ممّا قال، لذا جالسه، حتى ينهي فتنة، ستحل بالأمّة وذلك فيما يشبه المناظرة القائمة على الحُجّة، قال له عمر:يا غيلان، إنّـك تكلم الناس في القدر، فردّ بأنّ الناس يكذبون عليه ولمّا ذكّره بسورة يس العشر الآيات الأولى، قال غيلان: يا أمير المؤمنين والله لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم، أُشهدك يا أمير المؤمنين، أنّي تائب ممّا كنتُ أقول في القدر، فقال عمر:اللهم، إن كان صادقا، فثبته وإن كان كاذبا، فاجعله آية للمؤمنين"[5] وقيل: دعى له بقوله:"اللهم إن كان صادقا وإلاّ، فاصلبه وإقطع يديه ورجليه"[6].

يتبين أنّ غيلان كان كذوبا، مرتابًا ولو كان الحق معه، لما إستتاب، ثـم إنّ الخليفة عمـر كان عادلا إلى حدٍ ما، كونه حادثـه على المبـاشر ولـو لـم يفـعل، لأكّد عقيـدتـه الـتي كـانـت في أولها، تبحث عن سندٍ شعبي لها، فلا عصبية لها لأنّها من أحد الموالي.

ثم كيف تكون لهذا القدَري مواعظ، تكافئ مواعظ الحسن؟ ما يدفعني إلى القول، أنّ الجاحظ قد تحيز له، ليؤكد أنّ رجال القـدرية الأوائل، كانوا وُعّـاظا وأنّ لغيـلان مدرسة وعظ إمتدادها لمدرسة الحسن البصري، كان شبيب بن شيبة، أبرز تلاميذها.

---

(1) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص121.

(2) الفرياني:كتاب القدر، ص121.

(3) عبد الله بن مسعود، أحد القرّاء، قال:"أخذت من الرسول صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين حديثا"، قال عنه عمر بن الخطاب:"هذا الكُنيف، مُلئ فقها"،عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فارس بن مخزوم بن مدركة بن إيّاس بن مضر بن نزار، الإمام الحبر، فقيه الأمّة، شهيد بدر، حدّث عنه أبو موسى الأشعري، أبو هريرة، إبن عباس، إبن عمر، من الأذكياء، أمه أم عبد بنت عبد ود، من بني زهرة، أسلم عبد ود قبل دخول النبي دارالأرقم، أسلم بعد22نفسا أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي، أول من قرأ آية عن ظهر قلبه، كان يُلبس الرسول نعليه، ثم يمشي أمامه بالعصا، حتى إذا أتى مجلسه، نزع نعليه، فأدخلهما في ذراعه وأعطاه العصا، يدخل الحجرة أمامه بالعصا، قال الرسول صلى الله عليه وسلم:لو كنت مُؤَمرا أحدا من غير مشورة، لأمَّرْت عليهم إبن أم عبد، مات بالمدينة عام32هـ/653م، دفن بالبقيع، عاش أكثر من60عاما، قيل:مات عام 33هـ/654م،"من سرَّه أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل، فليقرأه قراءة إبن أم عبد". أنظر، إبن سعد:الطبقات الكبرى، ص342ومابعدها، الذهبي: سير النبلاء، ج1، ص461 وما بعدها.

(4) الفرياني:المصدر السابق، ص125.

(5) الفرياني:نفس المصدر، ص137وما بعدها.

(6) السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص195.

حاول غيلان دعوة الخليفة عمر لإعتناق دعوته القدرية، بما جاء في الكتاب الذي أرسله له قبل أن يستتيبه، منبِّها إيّاه إلى مستوى فساد المجتمع الإسلامي الذي هو أمير عليه، جاء فيه "أبصرتَ يا عمر وما كدت ونظرت وما كدت...هل وجدت رشيدا يدعو إلى الهدى، ثم يضل عنه؟ أم هل وجدت رحيما، يُكلف العباد فوق الطاقة أو يعذبهم على الطاعة؟[1] أم هل وجدت عدلا، يحمـــل الناس على الظلـم والتظالم؟ وهل وجدت صادقا، يحــمل الناس على الكـذب و التكاذب يتهمك؟[2].

يتبين مدى حرص أهل القدرية على إستمالة الخليفة عمر لهم، كونه عادلا[3] وشاهدا على مظالم من سبقه من حكّام بني أمية، الذين كانوا يدّعون أنّهم حماة العدل الإلهي، فأنشأ ديوان المظالم من جهة ولأنّه إماما عادلا وهم ينادون بالعدل من جهة أخرى.

ثم إنّ سعيهم في الإنتساب لمدرسة الحسن البصري والزُهد على الخصوص، كان يدفعهم إلى التقرب من كل من يثق فيهم، نظرا لما للحسن من كلمة مسموعة بين الناس، إذ شهد رجل من أهل المسجد على ذلك بقوله:"ما كُنت أريد أن أجلس إلى قوم، إلاّ وفيهم من يُحَدث عن الحسن ويُنشد للفرزدق[4]"[5].

كما يتبين مدى إستغلالهم لجوْر حُكام بني أمية وغياب العدل في دولتهم، لجذب المعارضين لهم إلى القدرية، الداعية إلى العدل وهم بذلك يجذبون إليهم فرقة الخوارج، التي طالما تحدّث خطباؤها عن ظُلم بني أمية في خُطبهم "وأمّا بنوأمية، ففرقة الضلالة، بطشهم بطش جبرية، يأخذون الناس بالظنّة ويقضون بالهوى ويقتلون على الغضب ويحكمون بالشفاعة و يأخذون الفريضة من غير موضعها و يضعونها في غير أهلها..."[6].

---

(1) الطاعة، الخضوع لمن بيده الأمر، قيل:موافقة الأمر طوعا، الطاعة ضربان، طاعة العبد، هي مصحوبة بالتذلل والإنقياد لصاحب السلطة المطلقة. طاعة الحر، لا تكون إلاّ عن رضى واختيار وطمأنينة، الطاعة عند المعتزلة موافقة الإرادة.
أنظر، جميل صليبل:المعجم الفلسفي، ص08.

(2) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص26. أنظر نص الرسالة كاملة بالملحق رقم1، ص160.

(3) العادل، عدل في أمره عدلا، أي إستقام وعدَل في حكمه، حكم بالعدل وعدل السيئ، قوَّمه وعدل فلانا بفلان، سوَّى بينهما فالعادل هو المستقيم، الذي يسوي بين الناس و يحترم حقوقهم، لا يخضع لميل أو هوى، لا يُجَوز في حكمه على أحد.
أنظر، جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص42.

(4) الفرزدق، أبو فراس همام بن غالب التميمي الدارامي، شاعر أموي، مقدم في المدح والفخروالهجاء، ولد عام19هـ/640م نشأ بين البادية والبصرة، أتى به أبوه إلى أميرالمؤمنين علي، فسأله، فقال:هذا إبني، يوشك أن يكون شاعرا مجيدا، فقال له:أقرئه القرآن، فأقرأه القرآن وحفظه، رحل إلى خلفاء بني أمية ومدحهم ونال جوائزهم وأخص خاصة الخليفة عبد الملك، ثم أولاده، هاجيا فاحشا، قاذفا للمحصنات وقلّة التمسك بالدين، تاب في أواخر شيخوخته على يد الحسن، كاشف هشام بن عبد الملك بتشيُعه، حبسه، ثم أطلقه، عاش ما يقارب المائة عام، مات بالبصرة عام114هـ/732م.
أنظر، السيد أحمد الهاشمي:جواهرالأدب العربي، ج2، ص136،137.

(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص182.

(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص111.

كشف غيلان أسرارهذا الإتجاه الجديد، فيما يُقدمون عليه من أعمال وأنّهم يكتسبون الناس بالغرر بهم، ممّا يؤكد خطورة القدرية على مستقبل الفرد والأمّة ككل، إنّ برنامجهم هذا يُفسد سريرة الفرد المسلم ولا يُكونُ الأجيال التي تمنّاها الحسن البصري أن تكون من خلال مواعظه الزُهدية .

ولا دليل أكثرممّا قاله غيلان نفسه، لمّا دعاه الخليفة عمر لإعانته على الخير، أي صدّقه في أمر مظالم بني أمية، قال له عمر:أعِنّي على ما أنا فيه، فقال غيلان:"ولِنِي بيع الخزائن وردِّ المظالم"[1]، فولاّه، فكان يبيعــها وينادي عليها ويقول:"تعــالوا إلى متاع الخَوَنَة تعالوا إلى متاع الظَلمةِ، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمية بغير سُنّته وسيرته"[2].

ربّما ذاك الذي دفع الجاحظ إلى إلتماس عُذر لتصرف غيلان، بإقراره "أنّ الله لم يخلُقْ مذاقًا أحلى من العدل ولا أرْوَحَ على القلوب من الإنصاف ولا أمَرَ من الظلم ولا أبْشَعَ من الجَوْرِ"[3] ولِمَ لا يشعر بالمرارة وقد كان فيما نادى عليه جوارب خُزٍّ، فبلغ ثمنها ثلاثين ألف درهم وقد إئتكل بعضها، فقال غيلان:"من يعذرني ممّن يزعم أنَّ هؤلاء كانوا أئمة هدى وهذا يأتكل والناس يموتون من الجوع"[4].

يبدو مدى حنكة الخليفة عمر في إنهاء فتنة كانت ستبدأ، لو لم يُعين غيلان على المنصب الذي أراده، فمنَحه فرصة لإدراك حقيقة برنامجه، الذي لم يكن يستند إلى عقل وإن بدا به فعلا واعظا، فكشْفُ سيرة حُكّام بني أمية علنا، يُظهر أنّ هناك غلاً شخصيا يحمله هذا الرجل لبعضهم خاصة للحجّاج، الذي قتل معبد الجهني بعد أن عاقبه، لخروجه مع إبن الأشعث[5] وقيل: صلبه في عام80هـ/699م بدمشق[6] وفيه من الخطورة ما قد يقتل مذهبه، إذ لم يكن كل حُكّام بني أمية جائرين والأكثر كيف يدين حكّاما لهم عصبيتهم؟.

---

(1) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص26.

(2) نفسه.

(3) الجاحظ:مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق وتعليق الدكتور محمود طه الحاجري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،1982م، ص213.

(4) إبن المرتضى:المصدر السابق، ص26.

(5) إبن الأشعث، أميرسجستان، عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن الكندي، بعثه الحجّاج عليها، فثارهناك وقام معه العلماء والصلحاء لله تعالى، لِمَا إنتهك الحجّاج، من أماتة وقت الصلاة و لجوره، فقاتله الحجّاج، مات بالسُل. أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج4، ص183.

(6) إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص161.

إنّ إصلاح الوضع يتطلب الإتيان بوضع عملي أفضل منه و يبين غيلان الدمشقي أنّ القــدرمن الله الــذي برَّربه حكامهــم مظالمهم، مُجرد حُجَّة واهية والحق هــو مذهبه القدري القائل بأنّ الإنسان يملك قدره ويُعبــرعنه بإرادته وبالتالي هــذه البضائع المحتكرة حتى فسادها، دليل على سوء أفعال العباد وليس أفعال الله.

وإن إرتبطت شخصيا بالحجّاج، فكان ينفيــها عن نفســه وينسبها إلى الخليفــة عبد الملك، بقوله له:"يدي يدك وسوطي سوطك"[1] رغم نصحه، ما يؤكد أنّ المشكلة في طباع الحجّاج رغم حفظه للقرآن ورغم ذلك كان يتشبه بزياد بن أبيه[2].

تظهر معاملة الخليفة عمر لغيلان، أشبه ما تكون بمُعاملة مرتد عن الإسلام وقيل: أنّ الصحابة المتأخرين كمالك بن أنس، قد تبرؤوا من غيلان الدمشقي وأصحابه[3]، رغم أخذه عن إبن الحنفية [4] ولم تكن مخالفته له إلاّ في شيئ من الإرجاء[5] .

جَاهرَ بأنّ الإيمان لا ينقص ولا يزيد ولا يتفاضل الناس فيه، أي أثبت بدعوته الإرجاء وذهب إلى أنّ المعرفة الأولى إضطرار وليس بإيمان، أي الإيمان بالله هو المعرفة الثانية بالله تعالى والمحبّة والخضوع والإقرار بما جاء به الرسول وبما أرسله الله[6].

وصدقت مقولة الرسول صلى الله عليه وسلم، في ما حدث لغيلان"...إنّ عامّة من هلك من بني إسرائيل بالتكذيب بالقدر"[7] وكان الخليفة عمر يردد دائما في الذين يقولون لا قدر"أرى أن يُستتابوا وإلاّ ضُربت أعناقهم"[8].

(1) إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص241.
(2) زياد بن أبيه، زياد بن عبيد الثقفي بن سُمية بن أبي سفيان، أمه مولاة للحارث بن كلدة الثقفي، طبيب العرب، يُكنى أبا المغيرة، ولد عام الهجرة، أسلم زمن الصديق، ثم كان كاتبا لأبي موسى الأشعري، زمن إمرته على البصرة، سمع عن عمر وغيره، روى عـن ابن سيرين، كان من نبـــلاء الرجال، رأيا، عقـــلا، حزما، دهـــاء، يُضرب به المثل في النُبــل، السُؤدد، شغل منصب نائب علي بن أبي طالب على إقليم فارس، أصابه طاعون عام53هـ/673م، أماته. أنظر،الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج3، ص494وما بعدها.
(3) البغدادي:الفرق بين الفرق، ص19.
(4) إبن الحنفــــية، الإمام أبو القاسم، أبو عبد الله محمد بن الإمام علي بن أبي طالب بن عباس بن عبد المطلب، ولد عام وفاة أبي بكرالصديق، روى عن أبي هريرة وعثمان، تزعُــم شيعته أنّه لم يــمت، كان ورعا، كثيرالعــلم، عليه عمامة سوداء، مات وهو في الخامسة والستين عام83هـ/702م.
أنظر، الذهبي:المصدرالسابق، ج4، ص110وما بعدها.
(5) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص25.
(6) عبد الرحمن بدوي:مذاهب الإسلاميين، دارالعلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، جانفي1979م، ج1، ص111.
(7) الفرياني:كتاب القدر، ص119.
(8) الفرياني:نفس المصدر، ص135.

3- الخليفة هشام بن عبد الملك وغيلان الدمشقي:

يـروي إبن المرتضى تفاصيل ما حـدث لغيلان وصاحبه[1]، أنّه لمّا كان يُشنع ببني أمية، مرّ به هشام قائلا:هذا الذي يعيبني و يعيب آبــائي والله إن ظفــرتُ به، لأقطعــن يديــه ورجليه، فلمّا وليَّ، فعل ما توَّعَد به و أُثِر عن غيلان قوله قبل قتله:قاتلهم الله، كم من حق أماتوه وكم من باطل، قد أحيوه وكم من ذليل في دين الله أعزوه و كم من عزيز في دين الله أذّلوه، فقيل لهشام:قطعْتَ يدي غيلان ورجليه و أطلَقْتَ لسانه، إنّه قد بكّى الناس ونبّههم على ما كانوا عنه غافلين، فأرسل إليه من قطع لسانه[2].

يبدو مغالاة إبن المرتضى في الخبر، ربّما لغرض في نفسه إزاء ملك بني أمية، لأنّه شيعي، في حين يذهب الكثير إلى ذكررواية أخرى، مفادها أنّ غيلان لمّا أُحضر بين يدي الخليفة هشام بن عبد الملك، قال له:ويحك، قل ما عندك، إن كان حقا إتّبعناه وإن كان باطلا رجعت عنه، فحدث ما يشبه المناظرة ...إنتهت إلى تقييد الخليفة هشام له وقتله[3]، ربّما تكون هذه الرواية أقرب إلى الواقع أفضل من سابقتها.

قيل:أنّ الخليفة هشام بن عبد الملك الذي كان في نظر الناس جبانا وبخيلا قبل خلافته ولمّا سئل عن طمعه في الخلافة وهو بهاتين الصفتين قال:لأنّي حليم وعفيف[4] وفي ذلك تنبيه إلى تعالي حكّام بني أمية بأنفسهم عن الدنايا، كونهم ممثلي العدل الإلهي.

ذكره الجاحظ لتأكيد دافع قتله لغيلان، بأنّ طمعه في المال وخوفه على المُلك وليس خوفا على هيبة الدين، لأنّه إتهم زيد بن علي بن الحسين، بأنّه يريد السلطة بقوله:يا زيد، بلغني أنّك تريد الخلافة ولا تصلح لها، لأنّك إبن أمة، قال زيد:فقد كان إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليه وسلمّ إبن أمة وإسحاق عليه وسلم، فعندها قال هشام:إذن لا تراني إلاّ حيث تكره[5].

(1) أنظر، نص رسالة ماجرى بين الخليفة هشام بن عبد الملك وغيلان من حوار في الملحق رقم2، ص160 .
(2) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص ص26،27.
(3) إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص385.
(4) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص140.
(5) الجاحظ:نفس المصدر، ص208.

وهذا يؤكد أنّ الخليفة هشام كان يريد الحكم فقط، بدليل ما فعله بغيلان، ربّما إبعادا منه لمنافس على السلطة والدليل ما توَعد به زيد، حتى قال زيد:ما أحبّ أحد الحياة قط إلاّ ذلّ، حتى نبّهه مولى هشام إلى ضرورة السكوت، بقوله:"لا يسمعن هذا الكلام منك أحد"[1]، خاصة وأنّ الزيدية ساقت الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها ولم تُجَوزْ ثبوتها في غيرهم[2] .

وأرى في هذا دليلا على أنّ الخليفة هشام لم يقتل غيلان على قدريته، بل على تخوفه من أن يقف إلى جانبه زيد، فيسلب المُلك من بني أمية وبالتالي يفسد عليه حكمه ويؤلب عليه الرعية والأكثر قد يشكل تحالفا مع المعارضة القائمة ضده خاصة من الشيعة.

لذلك أورد الجاحظ خبر زيد، لتبين حقيقة الوضع وقد إحتمى أمام الناس، بأنّه قتل مبتدعا في الدين وبالتالي يكون فعله هذا مبررا خاصة وأنّ حكام بني أمية نصَّبوا أنفسهم حماة لحرمة الدين الإسلامي وأكّد مسعاه بإصدار أمره هذا بقتل الجعد بن درهم يوم عيد الأضحى، مبتدع فكرة خلق القرآن والقائل:بأنّ الله ما كلّم موسى ولا إتّخذ إبراهيم خليلا[3].

يتبين مدى تمسك دعاة القدرية الأوائل بعقيدتهم من ناحية، حتى أنّهم يموتون كالأبطال أمام الناس، تبيانا لظلم حُكّام بني أمية أكثر وعدم عدلهم وتأكيد أنّ القدرية صنعتها سياسة هؤلاء الحكّام، بما فيها الإقتصادية.

فمدرسة الحسن لو لم تكن سياسة بني أمية هذه، لتطورت ربّما إلى غيرهذا السبيل ومن ناحية أخرى قوّت التيارالقدري أكثر، إذ أكّد مقتل غيلان الشنيع هذا، أنّ هناك عقيدة يجب أن يُضحى لها بالنفس، كما أكّدت لجماعة القدريين ضرورة إلتزام التقية والسرية وإمعان العقل في الفكروفيما يُقدمون عليه من أفعال.

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص208.
(2) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص153.
(3) إبن الأثير:الكامل في التاريخ، ج4، ص255.

بدا لي أنّ ما قام به غيلان من تصرفات، يؤكد غياب التفكيرعند زعيم القدرية وعدم الحرص والتسرع ونوع من السذاجة، لإيصال عقيدتهم إلى الأهداف المرجوة و ربّما ذاك الذي أشارإليه الجاحظ " لكل زمان ضرب من المصلحة ونوع من المحنة وشكلٌ من العبادة"[1] ورغم كل ما حدث لغيلان، رتبه إبن المرتضى في طبقة الإعتزال الرابعة ووصفه بواحد دهره في العلم والزهد والدعاء إلى الله وتوحيده وعدله[2].

3 - المرحلة العقلية للمعتزلة:

إنّ التحدث عن القدر جلب المهالك لفئة القدرية، خاصة وأنّهم في مجتمع عربي إسلامي يعرف مآل من يتحدث عن القدر وإن كسبوا شعبية لهم، فذلك لا يمثل إستقرارا لعقيدتهم خاصة وأنّ الآيات القرآنية، فيها ما يدعو إلى أنّ القدر من الله وفيها ما يؤكد أنّ القدر بيد الإنسان وفيها ما يجمع بينهما[3].

وبالتالي فالتحدث عن هذا الأمر سيجلب المشاكل، خاصة وأنّ المشكل ساعتها كان كيفية تحقيق العدل الغائب في عهد حكم بني أمية، ثم إنّ إتساع مساحة الدولة الإسلامية وتوافد أفراد جدد إلى مجتمعها، إستلزم ضرورة البحث عن الدليل العقلي من الدين، لإقناعهم به.

لذلك تطورت القدرية إلى معتزلة دليلا على عـدم يأس الموالي من فشل خطوتهم الأولى، فميّزها نوع من التنظيم و ظهر لها متكلمون، يدافعون عنها، بدءً من إعتزالهم حلقة الحسن البصري في مسألة تسمية والحكم على صاحب الكبيرة بين الإيمان والكفر، لتظهر تسمية الفاسق والمنزلة بين المنزلتين ويُعدّ واصل بن عطاء و عمرو بن عبيد من رؤوس هذا الإتجاه الكلامي العقلي.

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص08.
(2) إبن المرتضى:المصدرالسابق، ص25. كتاب البيان والتبيين، لم يذكر فيه الجاحظ أي خبرعن رجل من أهل العراق، يقال له: سوسن، كان نصرانيا، ثم تنصر، كما يشرحه كتاب القدر وغيره من الكتب المهتمة بأصول المعتزلة، ممّا يؤكد لي أنّ موضوع الكتاب، هو تبيان الأصول الأولى للجاحظية وليس للمعتزلة عموما.
(3) قال الله تعالى"وَقُلْ الحَقُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ"سورة الكهف،الآية رقم29."كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتَ" سورة المدثر،الآية رقم38."خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ" سورة البقرة،الآية رقم07."فَيُضِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءْ" سورة إبراهيم،الآية رقم04.

أ- واصــل بن عطـــــــاء:

1- سيرتــــــه:

هو أبو حذيفة واصل بن عطاء، المعروف بالغزّال، مولى بني ضبَّة[1] وقيل:مولى بني مخزوم[2]أحد الأئمة البلغاء المتكلمين في علم الكلام وغيرها[3]، ولد عام80هـ/699م وتوفي عام121هـ/739م، من أهل المدينة[4].

ذكرالجاحظ سبب كنيته بالغزّال، كونه يُكثر الجلوس في سوق الغزَّالين، إلى أبي عبد الله مولى قطن الهلالي وإحتجّ على تسميته بالغزّال، بقوله:قد كتبنا إحتجاج من زعم أنّ واصل بن عطاء كان غزّالا وإحتجاج من دفع ذلك عنه ويزعم هؤلاء أنّ قول الناس واصل الغزّال كما يقولون خالد الحذّاء، إنّما قيل ذلك:لأنّه يُكثر الجلوس في سوق الغزّالين[5].

يبدو أنّ الجاحظ، إعتبر حرفة غزّال لواصل إنقاصًا من شأنه، ربّما لأنّ أصحاب هذه الحرفة عدّهم الناس وقتها من الحمقى، كما أورده الجاحظ، الذي أكّد الحُمْق في الذي يتكلم صاحبه بالصواب الجيد، ثم يجيئ بخطإٍ فاحشٍ[6]، فكيف إذن يقال عنه أحمقا؟.

وربّما كان واصل هو الآخر يعُولُ نفسه من أعطيات الحُكّام، إلاّ أنّه بعيد كل البعد عن القصر، إلاّ إذا أخذنا بعين الإعتبار، ما قاله إبن كثير:أنّ الخليفة عمر بن عبد العزيز كان يعطي كل من إنقطع إلى المسجد من بلده أوغيرها للفقه[7] ونشرالعلم وتلاوة القرآن في كل عام من بيت مال المسلمين مائة دينار وكان يكتب إلى عماله، أن يأخذوا الناس بالسُنّة وإن لم تصلحهم السنّة، فلا أصلحهم الله[8].

---

(1) بنو ضبّة، أنظر القبائل النزارية بالملحق رقم11، ص166.
(2) بنو مخزوم، أنظر قبيلة قريش بالملحق رقم12 ، ص167.
(3) الكتبي:فوات الوفيات، ج2، ص624.
(4) إبن النديم:الفهرست، ص203.
(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص ص27،28.
(6) الجاحظ:نفس المصدر، ص169.
(7) الفقـــــه، معرفة أحكام الله في أفعال المكلفين بالوجود، الحذر، الندب، الكراهة، الإباحة، هي متلقاة من الكتاب والسنّة وما نصّبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا أستخرجت من تلك الأدلة، قيل لها:فقه، كان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على إختلاف فيما بينهم.
أنظر، إبن خلدون:المقدمة، ص445.
(8) إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص321.

كما يبدو للموالي شرف حمل علم الكلام على عاتقهم في بدايات تأسيسه، فهو أحد تلاميذ الحسن، قرأ عليه العلوم والأخبار في أيام عبد الملك وهشام بن عبد الملك[1]، خريج مدرسته الزهدية، بدليل تشابه أقواله مع مواعظه "المؤمن إذا جاع صبر وإذا شبع شكر"[2].

ومن دلائل عفّته وتطهيرا لأمواله، كان يجازي النساء المتعففات بدفع الصدقة لهن، ربّما تنبيها من الجاحظ إلى عدم بُخل واصل الذي مُدِح بذلك[3] أو لأنّه كان يرى إصلاح المجتمع العربي الإسلامي، يبدأ بإصلاح المرأة والحفاظ على شرفها وأنوثتها والدفاع عن حقوقها في المجتمع، التي لم يعبأ بها حتى الحاكم المسلم.

أو ربّما محاولة منه على الحفاظ على المتعففات لئلا يرجعن لتعاطي فاحشة الزنا بعد إقامة الحد على الأبكار منهن، إذ يورد إبن الحجرالعسقلاني في كتاب الحدود أنّ البكران الزناة من الرجال كانوا يُغَرَبون عن دورهم بعد إقامة الحد عليهم وجلدهم بنفيهم خارج محل إقامتهم بينما البكر الزانية فلا نفي لها بعد إقامة حد الزنا عليها وكذا الحال بالنسبة للأمة[4].

لأنّ صلاح المجتمع قائم على صلاحها، خاصة وأنّ مواقعتها فيه مساسٌ بالحرية وضياع لمستقبلها ومستقبل الأمّة معها، فهي حسب واصل كيان لا تكتمل الحياة إلاّ به وفي ذلك تنبيه منه إلى ضرورة وضع قوانين لكل من تُسوِل له نفسه الإتيان بمثل الزنا في المجتمع وبالتالي أهمية جهاز القضاء خاصة، كونها المسؤول الأول على تربية الجيل وهذا أفضل من نفي الخليفة عمر بن عبد العزيز للفسّاق إلى جزيرة دهلك ببحر اليمن[5].

وتأكيد أيضا بأنّ الفاحشة كانت وقتها علنية خاصة كبيرة الزنا والبغاء، خاصة وأنّ الخليفة عمر بن الخطاب كان ينفي إلى البصرة الزناة الذكورالبكور بعد إقامة الحد عليهم بالمدينة المـنورة[6] وربّما لم يتب أغلبهـم بدليل أنّ لغة التخاطب وقتها بين الناس كانت "يا ابن الزانية"، إثباتا على عدم وجود عدل في الرعية عند حكّام بني أمية وبالتالي فمشروع واصل الإصلاحي لا يبدأ بالحاكم كما فعل معبـد وغيلان وكانا مآلهما القتل، بل يبدأ بإصلاح القاعدة، التي كانت تقع عليها كل سلبيات الحكم الفاسد.

---

(1) الشهرستاني:الملل، ج1، ص40.
(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، 145.
(3) قال فيه أحد الشعراء:
فَمَا مَسَّ دِينَارًا وَلاَدِرْهَمًـــا وَلاَعَرَفَ الثَوْبَ الذِي هُوَ قَاطِعُــهُ
أنظر، إبن المرتضى، المصدرالسابق، ص29. الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص23.
(4) إبن حجر العسقلاني:فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج12، ص157.
(5) إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص304.
(6) إبن حجر العسقلاني:فتح الباري، م12، ص159.

لذلك كان يجلس إلى أبي عبد الله مولى قطن الهلالي في سوق الغزّالين، خاصة وأنّ مهنة الحياكة نسوية أو ربّما لأنّ تلك السوق كانت في ظاهرها للغزل، بينما هي مكان لمواعيد الزناة والعياذ بالله.

وأضاف إبن المرتضى، بأنّ هذا العمل كان يعجب واصل[1] وكيف لا وهو يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر من خلاله، بل ويقتك من الشيطان حُرمة الأنثى وشرفها المهدور[2] ويكتسب به شعبية إلى مذهبه، لكن هذه الثلّة من النساء ليست كل من بالبصرة وماذا كان يفعل باللصوص وشاربي الخمر وغيرهم أم يُتْركون؟ وهذا تأكيد على حُسن شيخ من شيوخ المعتزلة.

عُرف بشدة لثغته لحرف الراء، التي ينطقها غينا[3] ورغم ذلك لم تحد تلك اللثغة، من أن يكون رئيس نِحلة "ولمّا علم واصل بن عطاء أنَّه ألثغ، فاحش اللثغ وأنّ مخرج ذلك منه شنيع وأنّه إذا كان داعية مقالة ورئيس نحلة وأنّه يريد الإحتجاج على أرباب النِحل وأنّه لا بدّ من مُقارعة الأبطال ومن الخُطب الطوال وأنّ البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة"[4].

ثم إنّ إيراد الجاحظ لهذا، فيه تأكيد منه لمذهب القدرية، من أنّ الإنسان يملك قدره بنفسه وأنّ الفعل الإرادي لدى القدري واصل هوالذي جعله، يتحكم في تفادي إظهار لثغته الفطرية في خُطبه، حتى قيل:أنّه كان لكثرة صمته، يُظن به الخرس[5].

---

(1) إبن المرتضى:طبقات المعنزلة، ص29 . المبرد:الكامل، ج3، ص192.
(2) إنّ الفاحشة أشد من الكبيرة، لذلك كان الزنا فاحشة ، تُخرج صاحبها من الإيمان إلى الإسلام...قال إبن عبّاس رضي الله عنه أنّ الزاني ينزع منه الإيمان فقيل له:كيف ذلك؟ فقال:هكذا وشبّك بين أصابعه، ثم أخرجهما، فإذا تاب عاد إليه هكذا وشبّك بين أصابعه.
أنظر إبن حجر العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج12، ص ص61- 115.
(3) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص15. المبرد:المصدرالسابق، ص193.
(4) الجاحظ:المصدرالسابق، ص ص14،13.
(5) إبن النديم:الفهرست، ص203.

ثم إنّ معرفته الجيدة للغة العربية، دفعته إلى إستبدال كل كلمة بها حرف الراء بغيرها في إجتماع له عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، لمّا ولي العراق في حضور بعض المتكلمين منهم شبيب بن شيبة[1]والواضح أنّ كل كلمة فيها، كانت تعبر عن مبادئ المذهب الإعتزالي[2] حتى كان مضرب مَثَلَ الشعراء[3].

2- الواصليــــــة:

لواصل بن عطاء مؤسس الإتجاه الإعتزالي طريقة، تسمى الواصلية، عُدّت مبادؤها أصولا للمعتزلة، تعكس محاولته في إيجاد نهايات لنزاعات مختلفة وإختلاف آراء حول صفات الله، التي أكّدها أهل السنّة، فهو له رؤية أنّ الله ليس لمثله شيء قديم وبالتالي هذا يعبر على أصل التوحيد الذي دعت إليه المعتزلة، فنفي الصفات عنه معناه إثبات لفرديته في الألوهية.

أمّا عن القدر، فأكمل سيرة معبد الجهني وغيلان الدمشقي، أي أنّ الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أُمِروا به وُنهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبَّها فيهم وأنّه لم يأمر إلاّ بما أراد ولم ينه إلاّ عمَّا نهى عنه، لم يكلفهم ما لا يطيقونه وإن أراد منهم ما لا يقدرون عليه وأنّ أحدا لا يقدرعلى قبض ولا بسط، إلاّ بقدرة الله، التي أعطاهم إيّاها وهو المالك لها دونهم، يفنيها إذا شاء ولو شاء يبقيها ولو شاء لجبَرالناس على طاعته ومنعهم إضطرارا عن معصيته ولكان على ذلك قادرا، غير أنّه لا يفعل، إذ كان في ذلك رفع للمحنة وإزالة البلوى وهذا الأصل يسمى العدل.

ربّما ذلك كسبا منه لشعبية هذين الرجلين من جهة ومن جهة أخرى، تأكيده على أنّ حكم بني أمية الجائر، ليس من الله، بل منهم وبالتالي كسب الشعبية.

---

(1) مصطفى الشكعة:الشعروالشعراء في العصرالعباسي، ص120.

(2) جاء في خطبة واصل مايلي، "الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية، الذي علا في دُنُوه ودنا في علوه، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق و لم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه إبتداعا وعدَّله إصطناعا وتمَّم بمشيئته و أوضح حكمته، فدلّ على ألوهيته، فسبحانه لا مُعَقِب لحكمه ولا دافع لقضائه، تواضع كل شيئ لعظمته وذلّ كل شيئ لسلطانه ووسِع كل شيئ فضله، لا يعزب عنه مثقال حبّة و هو السميع العليم...

أنظر، عزالدين إسماعيل:في الأدب العباسي الرؤية والفن، دارالنهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1975، ص ص233،234.

(3) إبن المرتضى:المصدرالسابق، ص31. الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص21.

قال شاعر:

عَليمُ بِإِبْدَالِ الحُرُوفِ وَقَامِـــعَ لِكُلِ خَطِيبٍ يَغْلِبُ الحَقَ بَاطِلـــهُ

أنظر، الكتبي:فوات الوفيات، ج2، ص624. الجاحظ: المصدرالسابق، ص13.

وقال شاعرآخر:

وَلَمْ يَطِقْ مَطَرًا وَالقَوْلُ يَجْعَلُهُ فَعَاذَ بِالغَيْثِ إِشْفَاقًا مِنَ المَطَـر

أنظر، الجاحظ:نفس المصدر، ص14.

في حين ألاحظ أنّ الواصلية لا ذكر فيها لمسألة خلق القرآن، أمَّا عن المنزلة بين المنزلتين، فهو فعلا جديد واصل بن عطاء في تلك الفترة وهو يعكس ميله للجمع بين المتنافرين حول هذه المسألة، لذلك كان هذا المبدأ يعكس الوسطية التي سلكتها المعتزلة وذاك ما يظهر في الأصل الثالث الوعد والوعيد، إذ لا يغفر الله لمرتكب الكبيرة إلاّ بالتوبة(1).

يظهر أنّ النقاش كان متواصلا بين الناس حول أصحاب الجمل(2) وصفين(3)، فالحسن ذاته كان يلعن قتلة عثمان وربّما في ذلك تأجيج للفتنة، لذلك فصَلَ واصل بتفسيق أحد الطرفين دون أن يذكر إسمه وهو بذلك أيضا قد كسب كل المتنافرين وهذا كله يؤكد الإتجاه العقلي عنده.

أمّا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذكره الجاحظ، فيما أورده من شعر، أكّد من خلاله إرسال واصل دعـــاة إلى أماكـــن متعددة خارج البصرة، للتبشيربأصول المعتزلة التي يبدو أنّها لقيت ترحيبا من أهل البصرة خاصة أصحاب الكبائر والمعاصي، إذ لا حدود تُطبق عليهم، بل هم في حكم المرجئين، الذين إتّجه الدعاة منهم، ينشرون دعوته ولا يكّلون في مواجهة المصاعب الطبيعية والمناخية، حتى كانوا مبالغة في صمودهم، كالأوتاد في أرض الله وتجلّى ذلك في مدح أحد الشعراء لهم(4).

ذكر إبن المرتضى أسماء دعاته إلى مختلف البلدان(5)، لكن الشعرالسابق يظهر فيه نوع من المبالغة، فمتى ظهرت هذه الدعوة حتى تنتشر خارج الديار؟، ما يؤكد أنّ هناك ما يشبه الدعاية لأصول واصل الإعتزالية، حتى كان أمر نشرها شبيه بنشر الدعوة المحمدية.

---

(1) أنظر، محتوى الواصلية بالملحق رقم3، ص161.

(2) أصحاب الجمل، هم عائشة رضي الله عنها، الزبير بن العوام، في قتالهم لعلي بن أبي طالب في موقعة الجمل، حدثت عام 36هـ/656م، بسبب مطالبة عائشة ومن ناصرها بدم الخليفة عثمان المقتول غدرا في البصرة، سميت بالجمل نسبة إلى جمل عائشة، المسمى عسكر، إشتراه لها عامل عثمان بن عقان على البصرة عبد الله بن عامر من اليمن بمائتي دينار.
أنظر، المسعودي:مروج الذهب، ج2، ص427.

(3) أصحاب صفين، هم معاوية بن أبي سفيان، عمرو بن العاص في قتالهما لعلي بن أبي طالب، عام36هـ/656م، شارك فيها إبن الحنفية، قتل فيها عمار بن ياسر بالبصرة عام 37هـ/657م.
أنظر، المسعودي:نفس المصدر، ص450-454.

(4) قال الشاعر:
لهُ خَلفَ شِعَبِ الصينِ فِي كُلِ ثَغْرَةٍ إِلى سُوسِهَا الأَقصَى وَخَلفَ البَرَابِرِ
رِجَالٌ دُعَـــــاةٌ لاَيَفِلُ عَزِيمُــــــهُمْ تَهَكُمَ جَبَّارٍ وَلاَكَيْـــدَ مَاكِـرِمُهَجَرَةٍ
أنظر، الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص22.

(5) بعث أبو عبد الله بن الحارث إلى المغرب، فأجابه الكثير، إلى خراسان حفص بن سالم، فدخل ترمذ ، لزم المسجد حتى اشتهر، ثم ناظرجهما، فقطعه، فرجع إلى قول أهل الحق، فلما عاد حفص إلى البصرة، رجع جهم إلى قوله الباطل، القاسم إلى اليمن، أيوب إلى الجزيرة، الحسن بن ذكوان إلى الكوفة، عثمان الطويل إلى أرمينيا، فقال:يا أبا حذيفة إن رأيت أن ترسل غيري، فأشاطره جميع ما أملك حتى أعطيه فردّ نعلي، فقال:يا طويل أخرج، فلعّل الله أن ينفعك، فخرج للتجارة فأصاب مائة ألف، أجابه الخلق.
أنظر، إبن المرتضى:المصدرالسابق، ص ص32، 33.

وهل يعقل أن تصل حتى الصين؟ ما يجعلني أذهب إلى التشابه القائم مع الدعاة الآسيويين في المعاناة، كما أكّد الشهرستاني وجود بالمغرب شرذمة منهم قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني، الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور ويقال لهم: الواصلية[1].

يغالي إبن المرتضى في أمر دعوة واصل بأنّه إتّجه إلى المدينة ، تسارع إليه زيد بن علي وإبنه وإخوته...، فقال جعفر بن محمد الصادق[2]:قوموا بنا إليه، قال له جعفر:أمّا بعد ...فنحن عترة رسول الله وأقرب الناس إليه وإنّك يا واصل، أتيت بأمر، يفرق الكلمة وتطعن به على الأئمة وأنا أدعوكم إلى التوبة، فقال واصل:الحمد لله في قضائه، الجواد بعطائه، المتعالي عن كل مذموم والعالم بكل خفي مكتوم، نهى عن القبيح ولم يقضه وحثّ على الجميل ولم يحُل بينه وبين خلقه وإنّك يا جعفر وإبن الأئمة شغلك حبٌ الدنيا، فأصبحت بها كَلفا وما أتيناك إلاّ بدين محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبيه وضجيعيه ... وجميع أئمة الهدى، فتكلّم زيد بن علي، فأنكرعليه ما قال وقال:ما منعك من اتّباعه إلاّ الحسد لنا، فتفرقوا[3]، ممّا يؤكد تقارب الزيدية مع الواصلية.

يظهر إذن أنّ جعفر رآى في دعوة واصل خروجا عن الحق، يذكره الشهرستاني أنّه كان ذوعلم وزهد، بريء من الإعتزال والقدر، بقوله في الإرادة أنّ الله تعالى أراد بنا شيئا وأراد منّا شيئا، فما أراد بنا طواه عنّا وما أراده منّا، أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراد بنا عمّا أراده منّا وفي القدر يقول:هو أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض وكان دعاؤه"اللهم لك الحمد إن أطعتك ولك الحُجّة إن عصيتك، لا صُنع لي ولا لغيري في إحسان ولا حُجّة لي ولا لغيري في إساءة"[4] .

ومخالفته لواصل كانت فقط في مبدأ المنزلة بين المنزلتين، مستدلا بما قاله جعفر لمّا سئل عن القدر:ما إستطعت أن تلومَ العبد عليه، فهو فعله وما لم تستطع، فهو فعل الله، يقول الله للعبد:لِمَ كفرت؟ ولا يقول:لِمَ مرضْت؟[5].

---

(1) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص40.
(2) جعفرالصادق، عبد الرحمن بن محمد، إليه تنتسب الفرقة الجعفرية، له كتاب الامامة، كتاب الفضائل. أنظر، إبن النديم: الفهرست، ص247.
(3) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص33.
(4) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص167.
(5) إبن المرتضى،طبقات المعتزلة، ص34.

وربّما هذه الرواية أراد صاحبها إبرازالعلاقة بين دعوة واصل والجعفرية، إذ وافق جعفر في العدل دون المنزلة بين المنزلتين[1] ولو قَبِل دعوة واصل، لأحدث فتنة عند أهل المدينة، كون أهل الجمل وصفين من سكانها، ممّا يؤكد ما ذهب إليه البعض أنّ هناك جبهة كان على المعتزلة التنبه إلى خطرها عليهم وهي أهل السنّة، لأنّها تضم عددا كبيرا من الفقهاء المسلمين ومن ورائهم عامّة الناس[2].

إذن أبعد فتنة، كانت ستفرق جمع الأمّة الإسلامية ولعّل في المنزلة بين المنزلتين ترحيبا من أهل المعاصي لتبريرها وبالتالي إستمرارية الكبائر، ثم كيف تنتشر دعوة واصل وهي لم تلق ترحيبا في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم؟.

3- بشار بن برد وواصل بن عطاء:

صنَّف الجاحظ بشار95هـ/714م/167هـ/784م من خطباء الأمصاروشعرائهم والمُوَلدين "منهم، بشارالأعمى وهو بشاربن برد، كنيته أبومعاذ، كان من أصل موالي بني عقيل، فإذا كان مولى أم الظِباء على ما يقول بنو سدوس[3] وعلى ما ذكره حمَّاد عجـرد"[4]، قيل:أبوه يرجوخ، فهو من موالي بني سدوس، يقال:أنّه من أهل خراسان[5]، نازلا في بني عقيل، له مديح كثير في فرسان أهل خراسان ورجالاتهم وقال الشعر دون العشر سنوات[6].

ممَّن يجالسون المتكلمين ويستفيدون من علومهم وهو ما زاد معرفته بمذاهبهم ومذاهب الزنادقة، حتى ذكرالجاحظ أنّه كان كثير المدح لواصل بن عطاء، قبل أن يدين بالرجعة ويُكَفِر جميع الأمّة[7]، ثم وصفه بالملحد بعد رجعته ويسخر منه بقوله:وزعم بشارأنّ جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم[8].

---

(1) نفسه.
(2) عز الدين إسماعيل:في الأدب العباسي، ص212.
(3) بنوسدوس: أنظر، قبيلة بكر بالملحق رقم15، ص170.
(4) حمّاد عجرد، حمّاد بن يحي بن عمر بن كليب، يكنى أبا عمر، مولى بني عامر بن صعصعة، مولى بني سراة، مولى بني عقيل، أصله ومنشؤه بالكوفة، كان يبري النبل، أبوه نبّالا، تكسب بصناعة الشعر، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، إشتهر أيام بني العباس، خليعا ماجنا، متهما في دينه، مرميا بالزندقة، أبوه يحي مولى لبني هند بنت أسماء بن خارجة، وكيلا لها في ضيعتها بالسواد، ولدت هند من بشر بن مروان عبد الملك بن بشر، فجرعبد الملك موالي أمه فصاروا مواليه، قال:ولمّا كان والد حمّاد عجرد بالسواد في ضيعتها نبَّطه بشار، من ندماء السفاح، صديقا لأبي حنيفة . أنظر، الأصفهاني(أبوالفرج): الأغاني، دارالثقافة، بيروت، لبنان، 1959م، م14، ص304وما بعدها.
(5) إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص528.
(6) إبن كثير:نفس المصدر، ص527.
(7) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص38.
(8) الجاحظ:نفس المصدر، ص21.

جاهر بإلحاده وزندقته، فهجا واصل شكلا ووصل الحد ببشار، تصويب رأي إبليس في تقديم النارعلى الطين، بإستخدامه القياس كما إستخدمه إبليس من قبل، حين رفض أن يسجد لآدم، لأنّه مخلوق من طين وإبليس مخلوق من نار وبما أنّ النار أطهرمن الطين، فمعنى هذا أنّ إبليس أفضل من آدم[1].

يبدو أنّ الجاحظ رغم تصنيفه من المطبوعين على الشعر"والمطبوعون على الشعر من المولّدين بشار العقيلي"[2]، كان ساخطا على تصرفاته، فذكر كل ما يثبت وضاعة أصله، بأنّه من الموالي، أبوه كان مولى لأم الظباء العقيلية السدوسية، فادّعى ولاءه لبني عقيل[3]، لنزوله فيهم وربّما لم يكن يسخر لكونه من الموالي، فواصل أيضا منهم، لكن يقصد الأسرى، لذلك كان بشار ينسب نفسه لأهل خراسان وربّما تطاوله وهجاؤه لواصل شيخ المعتزلة هو الذي دفع الجاحظ للتحقير من شأنه[4].

فالموالي في الحقيقة كانوا تشكيلة طبيعية في المجتمع العربي الإسلامي ومنه مجتمع البصرة وذهب البعض الآخر أنّ هجاءه له، كان طلبا منه للشهرة وإلاّ فكيف يورد الجاحظ أشعارا، عظّم بها قدر واصل في الدفاع عن حرمة الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى وحدة الجماعة[5]؟ وفي ذلك تنبيه إلى ذود الموالي عن حرمة الدين.

ذهب آخرون إلى القول: أنّ هجاء بشار لواصل يدخل ضمن هجاء شخصي وهو موجه إلى كل من يحاولون التقليل من شأنه والإطاحة من قدره[6] والأكثرمن ذلك، ظهر واصل متصديا لموجة الإلحاد التي قــادها بشار من خلال شعره، لمّا عذر إبليس، ليرد بأشعار، تثبت عظمة الله في ما أوجده في طبيعته وبالتالي تأكيد توحيده.

---

(1) قال بشار بن برد:
مَالِي أُشَايعُ غَزَّالاً لَهُ عُنُـــــقٌ كَنَقْنَق الدَوِ إنْ وَلِيَ وَإنْ مَثَـــــلاَ
عُنُقُ الزرَافَـةِ مَالِي وَبَالَكُـــــمْ أَتُكَفِرُونَ رِجَالاً أَكْفَرُوا رَجُـــــلاَ
الأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَارُ مُشْرِقَــةٌ وَالنَارُمَعْبُودَةٌ مُذْ كَانَتْ النَـــــارِ
أنظر، نفسه.

(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص39.

(3) بنوعقيل، أنظر قبيلة قيس بالملحق رقم16، ص171.

(4) أحمد كمال زكي:الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، ص463.

(5) قال بشار بن برد:
تَلَقَبَ بِالغَزَّالِ وَاحِدَ دَهْـــــرِهِ فَمَنْ لِلْيَتَامَى وَالقَبِيلِ المُكَاثِـــرْ
وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وإِنْكَارِ مُنْكَـــرِ وَتَحْصِينِ دِينِ الله مِنْ كُلِ كَافِرْ
أنظر، الجاحظ:المصدرالسابق، ص23.

(6) علي نجيب العطوي:بشاربن برد، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1411هـ/1990م، ص65.

وكأنّه يدعو الكل إلى التأمل في خلق الله لمعرفة الله من تجلياته فيها وهو ما جعل الواصلية تلقى إستحسان الكثيرين ويتوافق ذلك مع مبدأ الجاحظية "لا تذهب إلى ما تريك العين بل إلى ما يريك العقل" وبدتْ من خلال الشعر[1] القدرة على الدعوة أفضل من الإنقياد وراء السيف للتغيير.

لكن تجاوزاته في الهجاء والمجاهرة بالزندقة، دفع واصل إلى إصدار ما يشبه حكم القاضي عليه، بقوله:"أما لهذا الأعمى الملحد المُشنَف، المكنّى بأبي معاذ من يقتله"[2]، أي إعتبره كمرتد، لكن هل تُصدرالأحكام على ضوء أشعاره أم أفعاله؟ وكان من المفروض إستتابته كما فعل الخليفة عمر بغيلان، فالأمر بدا لي متشابها إلى حد ما، فقال واصل:أما والله لو لا أنّ الغيلة سجية من سجايا الغالية، لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلاّ عقيلي أو سدوسي[3].

وإن بدا من هذا معجزته في إستبدال المنصورية والمغيرية بالغالية[4] وداره بمنزله، فإنّه أكّد بذلك أنّ بشار لم يكن مقبولا، حتى عند من كان ينتسب إليهم من بني عقيل أو بني سدوس ورغم ذلك فهذا تعبيرعن إهدار دمه و يدخل ذلك في باب الوعيد، دلالة على تطاول لسانه فكانت نهايته النفي وبقي غائبا إلى أن مات عمرو بن عبيد[5].

يدعو الجاحظ، لتبين أمر زندقته بالنظر في أحواله الخَلقية والبيئية دليلا على معيشة الموالي الظنكة في الدولة الإسلامية، فاحتمال ميله إلى الهجاء هو الرد اللاذع على محتقريه وأولهم حمّاد عجرد[6]، فيُظهر أهمية الشك في الوصول إلى اليقين، مُطبقا إيّاه على زندقته.

---

(1) قال واصل:
زَعَمْتَ بِأَنَّ النَارَ أَكْرَمُ عُنْصُرًا وَفِي الأَرْضِ تَحْيَا بِالحِجَارَةِ وَالزَنَدِ
أنظر، الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص23.
فَذَلِكَ تَدْبِيرٌ وَنَفْـــعٌ وَحِكْمَةٌ وَأَوْضَحُ بُرْهَانٍ عَلَى الوَاحِدِ الفَـرْدِ
أنظر، الجاحظ:نفس المصدر، ص25.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ص15.
(3) نفسه.
(4) أنظر، الفصل الرابع، ص ص139، 140.
(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص22.
(6) قال حمَّـــاد:
وَيَا أَقبَـحَ مِـنْ قِـرْدٍ إِذَا مَـا عَمِـيَ القِـرْدُ
أنظر، الجاحظ:الحيوان، ج4، ص66. الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص26.
وَطَلِيَتْ جِلدَتُـهُ عَنْبَرًا لَنَتَنَـتْ جِلدَتُهُ العَنْبَـرَا.
أنظر، الجاحظ:الحيوان، ج1، ص239.

فالواصلية لم تكن تطبقه لتبين حقيقة المزاعم وتكتفي بما تراه العين أو تسمعه الأذن دون إمعان العقل ومن ثمَ إصدار واصل حُكمه بقتله، ربّما علي جريمة لم يقترفها أو زندقة كاذبة ومن هنا أظهره الجاحظ بأنّه أعمى وتحدّث عن قميصه"وكان لجربان قميص بشارالأعمى وجُبّته لبنتان، فكان إذا أراد نزع شيئ منها، أطلق الأزرار، فسقطت الثياب على الأرض ولم ينزع قميصه من جهة رأسه قط"[1]، فكيف يقبل أي فرد ولو كان غير أعمى أن يُرْمىَ بهذا؟.

والأكثر وُصِفَ بقرد أعمى خاصة وأنّ العرب تكره أكل القرود ولا تلتمس صيدها للأكل وكان في طباع الناس من التكره للحوم القردة والتقذر[2]، فما بالك بقرد أعمى؟ ثم كيف يسمع الناس ما يؤكد زندقته ولا يسمعون ما يؤكد إيمانه بالبعث في أشعاره؟[3].

يؤكد المبرد أنّ قتل الخليفة المهدي له بسبب الإلحاد وقد روى قوم أنّ كتبه فُتِشت، فلم يُصب فيها شيئ ممّا كان يُرمى به وأُصيب له كتاب فيه "إنِّي أردت هجاء آل سليمان بن علي، فذكرت قرابتهم من رسول الله، فأمسكت عنهم"[4]، فقتله قد يكون لأي سبب[5]إلاّ الزندقة.

ذكر آخرون أنّه لم يكن واضح الديانة، بل فقط له ضعف في الممارسات الدينية[6] ويبدو لي أنّه كان مؤمنا بالقدر من الله وقضائه، حجّتي في ذلك هي البيت السابق، الذي وُصف فيه بالقرد، إذ عقّب عليه الجاحظ بقوله:لم يجزع بشار من شيئ قط، جزَعه من هذا البيت[7].

لذلك كونه وُلِدَ أعمى، فهو لم يرَ شكله، لعلّه كان يرى ذاك من قدر الله عليه، في حين هذه العاهة لا يمكن لمن ينفون أنّ القدر بيد الله تغييرها، فالله الذي صوَّره بذاك الوصف البشع، الذي أجزع به الكل، جعله يكبت في نفسه أشدّ الألم، فتولّدت عنده عقدة النقص، جعلته يهجو بشدّة، حتى يجد لنفسه مكانا وسط الناس و يعلو شأنه، حتى تطاول على واصل نفسه.

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج4، ص107.

(2) الجاحظ:الحيوان، ج4، ص61.

(3) قال بشــــار :
إنَّ فِي البَعْثِ وَالحِسَابِ لَشُغْلاً عَنِ وُقُــوفِ يَرْسُمُ دَارَمَحِيــلِ.
أنظر، الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص164.

(4) المبرد:المصدرالسابق، ج3، ص193.

(5) قيل:أنّ بشار هجا المهدي، لأنّه لم يجزه ولأنّ بشار لا يرعى حرمة محسن أو مسيئ، بل يهجو أيًّا كان بسبب و بلا سبب و كان هجا الخليفة المهدي ووزيره يعقوب بن داود بقوله:
بَنِي أُمَيَةَ هُبُوا طَالَ نَوْمُـــــكُمْ إنَّ الخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بـــــنُ دَاودَ
ضَاعَتْ خِلاَفَتُكُمْ يَا قَوْمُ فَالْتَمِسُوا خَلِيفَةً لللّه بَيْنَ الزَقِ وَالعُـــــودِ
أنظر، مارون عبود:أدب العرب، ص200.

(6) علي نجيب العطوي:المرجع السابق، ص53.

(7) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص26.

قيل لبشار يوما:أتأكل اللحم وهو مباين لديانتك أي ثنوي؟ فردّ قائلا:ليسوا يدرون أنّ هذا اللحم يدفع عني شر هذه الظلمة[1] وبالتالي هذا نفي لأن يكون ثنويا وبقي مادحا للخليفة المهدي حتى وُشي به إليه من أحد الوزراء، فقتله ضربا إلى أن مات[2] وشاع في الناس أنّه قتل بسبب الزندقة والأغرب أنّه دُفن مع الزنديق حمّاد، الذي ثبتت زندقته[3]المتوفى عام158هـ/775م في نفس القبر رغم المهاجاة التي كانت بينهما[4].

ب- التأثير الأجنبي وأثره في العهد الأموي:

بحكم الموقع الجغرافي للبصرة وقربها من بلاد فارس والهند والسند وإشرافها على البحر، كانت محط هجرات مختلفة، إفريقية وهندية وفارسية ومسيحية وغيرها، فضلا عن يهودية، بدأت هذه الحركية إليها منذ فتحها[5]وبالتالي شهدت البصرة كل مظاهر الفتن والجدل والخلافات بين الفرق الدينية أو الكلامية فيما بعد.

في كتاب البيان والتبيين إشارات متفرقة إلى أقوال اليهود والصابئة[6] والمسيحيين وكهّان وغيرهم، ربّما قصد من خلالها التنبيه إلى عدم تهميش ما كان من تأثير هذه الفئات في الفكر الإسلامي وقتها.

---

(1) المبرد:الكامل، ج3، ص193.

(2) إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص528.

(3) قال الشاعر أبو نوّاس: كنت أتوهم أن حمّاد، رُمي بالزندقة لمجونه في شعره، حتى حُبست في حبس الزنادقة، فإذا حمّاد إمام من أئمتهم وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين، يقرؤون به في صلاتهم.
أنظر، الأصفهاني:الأغاني، ج14، ص307.

(4) الأصفهاني:نفس المصدر، ص492.

(5) علي سامي النشّار، نشأة الفكر الفلسفي، ج3، ص1265.

(6) الصابئـــة، الصبوة في مقابل الحنفية، في اللغة، صبا الرجل، إذا مال وأزاغ وبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأشياء قيل لهم: الصابئة، الصابئة تدّعي أنّ مذهبنا هو الإكتساب، أمّا الحنفاء تدّعي أنّ مذهبنا هو الفطرة.
أنظر، الشهرستاني: الملل والنحل، ج2، ص289.

كان الحسن البصري ينبه إلى عدم المبالاة، بما يُعَيرُونَ به المسلمين من الفقر لإبعادهم عن التواضع والزهد وهو ما تمثله بما كانت اليهود تقول للمسيح عيسى بن مريم، فردّ عليهم"أَمِنَ الغِنَى أتيتم"؟[1]خاصة وأنّ اليهود مختلفين في القول بالقدر[2]، عدم تركيزه على ذكرهم ربّما لنفي أصل القدرية إليهم وبالتالي التأكيد على محلية تأسيسها ونشأتها من وُعّاظ البصرة لا من غيرهم.

كما إستبعد الجاحظ أي تأثير من جهة أخرى، قد يتغلغل عن طريق الترجمة، فأشار إلى قلّة نشاطها في العهد الأموي، ماعدا ما كان في عهد خالد بن يزيد بن معاوية[3]"وكان خالد بن يزيد بن معاوية، خطيبا، شاعرا وفصيحا، جامعا و جيد الرأي، كثير الأدب وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء"[4].

في حين ذهب إبن النديم إلى وصف خالد بحكيم آل مروان، أحضر جماعة من فلاسفة اليونان ممّن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي وهو أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة[5] وهو ما سيطلع عليه رجال المعتزلة فيما بعد.

---

(1) الجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص136.
(2) الشهرستاني: الملل والنحل، ج2، ص232.
(3) خالد بن يزيد بن معاوية، كان يكنّى أبا هشام، أمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وقد تزوجها يزيد بعد مروان بن الحكم.
أنظر، إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص480.
(4) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص219.
(5) إبن النديم:الفهرست، ص303.

يتبين أنَّ المعتزلة فرقة زهدية في أصولها، إهتمت في بداياتها بتحسين أخلاقيات الأفراد المسلمين وتوجيههم إلى خير ما في دنياهم، لكسب أخراهم، تبعا لتوجيهات الصحابة والتابعين وبالتالي فمدرسة المدينة المنورة التي خرّجت الحسن البصري أكبر الوُعّاظ، شابهتها في نفس العطاء مدرسة البصرة التي كان على رأسها .

كان من بين تلاميذها أيضا معبد الجهني الذي لم تكن له علاقة بالسياسة حسب الجاحظ ولا بالتأثير الأجنبي المسيحي أو اليهودي وبالتالي فهو ممثل للجانب الوعظي في قصر أحد حكّام بني أمية الخليفة عبد الملك بن مروان.

ما يؤكد أنّ فكـرة القدرية التي دعى إليها، لـم تكن وليدة تأثير أجنبي مسيحي أو يهودي، رغم وجود هذه الفئات في الدولة الإسلامية خاصة البصرة، أي أنّ المعتزلة أصولها محلية ليست أجنبية وإن كانت من الموالي، فمكانتهم كانت دينية، بحكم علمهم للفقه وغيره من علوم الدين الإسلامي وأبرز دليل أنّ الحسن نفسه الذي شكّل المثال الأعلى للكل هو من الموالي.

ثم إنّ الشخصية الثانية غيلان الدمشقي، الذي دعى إلى القدر أيضا، بنفس ما دعى إليه معبد وناقش فيه الخلفاء الأمويين خاصة الخليفة عمر بن عبد العزيز، كان أيضا واعظا، لم تكن له أية مآرب سياسية.

نبّه إلى حرية الإنسان و مسؤوليته عن ما يقوم به من أفعال، لنفي تبرير حكّام بني أمية به أخطاءهم، من أنّها من الله وفي ذلك على يبدو أنّ معبد وغيلان بدعوتهما القدرية هذه، قد نزّها الله من القيام بالشر وأنّه من فعل الإنسان أي من حكّام بني أمية.

وبالتالي حسب الجاحظ، فإنّ كلا منهما قد أكمل مسيرة الحسن البصري الوعظية لإصلاح أوضاع فاسدة في زمن بني أمية وحكمهم الذي قيل عنه: أنّه حكم جبرية وفي ذلك تبرئة من الجاحظ لهما على ما يبدو، ممّا قتلهما به حكّام بني أمية، من تحريضهم الناس على الوقوف ضد حكمهم وعدم شرعيته.

قدّما أروع مثال عن نجاح مهمتهما الوعظية التعليمية، تبعا لما رسم له الحسن البصري حتى قُتلا ظُلمًا من بعض حكّام بني أمية، تخوفا من ضياع حكمهم، بسبب وعظ غيلان الذي على ما يظهر قتله هشام بن عبد الملك، تخوفا من كسبه إليه أنصارا من المعارضين لبني أمية.

وبالتالي يظهر أنّ جديد القدرية ليس تنكرا لوجود الله، بل تنزيها له ممّا نُسِب إليه من حكّام بني أمية، بأنّ كل ما يصيب الإنسان من الله و بالتالي ربط الناس خطاياهم وحتى مآلهم في الآخرة بما شاء الله فقط، دون أَخْذِ مسؤوليتهم عن أفعالهم وفي ذلك تنبيه لهم إلى التنبه إلى كل النصوص القرآنية ، إذ هناك من الآيات ما يدل على حرية الإنسان لأفعاله وتحمل مسؤوليته عنها.

حسب الجاحظ أنّ حكّام بني أمية، قد أخطؤوا بقتلهم معبد وغيلان دون تبين لأمرهما، كونهما واعظان أي مصلحان وليسا مفسدان والحقيقة أنّهما حتى وإن كان تفكيرهما في بناء كيان من الموالي، فهذا مستحيل وقتها.

وبالتالي فقتلهما هو تخويف كل الموالي لإبعاد فكرهم من الوصول إلى الحكم بدل بني أمية أو غيرهم ولذلك نجد دعوة واصل كانت إجتماعية، ربّما ما يسمح للموالي مستقبلا من تكوين عصبية شكلا من معارضة الأمويين من كل التيارات الدينية وقتها والكلامية.

ضرورة تنبيه الرعية إلى أهمية الشك في الحياة الإجتماعية، تبعا لعقيدة واصل ومنها التنبه إلى معرفة أسبابه، المتمثلة في فساد نظام الحكم من بني أمية وغيرهم وهذا ما يخرج الناس من صمتهم للمطالبة جهرا بحقوقهم التي خُوّفُوا من المطالبة بها بإسم العدل الإلهي، الذي مثلته جماعة حكّام بني أمية حتى بما فيها الحُكّمَ نفسه.

أوضحت هذه الدعوة الجديدة مدى رغبة الموالي دون العرب في إصلاح الأوضاع في الدولة الإسلامية، ربّما لما في ذلك من رفع مكانتهم الدنيا عند العرب لذا كانت دعوة واصل تؤكد على العدل وبالتالي دمجهم في المجتمع الإسلامي خاصة وأنّ الدين لا يفرق بين الناس إلاّ على أساس التقوى فقط أو ربّما دعوة ضمنية من الجاحظ إلى ضرورة التخلص من فكرة التعصب للعرب دون غيرهم، لأنّ الموالي في نظره بحكم عيشهم في الدولة الإسلامية قد إكتسبوا عادات تضاهي العربية.

ومن مشكلة بشار مع واصل يتبين ضعف صف الموالي في إنجاح مشروعهم العدلي هذا وكيف ينجح وهم لايتفاهمون فيما بينهم؟ وكيف يصلحون الأفراد وهم يتهاجوْنَ علنا أمام الملء؟ ممّا يُظهر دعوة واصل أنّها ميتة بتاريخ ميلادها.

الفصل الرابع

المعتزلة

في مدينـــة بغـــداد
حسب كتاب "البيان والتبيين"

الفصـــل الرابـــع

المعتزلة في مدينة بغداد
حسب كتاب "البيان والتبيين"

1- نشاط المعتزلة في بغداد:

أ- عمـــــرو بن عبيـــد:

1. سيرتـــــــه
2. عقيدتـــــــه
3. علاقته بواصل بن عطاء
4. موقف عمرو بن عبيد من بعض خلفاء بني أمية
5. علاقته بالخليفة أبي جعفر المنصور

ب- موقف أهل السنّة من المعتزلة

ت- نشـــاط الترجمة وآثـــــاره

2- شخصيات فرق المعتزلة الأخرى:

1. إبراهيم بن سيّار النظام
2. أبوالهذيل العلاف
3. بشر بن المعتمر
4. ثمامة بن الأشرس

3- الخليفة المأمون والمتكلمون

لم يبق الإعتزال حبيس البصرة، بعد تثبيت أسس له من واصل بن عطاء، خاصة وأنّ حكم الدولة الأموية قد إنقضى، فنقله عمرو بن عبيد إلى بغداد خاصة وأنّه صاحب واصل في تأسيس هذا الإتجاه الكلامي، ربّما لإيجاد بيئة يثبت فيها كنظام مستقبلا أو نقله من بيئة الأمويين التي كانت كل الإتجاهات فيها تحيك الدسائس للوصول إلى مقعد الخليفة وتحقيق العدل الذي أوجد كل إتجاه صورة، يطبقه بها، المهم الإتفاق بأنّ ما قام به هو فعلا العدل الإلهي الذي تفشل أمامه كل محاولات الإندثار أخذا بالتجربة الأموية وكذا القدرية.

في البيئة العباسية لون جديد من الحكومة الإسلامية بزعامة العباسيين، جاءت لإقرار العدل ورفع الجوْرعن العامّة بما فيهم الموالي خاصة وأنّها قامت على أكتافهم، ذاك ما شجّع عمرو بن عبيد على الإتصال بمؤسسها الخليفة أبو جعفر المنصور ومحاولة كسبه إلى التيار الديني الكلامي الجديد عن طريق وعظه وبالتالي الإصلاح من القمّة، لإيجاد العدل أيضا عن طريق الحاكم المثالي، الذي أوجدت له المعتزلة صفاتا لإعتلائه الحكم.

ولمّا كان أعداء الدولة العباسية كثيرون من شيعة وخوارج، إضافة إلى الوافد الجديد من الهجرات الأجنبية لعناصر غير عربية والحديثة العهد بالإسلام، إضافة إلى أخطاء الخليفة أبي جعفرالمنصور من قتل كبير جيشه أبي مسلم الخراساني، إستفاد من كل ذلك عمرو لتشكيك الحاكم نفسه في مصداقية ما يقوم به من أعمال، ليعرض عليه عن طريق الوعظ أفكار المعتزلة، مستندا لما جاء في القرآن والآثر.

إنّ الطريق الذي هيأه عمرو بن عبيد للمعتزلة في بغداد، سهّل عملهم بالدعوة أكثر لأفكارهم، التي زادت عن آراء المعتزلة الأولى بحسب جديد الدولة، عن طريق الترجمة خاصة وهو ما كان له ردود أفعال من أهل السنّة خاصة، كتيار معارض لأي تجديد، يستند إلى العقل وحده ولا يرجع إلى القرآن والحديث النبوي، فأسموا ذلك بالبدع والضلالة.

حاول رجال معتزلة بغداد المحافظة على نهج عمرو بارتياد قصور الخلفاء، رغم رفض بعضهم لهم، حتى كان الخليفة المأمون ضالتهم، فوافقهم الحواروالنشاط، لأنّه كان عقلانيا مصلحا أيضا، فصار قصره مقصدًا للموالي المختلفي الآراء والتخصصات أيضا.

فما هدف معتزلة بغداد الحقيقي من كل هذا النشاط المكثف في بغداد؟هذا ما سأحاول الإجابة عنه في الفصل الرابع/إن شاء الله.

1- نشاط المعتزلة في مدينة بغداد:

شكّلت بغداد عاصمة الدولة العباسية محور تفاعل عدّة حضارات، أسهمت فيها عوامل متعددة، لتتوغل إليها تيارات مختلفة، منها الدينية السياسية أو الدينية الكلامية، كانت المعتزلة أبرزها، بما كان لرجالاتها وعلى رأسهم عمرو بن عبيد من آراء، قصدوا من خلالها حل مشاكل مختلفة، كتلك التي ناقشها قبله واصل بن عطاء شيخ معتزلة البصرة.

أ- عمـــــرو بن عبيــــــد:

1- سيــرتـــــــه:

هو عمرو بن عبيد بن باب وباب من سبي كابل، من ثغور بلخ، مولى لآل عرّادة من يربوع بن مالك[1]، كنيته عمرو أبو عثمان، في طبقة الإعتزال الرابعة[2]، من روّاة الحديث[3] ولد عام80هـ/699م[4] وأختلف في تاريخ وفاته[5]، أكّد الجاحظ أنّه عالما عابدا ذو بيان وصاحب قرآن[6] وأضاف إبن النديم، بين عينيه أثر السجود[7].

قيل فيه ربّما مبالغة في تعظيمه: صلّى أربعين عاما صلوة الفجر بوضوء المغرب وحجّ أربعين حجّة ماشيا، يُحيي الليل بركعة واحدة ويُرَجع آية واحدة، جمع بين علوم الدين والدنيا، حتى وصفه أحدهم"كان عمرو إذا رأيته مقبلا، توَهمته جاء من دفن والديه وإذا رأيته متكلما، توَهمت أنّ الجنّة والنار لم تُخْلقا إلاّ له[8].

---

(1) آل عرّادة بن يربوع بن مالك، أنظر قبيلة تميم بالملحق رقم14، ص169.
(2) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص35.
(3) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص43. البغدادي:الفرق بين الفرق، ص87.
(4) إبن النديم:الفهرست، ص203.
(5) قيل:142هـ/760م ، 143هـ/761م ، 144هـ/762م ، 148هـ/766م.
أنظر، يحي هاشم حسن فرغل:الفرق الإسلامية في الميزان، دار الآفاق العربية، مصر، الطبعة الأولى 1428هـ /2007م، ص180.
(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص137.
(7) إبن النديم:المصدر السابق، ص203.
(8) إبن المرتضى:المصدر السابق، ص36.

تجلّى زهده من خلال ربْط علاقته بالله و دليلا على رفع الله لمكانته بشدّة تواضعه، ظهر هذا من خلال دعائه "اللهم أغنني بالإفتقار إليك ولا تفقرني بالإستغناء عنك"[1]، شديد الحرص لدرجة أنّه لا يدع باب بيته مفتوحا ولا يفتحه لمن لا يُصَرِحْ بإسمه[2] ولا يعني ذلك إحتكاره للعلم بل العكس.

في ذلك مصدرًا على ما يبدو لحرص الجاحظ فيما بعد وكيف لا يكون بهذه الصفات وكان تلميذا للحسن البصري وروى عنه الكثيرمن سيرته الفعلية اليومية، حتى كيف يأتي صلاته بنعله[3]، دليلا على دوام ملازمته له هذا من جهة ومن جهة أخرى، بدا لي الجاحظ في كل ما ذكره من سيرة هذا الرجل، تبرئة له من النفاق والحسد والبخل ومن ثمَّ البدع.

كان يجلس إلى القاص الفضل بن عيسى الرقاشي، الذي وصفه الجاحظ بأنّه من أخطب الناس والإجادة في القصص[4] من أصحاب الخطب القصار و ذو بيان، لا يكاد يتكلم و إن تكلم لم يكد يطيل وهو القائل:"لا خير في المتكلم، إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه وإذا طال الكلام، عُرضت للمتكلم أسباب التكلف ولا خير في شيئ يأتيك من التكلف"[5]، له تعريف للبلاغة "ما بلغ بك الجنّة وعدَلَ بك عن النار وما بصَّرك مواقع رشدك وعواقب غيِّك"[6].

من المحافظين على وحدة المجتمع والناهين عن النميمة، التي على ما يبدو كانت متفشية بين الناس من الحسد، فقال له رجل:إنّي لا أرحمك ممّا يقول الناس فيك، فردّ عليه:أسمعتني أذكر فيهم شيئا؟، قال:لا، فأجابه عمرو:إيَّاهم فارحم[7].

وفي ذلك تطبيق لقاعدة المسلم من سلم الناس من لسانه ويده وربّما ذكره الجاحظ بما يشبه الحسن في خصاله ومعاملاته، خاصة فيما يتعلق بإبعاد نفسه عن الفتن، التي أساسها الأول اللسان، كون أغلب الفتن التي شهدتها الدولة الإسلامية، كانت في معظمها كلامية.

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص220.
(2) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص ص337،338.
(3) الجاحظ:البيان والتبيين، ج4، ص103.
(4) الجاحظ:نفس المصدر، ج1، ص206.
(5) الجاحظ:نفس المصدر، ص61.
(6) الجاحظ:نفس المصدر، ص80.
(7) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص93.

يؤكد الجاحظ أنّه كان ممّن يأخذون بالنص القرآني، أي ليس صاحب بدعة، من ذلك عند ما سُئِل عن صرع الشيطان للإنسان؟ فردّ:لو لم يــكن ذلك، لما ضــرب الله به المثل لآكل الربا، ثم تلا الآية الدالّة، هذا كحالة عامة ولكنّه لمّا رآى رجل مصروع وسُئل، ردّ:أمّا هذا بعينه، فلا أدري، أمِنْ فساد مِرّة وبلغم أم من شيطان؟ وما أنْكر أن يكون خبط شيطان وصرعه وكيف لا يجوز مع ما سمعنا في القرآن؟[1]، أي كان يتبـين الأمر قبل إصدار الحكم عليه باستعمال الشك، إذ لم يكتف بما رآى، بل ذهب إلى التبين باستخدام العقل وفي ذلك تطور عن طريقة واصل وتشابه مع الجاحظية.

يظهر ما ذهب إليه الحسن في المحافظة على الدين والأخلاق وتذكرة الناس بالعمل للآخرة بحديثه عن الموت، إذ عزّى أخا له بقوله منبِّها إيّاه إلى محاسبة نفسه على ما يبدو:ذهب أبوك وهو أصلك وذهب إبنك وهو فرعك، فما حال الباقي بعد ذهاب أصله وفرعه[2]؟ وبالتالي دعوته إلى الإستعداد للموت بما هو أنفع.

ورغم كل هذه السيرة التي بدا فيها في قمّة العدل من معاملاته، قيل :أنّه لمّا حضرته الوفاة، قال:نزل بي الموت ولم أتأهب له، اللهم إنّك تعلم أنّه لم يسنح لي أمران، لك في أحدهما رضا لي في الآخرة هوى، إلاّ إخترتُ رضاك على هواي، فاغفرلي[3].

2- عقيدتــــــــه:

لعمرو بن عبيد نفس إعتقاد واصل وكيف لا وهما مؤسِسَا فرقة المعتزلة، فقط أضاف عليه بتفسيق أحد الفريقين لا بعينه، بأن قال:لو شهد رجلان من أحد الفريقين، مثل علي ورجل من عسكره، لم تُقبل شهادتهما وفيه تفسيق الفريقين وكونهما من النار[4]، ربّما قصدَ بذلك العدل بينهما في الجزاء الأخروي، لكن في ذلك أيضا إحياء الفتنة من جديد.

---

(1) الجاحظ:البغال، قدمه وشرحه الدكتورعلي بو ملحم، دارمكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط3، 1429هـ/2008م، ص123.
(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص84.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص126
(4) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص43. البغدادي:الفرق بين الفرق، ص87.

فالظاهر أنّ الحل الذي قدّمه واصل لهذه القضية بتفسيق أحدهما لا بعينه، زاد الفتنة، فما ذهب إليه خاصة وأنّ كلاهما، قد تعامل دون روية، حتى أدخل الأبرياء موقعتين، مات فيهما الكثير من المسلمين وهذا ربّما كان دليلا على حكمته ومن ثمّ فقط ردّ كلا منهما إلى محاسبة نفسه على ما إرتكب ورغم ذلك فقد فضّل البعض الحجّاج وشرّه عليه، بقولهم: "أنّ الحجّاج قتل الناس على الدنيا، بينما عمرو بن عبيد أحدث للناس بدعة، فقتل الناس بعضهم بعضا"[1].

3 - علاقة واصل بن عطاء بعمرو بن عبيد:

لم يعرف عمرو واصل إلاّ من خلال حضوره مجالس الحسن حسب إبن المرتضى، مرّ واصل ذات يوم بعمرو بن عبيد، فأقبل عليه بعض مستحقيه، فقال:هذا الذي تعدّونه في الخرس، ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج[2] وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائرالمخالفين والردِّعليهم منه، فقال عمرو:أنّى هذا وله عنقٌ، لايأتي منها بخير[3].

يظهر من هذا مدى تواضع واصل بعلمه، ما أفشل فراسة عمرو في تصنيفه، فاعتمد في الحكم عليه من مظهره، أخذا بما رأته عينه فقط، حتى شابه في قوله هذا هجاء الشعراء لبعضهم، أي يثبت الجاحظ أنّ حالة التبين غير ثابتة عند عمرو وبالتالي ليس الشك عنده بقواعد مثلما هو عند الجاحظ.

صار واصل صهرا لعمرو، إذ زوَّجه أخته، التي أكّدت التفاضل بين زوجها واصل وأخيها عمرو، قالت:بينهما كما بين السماء والأرض، ذكرت سرائر واصل، من أنّه كان إذا جنّه الليل صفّ قدميه، يصلي ولوح ودواة موضوعان، فإذا مرّت به آية فيها رد على مخالف جلس، فكتبها، ثم عاد في صلوته[4] وفي ذلك إعتراف بدوره الجليل في إستعمال الدليل العقلي من القرآن، لإفحام المرتدين وغيرهم وكذلك تفسيرا أيضا للمودّة القائمة بين أخيها وزوجها لدرجة أنّ عمرو كان يتقبل عتاب واصل له.

(1) إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص257.
(2) كان واصل لمعرفته بمبادئ الخوارج، إذا مرّ بمعسكرهم، يدّعي أنّه مشرك مستجير، ليسمع كلام الله ويفهم حدوده، فكان يجد منهم الإستجابة ويجيروه ويُعلموه أحكامهم، ثم يتركونه مع أصحابه، ليمضوا.
أنظر، المبرد:الكامل، ج3، ص165.
(3) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص ص29،30.
(4) إبن المرتضى:نفس المصدر، ص ص31،32.

تبيَنَ إنتسابه إلى مدرسة الحسن من رسالة[1] أرسلها إليه واصل، يبلغه تخوفه منه إزاء المخالفات التي قام بها "اللهم إنّي قد بلّغت، ما بلغني عن رسولك وفسّرت من محكم تأويلك، ما قد صدّقه حديث نبيك، ألا وإنّي خائف عمرًا، ألا وإنّي خائف عمرًا، بشكاية لك إلى ربّه جهرا وأنت عن يميني أبي حذيفة، أقربُنا إليه"[2].

كما يظهر أنّ الحسن كان له من يبلغه بتحركات تلاميذه بما فيهم عمرو ويطّلع على ما يكتبون ويقولون، تتبعا منه لنشر مواعظه ومدى سير تلاميذه على نهجه، ربّما في ذلك درءً منه لِمَا يُنسب إليه وقتها، خاصة فيما يخص التأويل والتفسير.

عاتب الحسن عمرو في رسالة من واصل جاء فيها "وقد بلغني كبيرما حمّلته نفسك وقلّدته عنقك من تفسير التنزيل ...، فدلّت شكاية الحسن عليك بالتحقيق بظهور ما ابتدعت ... فلا يغررك أي أخي، تدبير من حولك وتعظيم طولك وخفضهم أعينهم عنك إجلالا لك، غدا والله تمضي الخُيَلاء والتفاخر وتُجزى كل نــفس بما تسعى ولم يكــن كتابي إليك وتجليبي عليك، إلاّ لتذكيرك بحديث الحسن رحمه الله وهو آخر حديث حدَثَنَاهْ، فَأدِ المسموع وإنطلق بالمفروض ودع تأويلك الأحاديث على غير وجه وكن مع الله وجلا"[3].

يظهر من ذلك مدى تقبل عمرو عتاب واصل رغم أنّه عاتبه على أخطاء، وقع فيها"...وقد عرفتُ ما كان يُطعن به عليك ويُنسب إليك ونحن بين ظهراني الحسن"[4] وفي هذا وفاء للحسن وما كان من إعتزال فهو ليس عداء، بل هو ربّما تطور فكري، حول مسألة ما عالقة، رآها كل برُأياه أو ربّما حاول واصل تنبيه عمرو إلى ضرورة العودة عن ما قاله عن أهل الجمل وأهل صفين في عقيدته.

(1) أنظر، نص رسالة واصل إلى عمرو بن عبيد بالملحق رقم9، ص164.
(2) إبن عبد ربه:العقد الفريد، ج2، ص390.
(3) نفسه.
(4) إبن عبد ربه:نفس المصدر، ص389.

فجديده هذا، سيخلق فتنة أخرى بين أنصارهما، إلاّ أنّ عمرو كان على ما يبدو مُصرًا على رأيه، مؤكدا ذلك بقوله:"يؤتى بي يوم القيامة، فأُقام بين يدي الله، فيقول لي:لِمَ قتلت، فإنّ القاتل في النار؟، فأقول:أنت قتلته، ثم تلا الآية "وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَّنَمَ خَالِدًا فِيهَا"[1][2] .

يدل كل هذا على مدى تشدد شيوخ المعتزلة في الحديث وتأويله وروايته ويردون كثيرا ممّا لم يثبت من طرق موثوق بصحتها[3] و يظهر عمرو وواصل أنّهما، جمعا بين الحكمة والعفّة والعقل والعدل والرَوِيَةِ والأنَفَة وكله داخل في باب العفّة، أمّا الصدق والإحسان والمراقبة وحُسن الخلق، فهو في باب العدل[4]، إذن ما ذهب إليه الجاحظ من أمر عمرو بن عبيد وواصل، أنّهما كانا عفيفان وعادلان.

4 - موقف عمرو بن عبيد من بعض خلفاء بني أمية:

برز نشاط عمرو بن عبيد خاصة في بغداد وهذا لا يعني رفضه لسياسة كل حكّام بني أمية، بل العكس، أورد الجاحظ مدى حرصه في الأخذ ممّا خلّفه بعضهم من مواعظ خاصة من الخليفة عبد الملك بن مروان، فكان يستشهد في عرض كلامه بوصية زياد بن أبيه التي كتبها الخليفة عبد الملك وأمر الناس بحفظها و تدبر معانيها[5] وهي ما سبقنا الإشارة إليها سابقا.

تدور فحواها عن ما يشبه ما تدعو إليه القدرية، إذ بها دعوة إلى إمعان الناس عقولهم في ما يذهبون إليه من أفعال، يحاسبهم الله بها وأرى أنّ تركيزه على هذه الوصية، فضلا عن أن قدَرَ الإنسان بيده، فيه نوع من الإجلال لمعبد الجهني.

إن إجلال الجاحظ لعبد الملك بن مروان مستبعد خاصة وأنّ عامله الحجّاج هو قاتل زعيم القدرية الأول معبد ومن ثمَّ فأي حسنة للخليفة تُذكِرُ الناس بمعلم ولده سعيد و إلاّ ففي تاريخ بني أمية الكثير من الخُطب والوصايا المشابهة لها.

---

(1) سورة: النساء، الآية:رقم 93.
(2) إبن قتيبة الدينوري(أبومحمد عبد الله بن مسلم):تأويل مختلف الحديث، تحقيق رضى فرج الهمامي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبعة1426هـ/2005م، ص80.
(3) محمد كرد علي:أمراء البيان، ص385.
(4) إبن المقفع:كليلة ودمنة، ص14.
(5) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص23.

إذن هناك تواصل بين رجال القدرية فكرا وروحا، ثم إنّ إختلاف أهل السنّة والجماعة مع المعتزلة ليس كثيرا، لأنّ المسائل المختلف فيها لا تعبث بأصل من أصول الدين، فلكل منهما أدلة من الكتاب أو من تأويل بعض الأيات لإثبات قضيته[1].

5 - علاقته بالخليفة أبي جعفر المنصور:

يعدّ الخليفة أبو جعفر المنصور[2]المؤسس الحقيقي للدولة العباسية التي حلّت محل الدولة الأموية، لإقرار العدل وهووالد للخلفاء العباسيين، بمكـانة عبد الملك بن مروان في بني أمية ويبدو أنّ ذكر الجاحظ له ربّما لخلق مقارنة بينهما، ثم التنبيه إلى فضل القدريين في تبيان الحق للحكام، يعترف له الكثير بأنّه من بلغاء الخلفاء و ذوي السياسة و التدبير ومباشرته الأمور بنفسه[3].

يصفه الجاحظ بالداهية، الأريب، المصيب في رأيه السديد و كان مقدّما في علم الكلام و مكثرا من كتاب الآثار[4]، ربّما لِما لذلك من أثر في سياسته مع العلماء والرعية، وصفه السيوطي بأنّه"ذو هيبة و شجاعة و حزما و رأيًـا و جبـروتا، جمّاعا للمال، تاركا للهو واللعب كامل العقل، جيد المشاركة في العلم والأدب، فقيه النفس، ولي القضاء في عهده إبن أبي ليلى"[5] الذي ولي القضاء لبني أمية قبله و كان يفتي بالرأي [6] .

(1) محمد كرد علي:أمراء البيان، ص392.

(2) أبو جعفر المنصور136هـ/754م-158هـ/775م، الخليفة عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس،أمه سلامة البربرية، ولد عام 95هـ/714م، أدرك جده ولم يروعنه وروى عن أبيه، أول خليفة قرّب المنجمين.
أنظر، السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص 205وما بعدها.

(3) الثعالبي(أبو منصورعبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت429هـ):تحفة الوزراء، تحقيق حبيب علي الراوي والدكتورة إبتسام مرهون الصفار، دارالأفاق العربية، الطبعة الأولى1420هـ/2000م، ص115.

(4) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص65.

(5) إبن أبي ليلى، محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، العلامة الإمام مفتي الكوفة وقاضيها، ولد بعد 70هـ/690م، تربّي يتيم الأب، نظير أبي حنيفة في الفقه، صاحب سنّة، قارئا للقرآن، عالما به، أول من إستقضاه على الكوفة الأمير بن يوسف بن عمر الثقفي، قيل:عامّة أحاديثه مقلوبة، مات عام148هـ/765م.
أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج6، ص310وما بعدها.

(6) إبن النديم:الفهرست، ص256.

حسب الجاحظ، أبو جعفر المنصور كان لا يتثبت، بل يصدر أحكاما عشوائية، لا يستند إلى قاعدة دينية فيها، مثل إستشارته في أمر قتل أبي مسلم الخراساني[1] الذي حمل على عاتقه قيادة جيش الدولة العباسية، إستند على ما رُوي له من قتل الملك الفارسي شابور الأكبر لأحد وزرائه النصحاء[2]، فافتعل المنصور أسبابا لقتل أبي مسلم[3]، ثم وثب إليه و وثب عليه بعض من خدَمه بالسيوف[4].

ربّما إيراد الجاحظ لتفاصيل ما حدث لأبي مسلم، تبيان فساد جهاز العدالة عند الدولة العباسية بدءً بالخليفة المنصور أوربّما التنبيه إلى ما كان يخطط له المعتزلة وقتها بتأليب الجيش عليه وعلى حكومته الجديدة، فتنهار طاعة القادة له.

بل ذُكر أيضا أنّه ضرب الإمام أبو حنيفة[5] على القضاء و سجنه[6]، لأنّه رفض المنصب و كيف يقبل القضاء لخليفة كثُرت أخطاؤه على ما يبدو و لو وليَّه كان سيبدأ بمقاضاة الخليفة نفسه.

---

(1) أبو مسلم الخراساني، عبد الرحمن بن مسلم، يقال:عبد الرحمن بن عثمان بن يسار الخراساني، صاحب الدعوة، هازم جيوش الدولة الأموية والقائم بإنشاء الدولة العباسية، ولد عام100هـ/719م، أول ظهوره بمرو عام129هـ/747م ومتولي خراسان إذ ذاك، كان سفاكا للدماء، أول من سنَّ للدولة العباسية لبس السواد، قتل عام137هـ/755م.
أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج6، ص48وما بعدها.

(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص27.

(3) قال أبو جعفر لأبي مسلم الخراساني:
قَدْ إكْتَنَفَتْكَ خِلاَّتٌ ثَــــلاَثْ جَلَبْنَ عَلَيْكَ مَحْدُودَ الحُمَــامِ
خِلاَفُــــكَ وَإمْتِنَائُكَ تَرْتَمِينِي وَقَوْدُكَ لِلْجَمَاهِيرِ العِظَـــــامِ
أنظر،الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص66

(4) الجاحظ:نفس المصدر، ص67.

(5) أبو حنيفة، فقيه الملّة عالم العراق أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي مولى بني تيم الله بن ثعلبة، يقال:إنّه من أبناء الفرس، ولد عام80هـ/699م، كان خزّازا يبيع الخز، والده من نسا، قيل:أصله من ترمذ، كان ثقة لا يحدث بالحديث إلاّ بما حفظه ولا يحدث بما لا يحفظ، لم يُتهم بالكذب، ضربه إبن هبيرة على القضاء، فأبى أن يكون قاضيا، كان طويل الصمت، كثير العقل، مات شهيدا عام 150هـ/767م ببغداد.
أنظر، الذهبي:المصدر السابق، ج6، ص390وما بعدها.

(6) السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص206.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تعدّى إلى تعطيل العمل بإقامة الحد على مستحقيه فهذا الشاعر إبن هرْمة[1] الذي كان مادحا له، منحه ألفي دينار، فاستقلها ولمّا بلغ الخليفة ذلك قال:أما يرضى أنّي حقنت دمه وقد إستوجب إراقته ووفّرتُ ماله وقد إستحق تلفه وأقررته وقد إستأهل الطرد وقرّبته وقد إستجزى البُعْدَ"[2].

أرى في هذا تعمدا من الجاحظ في تغليظ عدم عدل الخليفة المنصور بإشارته إلى موافقته على عدم إقامة حدِّ السُكْر[3] عليه وكتب لعامله بالمدينة "من أتاك بابن هَرْمَة سكران، فاجلده مائة جلدة وإجلد إبن هرمة ثمانين"[4] وهو ما ذكره أيضا السيوطي، فكان رجال الشرطة، يمرون بابن هرمة مطروحا من السُكْر في سكك المدينة، فيقولون:"من يشتري مائة بثمانين"[5] وربّما موقف أبوجعفر هذا يفسر بوهن حالة إبن هرْمة الذي صار لا يفيق من السُكر، فهل يضرب الخليفة غائبا عن الدنيا بعقله؟.

لذلك أشار الجاحظ إلى قبح صفة السُكْر بأنّه مفتاح الشر وأيّد رأي سهل بن هارون "ثلاثة يعودون إلى أجّن المجانين وإن كانوا أعقل العقلاء، الغضبان و الغيران والسكران"[6].

وهذا ما يبين أهمية قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "تفقهوا قبل أن تسودوا"[7] ويؤكد ما ذهب إليه الجاحظ من أنّ الشعراء كانوا أرفع قدرا في دولة بني العباس على ما يبدو حتى رفع عنهم إقامة الحدود، لحاجتهم إليهم لردِّ مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم[8].

---

(1) إبن هرْمــــة70هـ/690م-150هـ/767م، إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة، كنيته أبو إسحاق، خاتم الشعراء المخضرمين، مدح خلفاء بني أمية، ثم خلفاء بني العباس، عاصر بشار، كان يحسن الهجاء، محب للخمر، قال الشعر للخليفة أبي جعفر المنصور.
أنظر، مصطفى الشكعة:الشعر والشعراء، ص82وما بعدها.

(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص65.

(3) إستشار عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب في الخمر فقال له: ترى أن تجعله ثمانين، فإنّه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى إفترى، فجلد عمر في الخمر ثمانين. ثم إنّ النبي لم يجعل للخمر حدّا معلوما، بل كان يقتصر في ضرب الشارب على ما يليق به وقال بعض أهل العلم: أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم أتى بسكران، فأمر بضربه وتبكيته، فدلّ ذلك على سبيل الحدِّ في السُكر، فدلّ ذلك أنّه لاحدّ في السكر بل فيه التنكيل والتبكيت ولو كان ذلك على سبيل الحدِّ لبيَّنه بيانا واضحا فلمّا كثر الشراب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، إستشار الصحابة ولو كان عندهم عن النبي شيء محدود لما تجاوزوه.
أنظر، إبن حجر العسقلاني:فتح الباري في شرح صحيح البخاري، م12، ص ص69- 75.

(4) مصطفى الشكعة:المرجع السابق، ص86.

(5) السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص211.

(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص ص157،156.

(7) الجاحظ:نفس المصدر، ص210.

(8) الجاحظ:نفس المصدر، ج4، ص145.

إنتقد عمرو بن عبيد الخليفة أبا جعفر بأنّ الإصلاح وفق العدل الذي يدعو إليه، يكون من القمّة الحاكمة على ما يبدو، للوصول إلى حكومة إسلامية مثالية، ربّما لمّا رآى نتائج تجربة واصل قبله مع القاعدة الشعبية، لذلك كان ينتقد الخليفة على كل تصرفاته، رغم صداقته له وله معه أخبار ووعظه عدّة دفعات بكلام مشهور معروف[1] .

ويبدو أنّه وصل بوعظه معه الهدف المراد، فكان المنصور يبالغ في تعظيمه، فانتبه بعض المتتبعين لتطورالمعتزلة ومآربهم إلي محاولات الإطاحة بحكم الدولة العباسية في بدايتها فقيل له يوما:أنّ عمرًا خارج عليك، فقال:"هو يرى أنّ يخرج علي إذا وجد ثلاثمائة وبضع عشرة مثله وذلك لا يكون"[2] وفي ذلك تعظيما من إبن المرتضى لعمرو .

رغبة من الجاحظ في إبرازأهمية رجال المعتزلة إلى جانب الحكام للإستشارة أورد أنّه دخل يوما عمرو على الخليفة أبي جعفر المنصور، فطلب منه أن يعظه، فقال له:"إنّ الله أعطاك الدنيا، فاشتري نفسك منه ببعضها، فلوأنّ هذا الأمر الذي صار إليك، بقي في يدي من كان قبلك، لم يصل إليك وتذكَرْ يوما، يتمحص بأهله لا ليلة بعده"[3].

ومن كثرة مصداقية وعظه للخليفة، صار لا يقدر على فراقه، فكان يبعث إليه بالسير إليه:وقد أمر له بمال في إحدى المرّات، فأبى رغم حلف الخليفة عليه، ثم طلب منه أن يسأله حاجته:فقال عمرو:أسألك أن لا تدعوني إليك حتى آتيك ولا تعطيني حتى أسألك[4] وهذا الأمر دفع الخليفة إلى القول بأنّ الكل يطلب صيد إلاّ عمرو بن عبيد[5] وهو مايظهرمدى قدرة عمرو على جذب الخليفة إليه بحلاوة لسانه وبلاغته وزهده في طلب الدنيا.

يبدو أنّ أسلوب عمرو في إستمالة الخليفة، كان وفق ما يشتهي خاصة وأنّه كان يقول:الملك يحتمل كل شيئ من أصحابه، إلاّ ثلاثًا، إفشاء السر والتعرض للحرم والقدح في الملك[6] وهذه المميزات التي ذكرها كلها توفرت في عمرو.

(1) إبن النديم:الفهرست، ص203.
(2) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص40.
(3) الجاحظ:البيان والتبيين، ج4، ص128.
(4) السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص209.
(5) إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص502.
(6) الجاحظ:المحاسن و الأضداد، قدّم له و شرحه الدكتور علي بو ملحم، دارمكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ص45.

ربّما وجد فيه العقل الذي إفتقده عند من حوله، فقد قيل:إسترشدوا العاقل، ترشُدوا ولا تعصوه، تندموا وبالتالي فالمشورة والآراء صناعة نفسانية صِرفة[1]، ممّا يثبت مدى أهمية المتكلمين المعتزلة إلى جانب الحاكم، خاصة لتنبيهه وإرشاده إلى طريق الحق، فالمنصور كان محتاجا إلى من يبَصره إلى طريق الحق ووثوقه في عمرو لأنّه تلميذ الحسن و صدقَ الذهبي في أنّ الخليفة أبو جعفر المنصور إغتر بزهده وأغفل بدعته[2].

يظهر أنّ تمكن عمرو بن عبيد من الخليفة، أدخل أفكارا جديدة مغايرة لِمَا هو معروف عند أهل السنّة و أصبح الإمام أبو حنيفة حسب رأي أحد فيه "أعلم بما لا يكون وأجهل الناس بما يكون"[3] .

ويبدو مدى تقدير الجاحظ للإمام أبي حنيفة، بما ذكره إجلالا لعلمه وكتبه "وقد تجد الرجل، يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لا يُعدُّ فقيها ولا يُجعل قاضيا، فما هو إلاّ أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين"[4] خاصة وأنّ ما يدعو إليه، يخص الأمور التي ناقشها عمرو وواصل لكنه بشكل مغاير في النتائج[5] ومن تأثيره هو وإبن أبي ليلى، قال فيهما الخليفة أبو جعفر المنصور بعد وفاتهما: "ما بقي أحد يُستحى منه"[6] ولمّا كان مارًا بقبره رثاه بشعر[7].

---

(1) الثعالبي:تحفة الوزراء، ص87.
(2) الذهبي:سير النبلاء، ج6، ص105.
(3) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص192.
(4) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص87.
(5) ممّا قاله:من أصاب الإيمان وضيّع الفرائض كان مذنبا وكان لله تعالى المشيئة إن شاء عذبه وإن شاء الله غفر له، فإن عذبه على تضييعه شيئا، فعلى ذنب إقترفه وإن غفر له، فذنبا يُغفر ومن قتل نفسا بغير حق أو سرق أو قطع الطريق فهو مؤمن فاسق وليس بكافر وإنّما يعذبهم الله بالإحداث في النار ويخرجهم منها بالإيمان ولا يُكفِر أبو حنيفة مسلما مذنبا بذنب من الذنوب ولا يزيل عنه إسم الإيمان ويسميه مؤمنا حقيقة ولا يقول: إنّ حسناتنا مقبولة وسيئاتنا مغفورة كقول المرجئة وما كان من السيئات دون الشرك والكفر يتب عنها صاحبها، حتى مات مؤمنا، فإنّه في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ولم يعذبه بالنار أصلا ولم يقل أبو حنيفة بترك العمل أو بإسقاطه فيما يتصل بالثواب والعقاب الأخرويين إذا كان هناك الإيمان، فهو لم يكن مرجئا بالمعنى الخالص ولا بالمعنى البدعي المذموم.
أنظر، محمد كرد علي:أمراء البيان، ص ص288وما بعدها.
(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص206.
(7) لمّا مات عمرو عام144هـ/761م رثاه بهذه الأبيات:

صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْكَ مِنْ مُتَوَسَــــدٍ   قَبْرًا مَرَرْتُ بِهَ عَلَى مَرّانِ قَبْــرا
تُضَمَن مُؤْمِنًـــــا مُتَخَشِعًـــــا   عَبَدَ الإِلَــهَ وَدَانَ بِالقُـــــرْآنِ
وإِذَا الرؤجَالُ تَنَازَعُوا فِي شُبْهَـةٍ   فَصلُ الحَدِيثِ بِحُجّةٍ وَبَيَـــــانِ
ولو أنّ الدَهْــرَأَبْقَى صَالِحًـــا   أَبْقَى لَنَا عَمْرًا أَبَـا عُثْمَــــانِ

أنظر، إبن المرتضى:المصدرالسابق، ص ص40،41.

ب - موقف أهل السنّة من المعتزلة:

لم تكن العامّة في مجملها، تريد الإنضواء تحت لواء أي حزب علويا كان أو خارجيا أو معتزليا، ربّما كون كل هذه التيارات، كانت تخدم مصالحها الخاصة، محتمية بالدين الإسلامي، في حين أنّ المسلمين خيرهم يرونه في إتباع السلف الصالح وإنّ مَثَّل هذا الموقف الإمام أبو حنيفة، فقد كان لشعراء أهل السنّة نفس الموقف، بما صرّح به أحدهم في شعره[1].

كما رأوا في دعوة المعتزلة إلى إمتلاك الإنسان لإرادته في أفعاله نوعا من التعرض لإرادة الله المطلقة والحد من سلطانه وقدرته المطلقة على سائر البشر ولم يكن أهل السنّة ينظرون نظرة رضى إلى إقحام الجدل العقلي في أمرالدين لذلك[2]، ربّما كان ذلك سببا في إلحاق الإشاعات بأهل القدر، من تكفيرهم أحيانا وضربهم في سلوكياتهم وتنجيسهم وغيرها من الآثام التي تصورهم للناس بمثابة الكَفَرةِ والمرتدين.

ممّا يبين لي أنّ التفحص في دراسة الآيات القرآنية وقتها كان قليلا وهو فعلا الثغرة التي إتخذها القدريون لتفكيك جبهة أهل السنّة والطمع في إنظمامهم إلى مذهبهم وبالتالي فدعاة المعتزلة، كان لهم فضلا عن دورهم في إقناع الدخلاء الجدد في الإسلام وغيرهم من أهل العقائد الأخرى، أن يجدوا سُبُلا لإقناع أهل السنّة بما في حقيقة إدّعائهم.

يبدو أنّ أهل السنّة كانوا من كثرة تشابه الفرق الكلامية مع الشيعة، يرونهم فرقة واحدة ربّما لِمَا سمعوه عن ما أخذه المعتزلة الأوائل من إبن الحنفية، خاصة وأنّ الرافضة الذين زعموا أنّ عليًّا رضي الله عنه في السحاب[3]، كانوا يرفضون خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وبالتالي فهم من الناقمين على أي حاكم سُنِّي أمويا كان أو عباسيا، إذ ينتظرون المهدي المنتظر، فيملؤها عدلا، كما مُلِئت جَوْرًا ويُحْيِي لهم موتاهم، فيرجعون إلى الدنيا ويكون الناس أمّة واحدة[4].

---

(1) قال أحد الشعراء السُنيين:
بَرِئْتُ مِنْ الخَوَارِجِ لَسْتُ مِنْهُمْ   مِنَ الغَزَالِ مِنْهُمْ وَإبْنَ البَـــابِ
وَمِنْ قَوْمٍ إِذَا ذَكَـــرُوا عَلِيًّـــا   يَرُدُونَ السَلاَمَ عَلَى السَحَـــابِ
وَلَكِنِـــي أُحِبُ بِكُلِ قَلْبِـــــي   وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَاكَ مِنَ الصَـــوَابِ
أنظر، الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص20.

(2) إحسان النص:الخطابة في عصرها الذهبي، ص116.

(3) المبرد:الكامل، ج3، ص195.

(4) إبن عبد ربه:العقد الفريد، ج2، ص408.

يتجلّى من خلال الشعر السابق، مدى تنبه شعراء أهل السنّة إلى خطورة الشيعة والمعتزلة، اللتين يدَّعي كل منهما الفكر الحر، عكس أهل السنّة وبالتالي الإشتراك في فكرة القول بالإمام الغائب جزء من قول أصحاب العدل والتوحيد[1] .

أو ربّما في ذلك تنبيه إلى خطورة الفرع الشيعي المعتدل الزيدية أيضا رغم كون الزيدية كلهم معتزلة[2]، الذي كان يلقى إهتماما عند خلفاء بني العباس، ناهيك عن الرافضة، لذلك ذهب إبن عبد ربه إلى ما وصف به أحد الرافضة كلها "أُحَذِرك الأهواء كلها المُضِلّة شرها الرافضة، فإنّها يهود هذه الأمّة، يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية و لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتا في الإسلام وبغيا عليهم"[3].

إختلفت نظرة الشيعة إلى بني أمية وحُكم بني العباس، فانقسوا إلى فِرق، تغذت بديانات أخرى، كاليهودية والزرداشتية والنصرانية عند المتطرفيـن منهم وتأثـرت بالفلسفات المختلفة والقول بالحلول[4] والتناسخ[5]، مازاد الشُقَة بينهم وبين أهل السنّة، فكانت فرقتا المغيرية[6] والمنصورية[7]، ذكرالجاحظ أنّ الغيلة من سجاياهما وأنّهما من الغالية[8]، التي رآى خطورتها على التوحيد ونبَّه المعتزلة إليها.

---

(1) آدم متز:الحضارة الإسلامية، ج1، ص104.

(2) حسين مروة:النزعات المادية في الفلسفة العربية- الإسلامية(المعتزلة،الأشعرية،المنطق)، م2، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2002م، ص118.

(3) إبن عبد ربه:العقد الفريد، ج2، ص409.

(4) الحلـــــــول، القول بأنّ روح الله تعالى، حلّت في شخص ويعتبرهذا الشخص إلها ومنه ظهرت الحلولية القديمة وفي الفرق الإسلامية من إعتقد بها، مثل السبئية، المقنعية، الحلاّجية وغيرها وهناك من قال:أنّ الحلولية هي إحدى فرق المتصوفة. أنظر،عبد القادرصالح:عقائد وأديان، ص ص117،118.

(5) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص176.

(6) المغيريـــــة، أتباع المغيرة بن العجلي ت119هـ/737م، من أهل الكوفة، كان يظهر أول أمره موالاة للإمامية، يقول:إنّ الإمامة بعد علي والحسن والحسين إلى سبطه محمد بن عبد الله بن الحسين بن علي، قال:أنّه المهدي المنتظر، إدّعى النبوة وقدرته على إحياء الموتى، أفرط في التشبيه، أعضاء هذا الإله على صورة حروف الهجاء، الألف هي قدميه والعين على صورة عينيه.
أنظر، عبد القادرصالح:المرجع السابق ، ص265.

(7) المنصوريـــــة، أتباع أبي منصورالعجلي، من عبد قيس، بالكوفة، يرى أنّ الإمامة دارت في أولاد علي وإنتهت إلى أبي جعفر بن محمد علي بن الحسين بن علي "الباقر"، إدّعى أنّه خليفة الباقر، ألحد في دعواه، وأنّه عُرج به إلى السماء كفرت المنصورية بالجنّة والنار، تأوّلوا الجنّة على نعيم الدنيا والنارعلى محن الناس.
أنظر، عبد القادر صالح:نفس المرجع، ص267.

(8) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص16.

إدّعى زعيم الفرقة المغيرية الإمامة لنفسه، ثم إدّعى النبوة لنفسه وغلا في حق علي رضي الله عنه بقوله بالتشبيه "إنّ الله تعالى صورة وجسم ذو أعضاء، له صورة رجل على رأسه تاج من نور وله قلب تنبع منه الحكمة[1] وهو ما يسمح بظهور الخرافات حول هذه الشخصية الأسطورية، ما يجعل العامّة أكثر شعبية وإنتظارا له .

ما يؤكد ضرورة الدعوة إلى التوحيد ومن ثمَّ فأهل العدل في العهد الأموي هم أهل العدل والتوحيد في العهد العباسي وبالتالي فأهل السنّة إعتبروا الشيعة الغالية وكذا الواصلية وما زاد عمرو بن عبيد بِدَعًا وجب محاربتها.

كما إدّعى زعيم المنصورية الإمامة لنفسه وأنّ عليا هو الكِسْف الساقط من السماء، عُرج به إلى السماء ورآى معبوده، فمسح بيده على رأسه وقال له:يا بني، إنزل فبَلِغْ عني، ثم أهْبطه إلى الأرض، فهو الكِسف الساقط من السماء وأنّ الرُسل والرسالة لا تنقطع أبدا وإستحّل أصحابه قتل مُخالفيهم وأخذ أموالهم[2].

يبدو لي أنّ الإدِّعاءات السالفة للشيعة، تزيد في تجهيل العامّة، فغياب العدل وسِّع دائرة هذه الأفكار الغريبة عن الإسلام خاصة في العهد العباسي وهو ما جعل العامّة تزداد تمسكا بفكرة المهدي المنتظر، الذي روَّجت له ورغم ذلك هناك فِرق عُرفت بإعتدالها كالزيدية، التي جعل الجاحظ مؤسسها زيد بن علي بن الحسين من الخطباء[3].

ساقت الزيدية الإمامة في أولاد فاطمة ولم تُجوز ثُبوت إمامة من غيرهم وتشترط العلم والزهد والشجاعة في كل فاطمي حتى يكون إماما واجب الطاعة ومن أئمتهم من خرج أيام الخليفة المنصور وهما محمد وإبراهيم إبني عبد الله بن الحسن بن الحسين، فقُتلا على ذلك[4].

(1) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص180.
(2) الشهرستاني:نفس المصدر، ص182.
(3) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص209.
(4) الشهرستاني:المصدر السابق، ص ص154،155.

يظهرأنّ الفرع الشيعي المُعتدل أيضا، يريد الإطاحة بالحكم العباسي والمنافسة على الحكم وهناك الكثير من الأدلة المؤكدة لرغبة التيار العلوي في الإستيلاء على الحكم، منها التهدئة الذكية التي أقدم عليها الخليفة المأمون، لجمع شمل آل البيت عباسي-علوي، بجعل الوصية بولاية العهد من بعده لعلي بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فألزم الرضا بذلك، فامتنع، ثم أجاب[1].

وهكذا يتبين أنّ إستعمال العقل، يحل المشاكل العالقة، التي يتخبط فيها المسلمون بدءً من مشكل الخلافة، لذلك فالخليفة المأمون المناصر للمعتزلة، حاول حقا إنهاء الفتن، لكنه وقع هو نفسه في فتنة، فتنكر العباسيون ببغداد له وصلّى الناس الجمعة أربع ركعات، ثم إنصرفوا وذلك يوم الجمعة ليلتين من ذي الحجّة عام201هـ/817م[2].

ت - نشـــاط الترجمة وآثـــــاره:

كانت الترجمة في أوجها زمن العباسيين خاصة زمن الخليفة المأمون، تشكل مظهرا رئيسيا من مظاهر تلك التاثيرات الأجنبية على الحضارة الإسلامية وعموم المجتمع العربي الإسلامي وذهنياته وعاداته.

إذ تقوَتْ بإفساح المجال للعناصرغيرالعربية وعلى رأسهم الفرس لممارسة ليس فقط الدورالسياسي، بل الفكري والإجتماعي، فتُرجمت زمن الخليفة أبو جعفر المنصور الذي كان ميّالا لدراسة علم النجوم[3] وإهتم بترجمة كتب الهند منها كتاب إسمه - سيد هنتا- إلى العربية حول حركة النجوم[4].

(1) الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج10، ص274.
(2) الطبري:تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص604.
(3) يحي وهيب الجبوري:الكتاب في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى1998م، ص143.
(4) زيغريدهونكة:شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فؤاد حنين علي، مكتبة رحاب، الجزائر، طبعة1406 هـ /1986م، ص284.

قرّب إليه المنجمين وتُرجم في عهده كتاب كليلة ودمنة الذي تناول إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس، جلبه برزويه الحكيم الفارسي من الهند إلى ملك الفرس أنوشروان بن قباذ وترجمه له من الهندية إلى الفارسية، ثم ترجمه عبد الله بن المقفع، كما ترجم كتب أرسطو[1] في المنطق[2]، فالأكيد أنّ هذه الترجمات خاصة لعلم الفلك، قد فتح الباب للخرافات وأخلّ بمبدأ التوحيد بإشراك النجوم والكواكب في تحديد سيرورة الإنسان.

في عهد الخليفة هارون الرشيد نشطت حركة الترجمة والتأليف وتصنيع الورق وإنتشاره لرُخص ثمنه وسهولة حمْله وتيسرت الكتابة عليه، كما أغدق على العلماء الهبات، فنشطت أُسر في حركة الترجمة، كأسرة البرامكة وعلى رأسها يحي بن خالد[3]، الذي عرَّب كليلة ودمنة، من محبِّي الحكمة والكلام والنظر، في أيامه كثُر المتكلمون وجادلوا وناظروا ووضعوا الكتب[4].

أمّا في عهد الخليفة المأمون، الذي عُدَّ من كبارالعلماء[5]، فاستخرج كتب الفلاسفة اليونان من جزيرة قبرص[6] وبلغت الحركة العلمية في عهده أوجها، لأنَّه كان محبّا للعلوم والفلسفة، فتُرجمت الكتب الفلسفية، رغم نفورالمسلمين منها، فشكّل مجمعا علميا للقيام بحركة الترجمة[7]، لتبرزشخصية المترجم حنين بن إسحاق[8].

---

(1) أرسطو، أرسطوطالس384ق.م/332ق.م، فيلسوف يوناني، له مؤلفات عديدة في المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق، أهمها كتاب ما بعد الطبيعة.
أنظر، الشهرستاني:الملل والنحل، ج2، ص192.

(2) يحي وهيب الجبوري:المرجع السابق، ص144.

(3) يحي بن خالد، إبن برمك الوزيرالكبير، أبوعلي الفارسي، أكثرحزما وسياسة وعقلا ضمّه المهدي إلى إبنه الرشيد ليربيه ويثقفه، ردّ إليه مقاليد الوزارة، مات بالرقة عام179هـ/795م.
أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج9، ص89.

(4) زيغريد هونكه:شمس العرب تسطع على الغرب، ص147 .

(5) السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص236.

(6) السيوطي:نفس المصدر، ص249.

(7) زيغريد هونكة:شمس العرب، ص284.

(8) حنين بن إسحاق، الطبيب النصراني العبّادي، نسبته إلى العبّاد، قوم من نصارى العرب من قبائل شتى، إنفردوا عن الناس في قصور، إبتنوها بظاهرالحيرة وسُميوا بالعُبّاد، والده صيدلانيا بالحيرة، نشأ حنين وإنتقل إلى بغداد، حضرمجلس بن ماسويه، كان صاحب سؤال، تعلم اللغة اليونانية في بلاد الروم، توسع في تحصيل كتب الحكمة، عاد إلى بغداد وإرتحل فارس، فالبصرة، لزم الخليل بن أحمد، برع في اللسان العربي، ترجم لجبريل بن بختشوع، أصبح عارفا بالنقل والتفسير إشتهرأيام الخليفة المتوكل، مات مسموما.
أنظر، إبن العبري(غريغوريوس الملطي):تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه ووضع حواشيه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، طبعة1958م.

إجادةً منه لمادته التي يترجم منها، كان يسمح لنفسه بشرح وتبسيط العبارات العويصة، التي يذكرها المؤلف، كما يقدم لكل كتاب بترجمة لمقدمة العالم الخبير ويُعَلِق عليه ببعض الشروح والتفسيرات، كما إشتهر بدقته، لا يُقدمُ على الترجمة إلاّ بعد الحصول على ثلاث مخطوطات على الأقل من الكتاب المراد ترجمته، يقابل بينها و يُقَوِم نصّها و يصححه إذا ما دعت الحاجة إلى هذا[1].

يبدو أنّ هذا النشاط المكثف في حركة الترجمة، لم يُؤد الهدف المرجو منه خاصة على المستوى الديني، لذلك يرى الجاحظ أنّ الترجمة قد تكون صحيحة نسبيا لكل المعارف ما عدا الجانب الديني "المترجم حتما ستكون له أخطاء في تأويل كلام الدين والخطأ في الدين، أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء وفي بعض المعيشة، التي يعيش بها بنوآدم"[2] .

وهذا سيُدخل حتما بدعا ولو بشكل غير مقصود، تجعل العامّة تميل إلى تصديقها باعتبارها فاقدة للتشكيك "إنّ الفلسفة اليونانية ومَن أشبهها من عقلي في الإلهيات، كان حُقنة مسمومة لتراثنا الديني النظيف"[3].

2 - شخصيات فــرق المعتزلــة الأخرى:

لم يذكرالجاحظ الكثير عن أخبارها ربّما تخوفا من ردِّ فعل أصحابها، إذ بعضا منهم كان لا يزال حيا و يلتقي به في قصور الخلفاء أو لخطورة أتباع من مات من أصحابها أو ربّما لأنّ الجاحظ كان لا يريد إهانة من تتلمذ لهم وأخذ مبادئ الإعتزال منهم، كما أعتقد أنّ أخلاق هؤلاء لا تتفق والزهد الذي ربط به الجاحظية، لذلك كـان الكتاب غُفْـلا في ذكـرها ورغم ذلك ذكر بعضا من رجالها.

(1) زيغريد هونكه:شمس العرب، ص288.
(2) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص78.
(3) محمد الغزالي:الإسلام والطاقات المعطلة، دارالبعث، قسنطينة، الجزائر1407/10/03م، ص86.

أ- إبراهيم بن سيّار النظام(ت234هـ/849م):

هو أبو إسحاق بن سيّار بن هاني النظام مولى الزياديين، من ولد العبيد قد جرى عليه الرق في أحد أبنائه[1]، يعترف له الجاحظ بالفضل على ما قدّم للعامّة هو وزُمرة المتكلمين وعلى ما قدّمه له في بدايات الطريق الكلامي عنده "إنّه لو لا مكان المُتكلمين، لهلكت العوام من جميع الأمم و لو لا مكان المعتزلة، لهلكت العوام من جميع النِحل، فإن لم أقل و لو لا أصحاب إبراهيم، لهلكت العوام من المعتزلة، فإنّي أقول:إنّه قد نهج لهم سُبُلا وفتّق لهم أمورا وإختصر لهم أبوابا، ظهرت فيها المنفعة وشملتهم النعمة"[2].

بدا الجاحظ مُعجبا بأستاذه، واثقا فيما قدّمه له من معارف كلامية وفقهية بقوله:"ما رأيت أحدا أعلم بالكلام والفقه منه"[3]، حتى قيل:"إنّه من أصحاب النظــام وكـان واسع العلم بالكلام كثيرالتبحُر فيــه، شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا"[4].

محذرا من الإفراط في الثقة للأخذ من كل مفسري القرآن"لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصّبوا أنفسهم للعامّة وأجابوا في كل مسألة، فإنّ كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير أساس وكلّما كان المفسر أغرب عندهم، كان أحَبُ إليهم...فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم"؟[5].

---

(1) إبن النديم:الفهرست، ص205.
(2) الجاحظ:الحيوان، ج4، ص206.
(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص187.
(4) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص75،76.
(5) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص343.

عُدّ في طبقة الإعتزال السادسة، ذو منشأ بصري[1] وتعظيما لمعرفته، بالغوا في أمره لدرجة فاقت الإلهام[2]، أنّه كـــان لا يقرأ ولا يكتب ورغم ذلك حفظ القرآن والإنجيل والزابور و تفسيرهما، مع كثرة حفظه للأشعار والأخبار وإختلاف الفُتيا، كانت له طريقة تسمى النظامية[3]، فضلا عن موافقته بقية المعتزلة في القواعد الإعتزالية الخمسة، إنفرد في النظامية بجملة مبادئ، أكدّت تعمقه في مسائل مختلفة تتويجا لما تأثر به من دراسات.

كان الجاحظ مُلازما له، حتى عرف أدّق طباعه، عدم كتمان السر"كان أضيق صدرا بحمل السر وكان شرَ ما يكون عليه، إذا أكّد عليه صاحب السر وإذا لم يُؤكد عليه، ربّما نسي القصة، فيسلم صاحب السر"[4] وربّما إيراده لهذا الطبع عنده، كان نفيا منه لما أُشيع عن أهل الإعتزال، من كتمانهم السر.

باتساع دائــرة معارفــه حـول علـم الكـلام وجواهــره، كانت كُتُبه محلّ إطّــلاع الجاحظ الذي علّق عليها بقوله:"وله كُتبُ كثيرة، مشهورة، جليلة في نُصرة الدين وفي حكاية مذهب المُخالفين وفي الآداب والأخلاق وفي ضُروب من الجدّ والهزل و قـــد تداولها الناس وقرؤوا فضلها وإذا تدّبر العاقل المُميز أمر كُتبه، علِم أنّه ليس في تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الإعتزال إلى القلوب كُتبٌ تُشبهها"[5].

شكّك الجاحظ في بعض ما جاء به النظام "ذهب النظام بالقول إلى أنّ الطاعات، إذا إستوت، إستوى أهلها في الثواب وأنّ المعاصي إذا إستوت، إستوى أهلها في العقاب, إذا لم يكن منهم طاعة ولا معصية، إستووا في التفضُل سواء، كما أنّ أطفال المشركين والمسلمين كُلهم في الجنّة وليس بين الأطفال ولا بين البهائم والمجانين فرق وأضاف:"أنّ هذه الأبدان السُبّعية والبهيمية، لا تدخل الجنّة ولكن الله ينقل أرواحها، فيُركِبُها في أي الصُورأحب[6].

---

(1) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص49.
(2) الإلهــام، هو الفعل الذي يكشف به الله للإنسان عن الحقائق التي تتجاوزعقله.
أنظر، جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص570.
(3) أنظر، مبادئ النظامية بالملحق رقم4، ص161.
(4) الجاحظ:الحيوان، ج5، ص187.
(5) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص76.
(6) الجاحظ:الحيوان، ج3، ص395.

هذه المزاعم التي ذكرها الجاحظ، جعلته يدخل في مناظرات مع النظام، سعى من وراءها إلى إستزادة معارفه بما عند خصمه وهو ما ذهب البعض إليه"إجعل تعلمك دراسة لعلمك وإجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك[1].

إذ لا يُعقل أن تتقبل الخاصة أو العامّة التي أكثرها من أهل السنّة أنّ أرواح الكلاب و غيرها من الحيوان، تدخل الجنّة والفرق واضح لديها بين فعل العبد وفعل الحيوان كما يعترف بدوره في مناظرة المانويين الذين يزعمون بأنّ العالم بما فيه، من عشرة أجناس خمسة منها خير ونور وخمسة منها شرٌ وظلمة و كُلها حاسة وحارة و أنّ الإنسان مُركَب من جميعها[2].

تعلّم الجاحظ منها دورالشك في الوصول إلى اليقين[3] خاصة وأنّه صرّح بأنّه نازع من الملحدين الشاك والجاد، فوجد أنّ الشاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود"الشاك أقرب إليك من الجاحد ولم يكن يقين قط، حتى كان قبله شك ولم ينتقل أحد عن إعتقاد إلى إعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك"[4] وهو عينه أساس الجاحظية.

عُرف النظام بمُطالعته لكُتب الفلاسفة وخلط كلامه بكلامهم[5] وتعرَف على حضارة الفرس والهند وتأثر بالفكر الإغريقي في بلده وكذا المسيحي[6]، أي جمع علمه من نفس طرق جمعه التي تدعو إليها الجاحظية.

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص185.
(2) الجاحظ:نفس المصدر، ص442.
(3) اليقيـــــن، الإعتقاد الجازم المطابق الثابت، الذي لا يزول بتشكيك المُشكك وهو حالة ذهنية تقوم على إطمئنان النفس إلى الشيئ مع الإعتقاد أنّه كذا وأنّه لا يمكن أن يكون إلاّ كذا واليقين نقيض الشك وله في الفلسفة ثلاثة أقسام:الأول واقعي أوالطبيعي والثاني الجازم، المتعلق بإدراك الحقائق البديهية والحقائق النظرية، فإذا كانت الحقائق بديهية كالأوليات مثلا كان يقينا حدسيا مباشرا، أمّا اليقين الأخلاقي، فهو إقتناع المرء، بأنّه يستطيع، أن يتخذ إزاء ما يعتقد حقيقته قرارا موافقا وإن كان الإقتناع لا يتنافى مع إمكانية الخطأ.
أنظر، جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص588.
(4) الجاحظ:الحيوان، ج6، ص ص35،36.
(5) الشهرستاني:الملل، ج1، ص47.
(6) Albert Nader ;L e système philosophique des m’utazila(les premier penseur de l’islam),p29.

وفي كتاب البيان والتبيين، يشير الجاحظ إلى عدم إهتمام النظام بأخطاء اللغة العربية التي يرتكبها الناس في كلامهم، فبينما هو جالس إلى جماعة متكلمين قال له خادم صاحب المنزل: قد أدرك طعامنا فتحوَلوا، فلم ينتبه النظام وجماعته إلى الخطإ[1]، هذا يدل أنّه لم تكن تهمه اللغة و إنّما فقط تعريب الفكر اليوناني والفارسي وكذا الهندي وقتها.

ب- أبوالهُذيل العلاّف (134هـ/752م-235هـ/850م):

أبوالهُذيل محمد الهُذيل العبدي[2]، من أهم الشخصيات التي تتلمذ لها الجاحظ، يُعدّ في طبقة الإعتزال السادسة[3]، لم يلق واصلا ولاعمرو بن عُبيد[4]، قيل عنه:أنّه نسيج وحده وعالم دهره، لم يتقدمه أحد من الموافقين له ولا المخالفين، لُقب بالعلاّف لأنّ داره بالعلاّفين بالبصرة له ستين كتابا في الردّ على المخالفين، في دقيق الكلام وكان النظام من أصحابه[5].

عُرف أبوالهُذيل بمناظراته مع الثنوية وغيرهم، يقطع الخصم بأقل الكلام، حتى أسلم على يده ثلاثة ألاف رجل، ما يؤكد قدرته على الإقناع، حتى كان أحد المقبولين في مجالس الخليفة المأمون، الذي وجد عنده قبولا، كونه تشيّع لبني هاشم و فضّل عليا على عثمان رضي الله عنه، فاق ثُمامة في مجلس الخليفة و شهد ثُمامة نفسه له بذلك بقوله:"إستشهد أبوالهُذيل في مجلس المأمون في عرض كلامه بسبعمائة بيت، فما كان على الخليفة، إلاّ أنّ وضع له ما يُشبه الأعطية السنوية، ستون ألف درهم، يُفرقها على أصحابه[6]، ربّما دلّ ذلك على سخائه.

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص12.
(2) ذهب بعضهم إلى أنّه سقط من غرفة وهو سكران، فمات في خلافة المعتصم.
أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج9، ص542.
(3) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص44. الذهبي:المصدر السابق، ج9، ص ص173،174.
(4) إبن النديم:الفهرست، ص204.
(5) إبن المرتضى:المصدر السابق، ص44
(6) إبن المرتضى:نفس المصدر، ص ص48،49.

إذ كان يمكن ألاّ يفعل ويحتفظ بالمال لنفسه لوكان بخيلا كما أُشيع عنه وذهب البعض إلى وصفه بالكذّاب والبخيل، إذ قيل:"أنّه أهدى دجاجة إلى مُويس بن عمران، فجعلها مثلا لكل شيئ وتاريخا"[1]، يبدو أنّ الجاحظ أراد تبرئته من تلك التُهمة التي تُنقص من مُروءته، ببعض ما أورده من أشعاره[2].

ربّما دلّت الأبيات على أهم صفات الإمام أوالحاكم المتمثلة في بُعده عن البُخل، كما تذكر المصادر أنّه مُقدم طائفة و مُقرر طريقة تُسمى الهذلية[3] و ذهب بعضهم إلى أنّ الهذلية تطوُرٌ لعقيدة النظام، الذي ناظره أبو الهُذيل في مس ائل الجوهر والعرض[4]،[5].

ت- <u>بشر بن المُعتمر(ت 210هـ/826م):</u>

هوأبوسهل بشربن المُعتمرالهلالي، بغدادي، من طبقة الإعتزال السادسة، قيل:أنّه من الكوفة، رئيس معتزلة بغداد، له قصيدة وأربعون ألف بيت، ردّ فيها على جميع المخالفين[6]، أحد مؤسسي علم البلاغة، قال:"فإنّ أولى الثلاث، أن يكون لفظك شيِّقًا عذبا و فخما سهلا و يكون هناك ظاهرا مكشوفا و قريبا معروفا، أمّا عند الخاصة، إن كُنت للخاصة قصدت، أمّا عند العامّة، إن كنت للعامّة أردت والمعنى ليس يُشرف، بأنّ يكون من معاني الخاصة، إنّما مدارالشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المُقام وكذلك اللفظ العامِّي والخاصي، فإن أمكنك أن تبلُغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك و لُطف مداخلك وإقتدارك على نفسك، إن أن تُفهم العامّة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة، التي لا تُلطف عن الدهماء ولا تجفوعن الأكّفاء، فأنت البليغ التام"[7] .

---

(1) إبن قتيبة :تأويل مختلف الحديث، ص44.
(2) قال أبو الهذيل:
وإنّ سيادة الأقوام فاعلم لها صُعداء مطلبُه طويل
أترجو أن تسُود وكيف يسود ذو الدَعَةِ البَخِيلِ
أنظر، الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص185.
(3) أنظر، مبادئ الهذلية بالملحق رقم5، ص162.
(4) الجوهر، هو الموجود في ذاته، ليس في موضوع، لايحتاج في الوجود إلى ذات أخرى يقارنها ليقوم بالفعل، العرض، كل موجود في موضوع وكل معنى يحمل على الشئ لأجل وجوده.
أنظر، جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص443.
(5) إبن عبد ربه:العقد الفريد، ج2، ص ص412،413.
(6) إبن المرتضى: المصدرالسابق، ص52.
(7) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص95.

وهكذا يتبين أنّ للّغة طبقات مثلما للمجتمعات، قيل:"أنّه كان ينسب النفاق لأبي الهُذيل"[1] و له طريقة تسمى البشرية[2].

يظهر بشـــر في مسائله مناقشا لقضايـا، ناقشها النظام قبلــه و هــي الحركة و السكون و التوبة، فهو يرى أنّ كل جسم يبقى ساكنا إلاّ إذا أُخرج عن سكونه إلى ضده، أي إلى حركة و يـــرى أنّ الجسـم في المكــان الأول ساكن غيــر متحرك، ثم متى إنتقل إلى المكان الثاني و سكن، أصبح غير متحرك، فالحركة تحصل في الجسم و ليس في المكان الأول لا في المكان الثاني و لكنه بالحركة يتحرك من المكان الأول إلى الثاني و بالتــالي بشـر يجمع بين الروح و الجسد، إذ أنّ الإنسان هو الفعّال[3].

أمّا عن التوبة، فمن تاب عن كبيرة، ثم راجعها، عاد إستحقاقه العقوبة الأولى، لأنّه قُبلت توبته بشرط ألاّ يعود، أي إنّه يُعذب على الذنب الأول و على الذنب الثاني، أي أنّ الله قد يغفر للعبد ذنوبه، ثم يعود فيعاقبه عليها، إذا عاد إلى المعصية [4].

ث - ثُمامة بن أشرس ت213هـ/828م:

هو ثُمامة بن أشرس، يُكنّى أبا مُعن النُميري، واحد دهره في العلم والأدب، كان جدلا حاذقا[5]، عُرف بعلاقته الحميمية مــع القصر العباسي، من وزراء وخلفاء، خلّـد الجاحظ بعضا ممّا قاله في كتاب البيان والتبيين والحيوان، خاصة ما يؤكد مجالسته ليحي البرمكي،"كان جعفر بن يحي البرمكي، أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما، يُغنيه عن الإعادة"[6] ومنها أخذه للبيان العربي منه "قلت لجعفر:ما البيان؟ قال:"أن يكون الإسم يحيط بمعناك ويُجلي عن مغزاك وتُخرجه عن الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لا بدّ له منه أن يكون سليما من التكلُف، بعيدا عن الصنعة بريئا من التعقُد، غنيا عن التأويل"[7].

(1) إبن النديم:الفهرست، ص205.
(2) أنظر، مبادئ البشرية بالملحق رقم6، ص163.
(3) حسن جارالله زهدي:المعتزلة(رسالة تبحث في تاريخها وعقائدهم وأثرهم في تطور الفكر الإسلامي)، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، القاهرة، طبعة1366هـ/1947م، ص134.
(4) جار الله زهدي:نفس المرجع، ص135.
(5) إبن المرتضى:المصدر السابق، ص62.
(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص75.
(7) الجاحظ:نفس المصدر، ص76.

يؤكد الجاحظ لقاءه به، من خلال ما نجده متناثرا في كتبه، مثل حديثه عن أخبار فأر يُحبس قال الجاحظ:حدّثني ثُمامة بن أشرس[1]، إلاّ أنّ إعجابه الواضح بثمامة، قابله آخرون بالعكس"كان جامعا بين سخافــة الدين وخلاعة النفس[2]، مع إعتقاده بأنّ الفاسق مُخلّد في النار إذا مات على فُسقه دون توبة وهو حال حياته في منزلة بين المنزلتين وله فرقة تسمى الثُمامية[3].

يبدو ممّا سبق مدى تشدد ثُمامة في مسألة الوعيد بالتخليد في النار، مع أنّ فرق المعتزلة الأخرى خففّت من ذلك العذاب، كما خالفهم بما قالت الجبرية بإثبات للإنسان قدرة على أفعاله و جعلها مقدورة للّله، إذ أُحرقت داره مرة فقالوا له:ما أسرع خلف الحريق؟ قال:فأنا أستحرق الله[4]، أمّا خلق العالم ففعل الله بطبعــه، أي أنّ طبيــعة الله هــي الـتي جعلته يـصنع هذا الكون، فالكون نتيجة طبيعية كامنة في الله وليس نتيجة مشيئته[5] وإختياره وهو عينه مقولة الفلاسفة الطبيعيين[6].

---

(1) الجاحظ:الحيوان، ج2، ص165.

(2) ذكره إبن قتيبة بأنّه كان مستهزءً بالدين ومن ذاك قوله في أناس رآهم يتعادون يوم الجمعة إلى المسجد لخوفهم فوات الصلاة:"أنظروا إلى البقر، أنظروا إلى الحمير، ثم قال لرجل:ما صنع هذا العربي بالناس؟.
أنظر، إبن قتيبة:مختلف تأويل الحديث، ص48.

(3) الثمامية، إنفرد ثمامة فيها بعشر مسائل هي:الأفعال المتولدة لا فاعل لها، إذ لم يمكنه إضافتها إلى الله، لأنّه يؤدي إلى الفعل القبيح وذلك محل، فتحيرفيه وقال:المتولدات أفعال لا فاعل لها- الكفار والمشركون والمجوس واليهود والنصارى والزنادقة يصيرون في القيامة سرابا وكذلك قوله في البهائم والطيور وأطفال المشركين- الإستطاعة هي السلامة وصحة الجوارح وتخليتها من الآفات وهي قبل الفعل- المعرفة متولدة من النظروهو فعل لا فاعل له كسائر المتولدات- قال في تحسين الفعل وتقبيحه وإيجابه المعرفة قبل ورود السمع مثل أصحابه وأضاف، من الكفارمن لا يعلم خالقه وهو معذور وقال:إنّ المعارف كلها ضرورية وإنّ من يضطرإلى معرفة الله، فهو مسخر للعباد كالحيوان- لا فعل للإنسان إلاّ الإرادة وما عداها فهو حدث لا مُحدث له وقيل: أنّه قال:العالم كله فعل الله بطباعه.
أنظر، الشهرستاني:المصدرالسابق،ج1، ص ص61،62.

(4) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص229.

(5) المشيئـــــة، ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنّه لا حركة ولا سكون في السموات والأرض إلاّ ما يريد وقد حرص عمر بن عبد العزيز على توضيح هذه المرتبة والرد على من أنكرها.
أنظر، محمد الصلاّبي:الدولة الأموية، ج2، ص219.

(6) حسن جار الله زهدي:المرجع السابق، ص129.

إنّ كلام أساتذة الجاحظ كان بحثا مُتمما للفلسفة اليونانية، بإمعان عقولهم في تفسيرأصل الكون، بدليل حديثهم عن الجزء والكل، فالتساؤل عن طبيعة الأشياء أهي ثابتة أم متغيرة؟ بدليل تحدثهم عن الحركة والسكون وهوما كانت الملاحدة تدّعيه، ناقشوا الجوهر والعرض خاصة عند النظام، هذه أسئلة لها أجوبتها في القرآن الكريم الذي دعى إلى الجدل والحكمة وهوما إستدعى ظهور فكر فلسفي إسلامي[1]،

ربّما رغبة من رجال المعتزلة الذين هم كلهم من الموالي عدا الجاحظ و شعورا منهم بدنوِ طبقتهم الإجتماعية كما ذهب إليه حسين مروة[2]، أحسنوا اللغة العربية وجعلوها مطية لمعرفة الدين الإسلامي وبها عرّبوا الفكراليوناني بالترجمة الحرفية لا المعنوية وهو ما أوجب عليهم أسلمة ما ترجموا، ليس بالتخلي عن العقل في الإجابة عن أسئلتهم، بل أيضا باستخدام آيات قرآنية.

ويبدو أنّ الجاحظ كان منتبها إلى بعض أخطاء المتكلمين أو عدم إنتباههم إلى بعضها منها ما كان مع النظام أو مع عمرو بن عبيد الذي قال له أحدهم إلى أنّه سمع أحدا يقول:ذُبِحت دجاجة من قفاؤها، فردّ عمرو: قل من قفاها وإسترح[3]، ممّا يدل على فساد النحو والإعراب.

كما إلتمس الجاحظ أعذارا لبعض هذه الأخطاء بإشارته إلى وقوع الحسن نفسه في الخطإ مرتان إحداهما قوله: تنزَل به الشياطون[4]، أي تنبيها لمكانة المعتزلة في إمتلاك ناصية اللغة العربية والبلاغة.

في ذلك إشارة منه إلى ميل بعضهم إلى التكسب والمادة، ما أنساهم واجبهم نحو اللغة العربية ولعّل ذاك ما أثبته عن الحسن البصري الذي ناداه رجل بقوله:ياأبي سعيد، فردّ عليه،"أكَسْب الدوانيق شغلك عن أن تقول: يا أبا سعيد؟"[5] و في ذلك أيضا بعدُ الناس عن الزهد وعدم ذكرهم للموت، الذي ينافي أصل الجاحظية والمعتزلة عامة.

(1) الفرق بين الفلسفة وعلم الكلام، الفلسفة تبحث في الموجود من حيث هو موجود بحثا عقليا خالصا بينما علم الكلام يبحث في الموجود بحثا مبنيا على صريح وصحيح النقل بحيث تكون عقائد الدين بمنجاة من شبه المبطلين والغرض من علم الكلام الدفاع عن حياض الدين بالردّ على المبتدعة.
أنظر،جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص235.

(2) حسين مروة:النزعات المادية في الفلسفة العربية- الإسلامية، ص310.

(3) الجاحظ:البيان والتبيين،ج2،ص168.

(4) الجاحظ:نفس المصدر، ص171.

(5) الجاحظ:نفس المصدر، ص172.

3- الخليفة المأمون والمتكلمون:

كان الخليفة المأمون مُمْعنًا لعقله في كل المسائل، أقرب إلى الإعتزال من سابقيه ورغم ذلك، فيبدو أنّه حاول جمع كل المذاهب للوصول إلى فكر موّحد وفي حضور المعتزلة مجالسه ومناظرة غيرهم نجاحًا لخطتهم في الإستيلاء على رأي الخليفة وبالتالي يقربهم إليه.

ذكر الجاحظ بعضا ممّن كان يتردد على تلك المجالس بشر بن غياث المريسي[1]، الذي أشار إلى أخطائه النحوية التي أعابته كمتكلم، كان يقول:"قضى الله الحوائج على أحسن الوجوه وأهنـؤها"[2]، دون إشــارة الجاحظ إلى قولــه بخلــق القــرآن والإرجاء وغيــرهما من البدع[3]، ليعكس الجاحظ وسطية مذهبه و يُبْعد المشاكل عن نفسه.

كما يظهر أنّه في عدم ذكره لصفات هؤلاء وعقائدهم هو نفسه ما ذكره من تبرير في كتاب البخلاء لعدم ذكره أسماء بعض البخلاء "من وصفِ ما عندي دون أن أنتهي إلى أخبارهم على وجهها وعلى أنّ الكتاب أيضا، يصير أقصر ويصير العار فيه أقل"[4].

يظهر أنّ الكل بما فيهم أحمد بن أبي دؤادة، كان يريد الفوز بمقعد المستشار الأول عند الخليفة المأمون، فكانت البلاغة بما فيها من تخير المعاني هي السبيل، لذلك أشار الجاحظ إلى ما وصف به ثمامة جعفر البرمكي[5] وقال عنها الجاحظ: أنّه وصف بها نفسه"وهذه الصفات التي ذكرها ثمامة بن أشرس، فوصف بها جعفر بن يحي، كان ثمـامة قـد إنتظمها لنفسه...ومـا

(1) بشر بن غياث المريسي، بشر بن غياث المريسي بن أبي كريمة، أبو عبد الرحمن المريسي المتكلم شيخ المعتزلة، أخذ عن القاضي أبي يوسف وروى عنه الحديث، ثم غلب عليه علم الكلام وقد نهاه الشافعي حكي عنه أقوال شنيعة وكان مرجئيا يقول:إنّ السجود للشمس والقمر ليس كفرا وإنّما هو علامة الكفر، كان يسكن درب المريس ببغداد يقال :أنّ أباه كان يهوديا صبّاغا بالكوفة توفي عام 218هـ/833م.
أنظر، إبن كثير:البداية والنهاية، ج5، ص ص657،658.

(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص168.

(3) إبن الأثير:الكامل في التاريخ، ج5، ص231.

(4) الجاحظ:البخلاء، ص ص9،10.

(5) ومن البلغاء وكفاة الأمور والوزراء البرامكة بأسرهم لا سيما جعفر...إنتهت إليهم في العربية البلاغة والفصاحة والإحاطة بعلوم الكتابة وكان الناس ربّما تكلفوا رفع القصص والحوائج إلى جعفر للحصول على تواقيعه على رقاعهم...كان الناس يشترون تواقيعه ورسائله بالأثمان الكثيرة ويتنافسون فيها.
أنظر، الثعالبي:تحفة الوزراء، ص116-139.

كان في زمانه قروي ولا بلدي، كان بلغ من حُسْن الإفهام مع قلّة الحروف ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف، ما كان بلغه وكان في وزن إشارته ومعناه في طبقة لفظه ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك"[1]، ربّما حاول الجاحظ إبرازأهم ما شدّ الخليفة المأمون إلى ثمامة، حتى صار مستشاره الأول.

وعموما يظهر مدى إستفادة ثمامة من مطالعته للفلسفة اليونانية التي تدعو إلى ما يكون عليه الوزير من أدب، أن يتأمل أخلاق الملك، فإن كانت شديدة عامل الناس باللطف ولين الجانب وإن كانت ليِّنة، عاملهم بقوة وصرامة غير مفرطة، ليعتدل التدبير[2].

خاصة وأنّ في المجلس منافسين له أمثال أحمد بن أبي دؤادة، الذي كان يشتغل بأمور الخلفاء ويضاهي الوزراء وكان يقول:"ما كلّمت المعتصم والواثق قط بحضرة محمد بن عبد الملك بن الزيّات في حاجة خوفا من أن يتعلم مني لطائف الحاجات من الملوك[3].

يبدو الجاحظ مؤيدا لهذا النوع من المعاملة للحكّام، فيما ذهب إليه"إعلم أنّ أعقل الناس السلطان ومن إحتاج إلى معاملته وعلى قدر الحاجة إليه، ينفتح له باب الحيلة والإهتداء إلى مواضع الحُجّة...ولو لا السلطان لأكَلَ الناس بعضهم بعضا[4] .

يشير الجاحظ إلى تفطن القاضي يحي بن أكثم[5]إلى خطورة ما أصبحت، تُستخدم له اللغة العربية ومنها البلاغة ومدى تأثيرها على القضاء وأحكامه التي صارت تُوالي الأفضل بلاغة، ربّما في ذلك إشارة إلى دور أحمد بن أبي دؤادة في الترويج لمسألة خلق القرآن وإقناع المأمون بها، فانطبق على الوضع حقا، ماقاله يحي بن أكثم:"سياسة القضاء أشدّ من القضاء"[6].

---

(1) الجاحظ:البيان والتبيين، ج1، ص79.
(2) الثعالبي:تحفة الوزراء، ص68.
(3) الثعالبي:نفس المصدر، ص140.
(4) الجاحظ:رسائل الجاحظ، ص209.
(5) يحي بن أكثـــم، إبن محمد بن قطن، قاضي القضاة، الفقيه العلامة أبو محمد التميمي المَروزي، ثم البغدادي، ولد في خلافة المهدي وله معرفة، من أئمة الإجتهاد، له تصانيف، منها كتاب التنبيه، واسع العلم بالفقه، كثيرالأدب، غلب على المأمون وكانت الوزراء لا تبرم شيئا حتى تراجعه، ولاّه المأمون قضاء بغداد، من ولد أكثم بن صيفي، ولي قضاء البصرة وعمره عشرون سنة، كان يقول :أنّ القرآن كلام ومن قال: مخلوق، يُستتاب فإن تاب وإلاّ ضُربت عنقه، كانت كتبه في الفقه من أجَّل الكتب، مات عام242هـ/857م وعمره89سنة.
أنظر، الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج12، ص5وما بعدها.
(6) الجاحظ:البيان والتبيين، ج2، ص95.

يتبين أنّ تجربة معتزلة البصرة وأصولها وما تعرضت له، قد إستفاد منها دعاة معتزلة بغداد وبالتالي فتحسين أوضاع الموالي على ما يبدو ورَفْع مكانتهم لدرجة المطالبة بالحكم لا يتم إلاّ إذا كان الإعتزال مذهب الدولة الإسلامية .

لذا كان عمرو بن عبيد منتقدا لسياسة الخليفة أبي جعفر المنصور حتى ينبه الكل إلى فساد الحكم العباسي كسابقه الأموي ممّا يؤكد للناس أنّ المشكلة في قانون الحكم ذاته القائم على دون الأكفاء.

ولمّا كانت نشأة الدولة تعتمد على الجيش وعمرو بن عبيد لا عصبية له شعبيا إلاّ من الموالي الذين كانوا في الطبقة الدنيا كمتبوعين، كان أكثرهم في الجيش، ففي تنبيههم إلى عدم ثقة الحاكم المسلم فيهم رغم ما يقدمون من نفس ونفيس، سيدفعهم إلى مناصرة بني جلدتهم وأفكارهم التي تكفل لهم ما يطمعون فيه من إستقرار خاصة وأنّ الخراسانيين منهم رأوا ما حدث لقائدهم أبي مسلم الخراساني.

نشاط المعتزلة في بغداد، نبّه أهل السنّة إلى ضرورة توحيد صفوفهم أمام جبهات متعددة من فرق شيعية وأخرى خارجية، تباينت بين التطرف والتساهل وكلها يريد السلطة لإيجاد الحكومة المثالية التي يرسمها في برنامجه.

التفكير في السلطة بإسم تطبيق العدل، شجّع تيارات خارجية، سعت إلى ضرب العقيدة الإسلامية بحُماتها، من إدخال خرافات حول المهدي المنتظر وغيرها كمنقذ للناس من الضلالة التي إستمرت حتى زمن الحكم العباسي.

تشجيع الخليفة العباسي لعمرو بن عبيد، خلق جو ثقة عند بعض أبنائه وأحفاده فيما بعد على تقبل الفكر المعتزلي والذود عنه كما فعل الخليفة المأمون الذي أُمْتُحِنَ العلماء في عهده بمثابة(إستفتاء) حول نسبة قبول الكل لفكرة خلق القرآن اليهودية المنشأ.

نجاح معتزلة بغداد في الوصول إلى حكم بغداد ومن ثَمَّ الدولة الإسلامية بأن جعلوا من بعض الخلفاء العباسيين مُنَفِذا لأوامر أهل العدل والتوحيد وفي ذلك تشجيعا لبني جلدتهم على الهجرة إلى داخل الدولة الإسلامية لتنفيذ مخططاتهم.

خـــاتمــــة

المعتزلة فرقة زُهدية في أصولها، إهتمت في بداياتها بتحسين أخلاقيات الأفراد المسلمين وتوجيههم إلى خير ما في دنياهم، لكسب أخراهم، تبعا لتوجيهات الصحابة والتابعين وبالتالي فمدرسة المدينة المنورة التي خرّجت الحسن البصري أكبر الوُعاظ، شابهتها في نفس العطاء مدرسة البصرة، التي كان من بين تلاميذها معبد الجهني الذي لم تكن له علاقة بالسياسة حسب الجاحظ ولا بالتأثير الأجنبي، بل ممثل للجانب الوعظي في قصرالخليفة عبد الملك بن مروان.

ما يؤكد أنّ فكرة القدَرية، لم تكن وليدة تأثيرأجنبي مسيحي أو يهودي، أي أنّ المعتزلة أصولها محلية وإن كانت من الموالي، فمكانتهم كانت دينية وأبرز دليل أنّ الحسن البصري نفسه الذي شكّل المثال الأعلى للكل هو من الموالي.

ثم إنّ غيلان الدمشقي الذي دعى إلى القدَر بنفس ما دعى إليه معبد وناقش فيه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، كان أيضا واعظًا، نبّه إلى حرية الإنسان و مسؤوليته عن ما يقوم به، لنفي تبرير حكّام بني أمية به أخطاءهم، من أنّها من الله وفي ذلك على ما يبدو أنّ معبد وغيلان بدعوتهما القدَرية، قد نزّها الله من القيام بالشر وأنّه من فعل الإنسان، أي من حكّام بني أمية.

وبالتالي فإنّ هذه الشخصيات قد أكملت مسيرة الحسن الوعظية، لإصلاح أوضاع فاسدة في زمن بني أمية وحكمهم الذي قيل عنه:"حُكْمَ جبرية" وفي ذلك تبرئة من الجاحظ لهما ممّا قتلهما به حكام بني أمية، من تحريضهم الناس على الوقوف ضد حكمهم وعدم شرعيته.

قدّما أروع مثال على نجاح مهمتهما الوعظية، تبعًا لما رسَمَ له الحسن، حتى قُتلا ظُلمًا من بعض حكّام بني أمية، تخوُفًا من ضياع حُكمهم، بسبب وعـظ غيـلان الذي على ما يظهر قتله الخليفة هشام بن عبد الملك، تخوفا من كسبه إليه أنصارا من المعارضين لبني أمية.

جديد القدرية إذن ليس تنكرا لوجود الله، بل تنزيها له ممّا نُسِب إليـه من حكّام بني أمية بأنّ كل ما يصيب الإنسان من الله ، فربَطَ الناس خطاياهم وحتى مآلهم في الآخرة بما شاء الله فقط، دون أخْذِ مسؤوليتهم عن أفعالهم وفي ذلك تنبيه لهم إلى التفكر في كل النصوص القرآنية إذ هناك من الآيات ما يدل على حرية الإنسان لأفعاله وتحَمُلِ مسؤوليته عنها.

حسب الجاحظ أنّ حكّام بني أمية قد أخطؤوا بقتلهم معبد وغيلان دون تبين، كونهما واعظان أي مصلحان وليسا مفسدين والحقيقة أنّهما حتى وإن كان تفكيرهما في بناء دولة من الموالي، فهذا مستحيل وقتها لعدم قوة العصبية التي تشد أزرهما.

وبالتالي فقتلهما هو تخويف كل الموالي لإبعاد فكرهم من الوصول إلى الحكم بدل بني أمية أو غيرهم ولذلك نجد دعوة واصل كانت إجتماعية، ما يسمح للموالي مستقبلا من تكوين عصبية شكلا من معارضة الأمويين من كل التيارات الدينية وقتها والكلامية.

ضرورة تنبيه الرعية إلى أهمية الشك في الحياة الإجتماعية، تبعًا لعقيدة واصل ومعرفة أسبابه، المتمثلة في فساد نظام حكم بني أمية وهذا ما يُخْرِجُ الناس من صمتهم للمطالبة جهرًا بحقوقهم التي خُوِّفُوا من المطالبة بها باسم العدل الإلهي الذي مثّلته جماعة حكّام بني أمية.

أوضحت هذه الدعوة الجديدة رغبة الموالي دون العرب في إصلاح الأوضاع في الدولة الإسلامية، لِرفْعِ مكانتهم الدُنْيَا عند العرب، لذا كانت دعوة واصل تؤكد على العدل ولكن من مشكلة بشار مع واصل، يتبين ضعف صف الموالي في إنجاح مشروعهم العدلي هذا وكيف ينجح وهم لا يتفاهمون فيما بينهم؟وكيف يُصلحون الأفراد وهم يتهاجَوْنَ علنًا أمام الملَٰءْ؟ ممّا يُظْهر دعوة واصل، أنّها ميتة بتاريخ ميلادها.

يتبين أنّ تجربة معتزلة البصرة، قد إستفاد منها دعاة معتزلة بغداد وبالتالي فتحسين أوضاع الموالي ورفْع مكانتهم لدرجة المطالبة بالحكم لا يتم إلاّ إذا كان الإعتزال مذهب الدولة الإسلامية، لذا كان عمرو بن عبيد منتقدا لسياسة الخليفة أبي جعفر المنصور، حتى يُنَبِه الكل إلى فساد الحكم العباسي كسابقه الأموي ممّا يؤكد للناس أنّ المشكلة في الحُكْمِ ذاته.

ولمّا كانت نشأة الدولة تعتمد على الجيش وعمرو بن عبيد لاعصبية له شعبيا إلاّ من الموالي الذين كانوا في الطبقة الدنيا كمتبوعين وأكثرهم في الجيش، ففي تنبيههم إلى عدم ثقة الحاكم المسلم فيهم رغم ما يُقَدِمونَ، دفعُهُمْ إلى مناصرة بني جلدتهم وأفكارهم التي تكفُلُ لهم ما يطمعون فيه من إستقرار خاصة وأنّ الخراسانيين منهم، رأوا ما حدث لقائدهم أبى مسلم.

نشاط المعتزلة في بغداد نبّه أهل السنّة إلى ضرورة توحيد صفوفهم أمام جبهات متعددة من فرق شيعية وأخرى خارجية، تباينت بين التطرف والتساهل وكلها يريد السلطة لإيجاد الحكومة المثالية التي يرسمها في برنامجه.

التفكير في السلطة باسم تطبيق العدل شجّع تيارات خارجية، سعت إلى ضرب العقيدة الإسلامية بحُماتِها، بإدخال خرافات حول المهدي المنتظر وغيرها كمنقذ للناس من الضلالة التي إستمرت حتى زمن الحكم العباسي.

تشجيع الخليفة العباسي لعمرو بن عبيد، خلقَ جوًا من الثقةِ عند بعض أبنائه وأحفاده فيما بعد على تقبل الفكر المعتزلي والذوْدِ عنه كما فعل الخليفة المأمون الذي أُمْتُحِنَ العلماء في عهده بمثابة (إستفتاء) حول نسبة قَبُولِ الكل لفكرة خلْق القرآن اليهودية المنشأ.

نجاح معتزلة بغداد في الوصول إلى حكمها ومن ثَمَّ الدولة الإسلامية بأن جعلوا من بعض الخلفاء العباسيين مُنَفِذًا لأوامر أهل العدل والتوحيد وفي ذلك تشجيعا لبني جلدتهم على الهجرة إلى داخل الدولة الإسلامية لتنفيذ مخططاتهم.

يتبين أنّ الجاحظ العربي الأصل والمنشأ في جمعه بين علوم الدين والدنيا، أنّه إطّلع على حلِّ بعض المشكلات، من مناظرات أهل الكلام، عرف كيف يبدأ الخلاف وأسبابه وطريقة حلّه وربّما ذاك الذي دفعه إلى تعظيم مكانة اللسان ودوره في ترجمة الأفكار العقلية، فنال حظْوَةً عند الوزراء والخلفاء العباسيين.

صاحبَ كل الشخصيات المتناقضة فكريا لبعضها والمتحاسدة وكان في إمكانه أن يغترَ ببُهرج السلطان ووِشاية النمامين في القصر، إلاّ أنّه تغافل عن تلك الدنايا، ليرى أنّ تغيير الأوضاع في الدولة الإسلامية، ليس حبيس الخلفاء ووزرائهم، بل هو رهين فكر كل محاول جاد للتغيير الإيجابي، فأمعن نظره في مشاهدة المتناقضات عند العامّة والخاصة متفكرا في أسباب الفتن، التي يبدو أنّها لم تكن من حاملي الأديان المُحرفة الدُخلاء وحدهم، بل أيضا من تلك الفِرق التي إحتمت بالدين الإسلامي في برامجها.

ولمّا كانت الدولة الإسلامية قد إنفتحت على المعــارف الأجنبــية، إرتــآى الإطّلاع عليهــا، مترصدا لمكامن العقلانية فيها، متأملاً لمنابع الحكمة منها، حاملا لثقافات متعددة وبالتالي ملّك عقله تراثا حضاريا متنوعا، دفعه إلى ضرورة صهره في بوتقة، تلتقي مع الدين الإسلامي دون مخالفة المنطق العقلي، ليؤسس لظهور مجتمع ذو ثقافات، تستلهم شرعيتها من الدين الإسلامي، رغم إختلاف أصولها.

الجاحظية هي حوصلة تجربة الجاحظ، من مُشاهدات عينية إلى مُدركات عقلية، إنفرد فيها عن المعتزلة بآراء في نظره كفيلة بحل أزمة المجتمع الإسلامي، مَيزَها دعوته إلى إفادة كل فرد من معارفه الفطرية وما يكتسبه، من ثقافة الوافد وتُراثه البعيد عن الإسلام واللغة العربية، لكن بشرط تعريبه، ثم أسلمته، قصد التماشي مع الأصالة العربية ولا يتم ذلك إلاّ بوجود إرادة التغييرعند كل فرد لنفسه أولاً، باستعمال وسائط، تتمثل في طُرُق التعلُم المُختلفة مُركزاعلى الشك كوسيط أساسي في الوصول إلى اليقين.

إنّ إكتساب و دراسة تراث الغير ضرورة، فهو يُمثل المُعاصرة في ذاك الوقت، التي لا بد من مُواكبتها، ثُم إنّ عقلنته، تعني المُحافظة على أخلاقيات الأفراد المسلمين، إذ لا خير في مُعاصرة تُؤجج نار الفتن وأمّا مسألة تعريبه فتعني شعبويته، لأنّ أغلبية المجتمع تنطق العربية و لا يُمكن إقرار العدل وغيره من الفضائل، إلاّ في ظل حاكم و فرد مُثقف، يُشكل بها عُضْوًا في مُجتمع مُسلم، ثم إنّه لا تعارُض بين ما يدعُو له الدين و العقل، فلِمَ لا نُعقلن كل شيئ؟.

أزمة العالم الإسلامي تكمُن في كيفية ربط العلاقة بين الأصل، الذي هو الدين الإسلامي والتراث الوافد، من فلسفات و علوم تجريبية وغيرها، من أهل الإلحاد وأصحاب الملل والأهواء وهُم في كل الأحوال يبقَوْنَ منابعًا لمختلف المعارف التي من الواجب الإطلاع عليها، على الأقل لمعرفة المُتهجمين على حرمة ديننا، مُحاولين إفقادنا هويتنا، لذلك لفت الجاحظ النظر إلى دور المثقف المُستقبلي، مُعلما، شاعرا....

إنّ التغيير يتطلب تجنيد كل الطاقات وإيجاد مؤسسات ثابتة، تقوم بهذا الدورإلى جانب ما يقوم به الفرد بشخصه، لخلق ثقافة التواصل مع الآخر، فثقافة الحوار مصدرها المُثقف المُتفتح لا المُتقوقع، ممّا يستوجب الإهتمام بتعليم النشء، لتقديم الفرد النموذج لمُجتمع إسلامي.

إرادة التغيير ستُكونُ جيلا جريئا، لا يُكَوِنُ طبقة عازلة بينه وبين السلطة، بل يتعاون معها لإقرارالحق والعدل، فالحاكم سيكون واحدا من هؤلاء وتقديـم كتاب البيان والتبييـن بهذا الطرح إلى أحمد بن أبي دؤادة، سيُسهل تطبيق مشروع الجاحظ الإصلاحي، القائم على التربية والتعليم وهو ما سبق طرْحَ أبو حامد الغزالي بشأن تأسيس المدارس النظامية ذات تخصصات والمنعكس الشرطي حسب تعبيره وعبرَّعنه بالعادة.

فالعالم الإسلامي في حاجة إلى مهارات ميدانية محلية، تلتزم بتغيير نفسها وترغيب غيرها في ذلك، إذ كانت الضرورة مُلّحة وقتها إلى أفراد واعين بثقافة الحوار، خريجي مؤسسات أخلاقية زهدية، لإنهاء الفتن.

للأسف أكثر الفتن من الفرق الدينية أو الكلامية التي تحتمي بالدين وتتعصب لحقها في دعواها التي كانت ضد السلطة، قصد إقلاعها باستعمال العامّة، كان التعليم وحده إذن الكفيل باحتواء هذه الطبقة وجعلها تتعاون مع السُلطة للتغيير، لا بالإبتذال لها، فاللغة وسيلة للفتن ووسيلة أيضا لإصلاح الأوضاع، لأنّ الحوار يتم بها وكلّما كان اللسان أبين، قلّ حظُ الفتن.

الجاحظية جاءت للتخفيف من حِدّةِ فِتَنِ التيارات المتطرفة والإثبات على محاولات العرب الجدية في إيجاد طرق لإنهاء الفتن، ممّا قد يُسْكِتُ القائلين بأنّ الحلول كانت تأتي من الخارج بدايةً من الموالي وهو ما يفسر تأكيد الجاحظ على عروبته حتى لا تُقاوَمْ الجاحظية من العرب الذين هم حكّام و منهم أغلب العامّة وكذا التيارات الدينية من شيعة وخوارج.

تأكيد الجاحظ على السند الديني خاصة القرآن الكريم، فيه من اللَمَّةِ ما يعطي المجتمع المُوَحد بدون فتن، فيه تفاهم كل أفراده دخيلهم مع أصيلهم، فيمُدَّ جسرالتعاون بين الموالي والعرب لإيجاد حلول لمشاكلهم، فيتفرغ الكل لطلب العلم و تطوير المجتمع الإسلامي وتختفي تلك العصبية السلبية للعنصرالعربي، إلى نظرة إنسانية للفرد المسلم الساعي لتثبيت إيمانه عربيًا كان أوغير ذلك ولعّل أول مشكلة ستُهَمّش في المناقشات الفردية هي فكرة القدَرِية ولذلك ركّز على الوعظ وليس على القدَرِ في كتابه.

الملاحق

- <u>الملحق رقم 1:</u>

- <u>ماقاله غيلان الدمشقي للخليفة عمر بن عبد العزيز:</u>

"أبصرت يا عمر وما كدت ونظرت وما كدت، إعلم يا عمر، أنّك أدركت من الإسلام خلقا باليا ورسما عافيا، فيا ميت بين الأموات، لا ترى أثرا فتتبع ولا تسمع صوتا فتنتفع، طغى أمرُالسُنّة وظهرت البدعة أخيف العالم، فلا يتكلم ولا يُعطى الجاهل فيُسأل و رُبّما نجت الأمة بالإمام العادل وربّما هلكت بالإمام فأنظرأيُ الإمامين أنت؟، لأنّ الله تعالى يقول "وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا"، فهذا إمامٌ هُدى ومن إتّبعه شريكان وأمّا الآخر فقال تعالى"وَجَعَلْنَاهُمْ أَمَّةً يَدْعُونَ إِلى النَارِ و يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ" ولن تجد داعيا يقول:تعالوا إلى النار، إذ لا يتبعه أحد ولكن الدعاة إلى النارهُمْ الدعاة إلى معاصي الله، فهل وجدت يا عمر حكيما يعيب ما يصنع أو يصنع ما يعيب أو يُعذب على ما قضى أو يقضي ما يُعذب عليه؟ أم هل وجدت رشيدا يدعو إلى الهدى، ثم يضل عنه؟ أم هل وجدت رحيما، يُكلف العباد فوق الطاقة أو يعذبهم على الطاعة؟ أم هل وجدت عدلا، يحمل الناس على الظلم والتظالم؟ وهل وجدت صادقا، يحمل الناس على الكذب و التكاذب يتهمك؟ كفى ببيان هذا بيانا وبالعمى عنه عمى"[1].

- <u>الملحق رقم 2:</u>

- <u>الحوار الذي حدث بين غيلان والخليفة هشام بن عبد الملك:</u>

يروي إبن المرتضى تفاصيل ما حدث لغيلان وصاحبه صالح، أنّه لما كان يُشنع ببني أمية، مرّ به هشام قائلا:هذا الذي يعيبني ويعيب آبائي والله إن ظفرت به، لأقطعن يديه ورجليه، فلمّا وليَّ، خرج غيلان إلى أرمينيا مع صديقه، فأرسل هشام في طلبهما، فجيئ بهما، فحبسهما، ثم أخرجهما وقطع أيديهما وأرجلُهما وقال لغيلان:كيف ترى ماصنع بك ربُك؟، فالتفت غيلان وقال:لعن الله من فعل بي هذا وإستسقى صاحبه فقال بعض من حضر:لا نسقيكما حتى تشربا من الزقوم، فقال غيلان لصالح:يزعم هؤلاء أنّهم لا يسقوننا حتى نشرب من الزقوم ولعمري لئن كانوا صدقوا، إنّ الذي نحن فيه ليسير في جنب ما نصير إليه بعد ساعة من عذاب الله ولئن كانوا كذبوا، إنّ الذي نحن فيه ليسير في جنب ما نصير إليه بعد ساعة من روْح الله فاصبر يا صالح، ثم مات صالح وصلّى عليه غيلان، ثم أقبل على الناس وقال:قاتلهم الله، كم من حق أماتوه وكم من باطل، قد أحيوه وكم من ذليل في دين الله، أعزوه وكم من عزيز في دين الله أذّلوه، فقيل لهشام:قطعت يدي غيلان ورجليه وأطلقت لسانه، إنّه قد بكّى الناس ونبّههم على ما كانوا عنه غافلين، فأرسل إليه من قطع لسانه[2].

---

(1) إبن المرتضى:طبقات المعتزلة، ص26.
(2) إبن المرتضى:نفس المصدر، ص ص26،27.

- الملحق رقم 3:

- الواصليـــــة:

تتمثل مبادؤها في مايلي:- القول بنفي الصفات لله، من علم، قدرة، إرادة وحياة، كان واصل يشرع فيها على قول ظاهر، هو الإتفاق على إستحالة وجود إلهين قديمين أزليين وبعد مطالعة أصحابه لكتب الفلاسفة، إنتهوا إلى ردّ جميع الصفات إلى كونه عالما، قادرا، ثم الحكم، بأنهما صفتان ذاتيتان، هما إعتباران للذات القديمة- القول بالقدر، نفس مسلك معبد وغيلان الدمشقي، قال:إنّ الباري تعالى حكيم، عادل لا يجوزأن يُضاف إليه شر وظلم، يجوزأن يُريد من العباد خلاف ما يأمر، أن يحكم عليهم شيئا، ثم يُجازيهم فالعبد هو الفاعل للخير والشر، الإيمان، الكُفر، الطاعة، المعصية, أي نفي القدر من الله خيره وشره إعتبارأنّ مصدرالأفعال كلها العبد- القول في المنزلة بين المنزلتين، هو المُوّلد لها، السبب أنّه دخل واحد على الحسن البصري، فقال:يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكّفرون أصحاب الكبائر، الكبيرة عندهم كفر، يخرج عن الملّة، هم وعيدية الخوارج، جماعة يرجون، أصحاب الكبائر، الكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم، ليس ركنا من الإيمان، لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الإيمان طاعة، هم مرجئة الأمّة، فكيف تحكم لنا في ذلك إعتقادا، ففكرالحسن في ذلك، قبل أن يجيب، قال واصل:أنا لا أقول أنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، لا كافرمطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لامؤمن ولا كافر، ثم قام وإعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد، يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن:إعتزل عنّا واصل، فسمي هو وأصحابه معتزلة - قوله في الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين، أنّ أحدهما مخطئ لا محالة بعينه، كذلك قوله في عثمان بن عفّان وقاتليه وخاذليه قال:أحد منهما فاسق لا محالة[1].

- الملحق رقم 4:

- النظاميـــــة:

إنفرد النظام بمسائل هي:إنّ الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشر والمعاصي وليست هي مقدورة للله خلافا لأصحابه، فإنّهم قضوا بأنّه قادرعليها لكنّه لا يفعلها، لأنّها قبيحة- أنّه ليس موصوفا بالإرادة على الحقيقة...، فالمراد أنّه خالقها ومنشؤها على حسب ماعلم و إذا وصف بكونه مريدا لأفعال العباد، فالمعنى به آمر بها و ناه عنها- أفعال العباد حركات فحسب والسكون حركة إعتماده والعلوم والإرادات وحركات النفس وقصد بالحركة مبدأ تغيرما كما قالت الفلاسفة من إثبات حركات في الكم والكيف- الإنسان هوالنفس والروح والبدن آلتها وقابلها بقوله:إنّ الروح هي التي لها قوة وإستطاعة وحياة ومشيئة وهي مستطيعة بنفسها والإستطاعة قبل الفعل - كل ما جاوز محل القدرة من الفعل، فهو من فعل الله- نفى الجزء الذي لا يتجزأ أحدث القول بالفطرة- الجوهر مكون من أعراض إجتمعت ...، تارة تكون الأجسام أعراضا وتارة أعراض أجساما- من مذهب الله خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه، من معادن ونبات وحيوان وإنسان ولم يتقدم خلق آدم على خلق أولاده، غير أنّ الله كمن بعضها في بعض ...- الإجماع ليس حجّة في الشـــرع

(1) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص ص40وما بعدها.

وكذلك القياس في الأحكام الشرعية، لا يجوزأن يكون حُجّة وإنّما هي في قول الإمام المعصوم- ميله إلى الرفض ووقيعته في كبارالصحابة، لا إمامة إلاّ بالنص والتعيين ظاهرا مكشوفا- التفكير قبل ورود السمع إذا كان عاقلا متمكنا من النظر يجب عليه تحصيل معرفة الباري بالنظروالإستدلال- وفي الوعد والوعيد زعم أنّه من خان في كل مائـة وتسـع وتسعين سنة درهما بالسرقة أوالظلم، لم يفسق حتى تبلغ خيانته نصاب الزكاة وفي المعاد أنّ الفضل على الأطفال كالفضل على البهائم[1].

- <u>الملحق رقم 5:</u>

- <u>الهـــذليــة:</u>

إنفرد أبوالهذيل بعشر قواعد هي- البارئ عالم بعلم، علمه ذاته، قادربقدرة وقدرته ذاته، حي بذاته وحياته ذاته- أثبت إرادات لا محلّ لها يكون البارئ مريدا لها- كلام البارئ تعالى بعضه لا في محل وهو قوله:كن وبعضه في محل كالأمروالنهي عن المنكروالإستخبار وكان أمرالتكليف عنده غيرأمرالتكليف- قوله في القدرما قاله أصحابه إلاّأنّه قدري الأولى، جبري الآخرة، حركات أهل الخُلدين في الآخرة كلها ضرورية لا قد رة للعباد عليها وكلها مخلوق للبارئ، إذ لو كانت مكتسبة للعباد، لكا نوا مكلفين فيها- إنّ حركات أهل الخلدين تنقطع وأنّهم يصيرون إلى سكون دائم خمودا أو تجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنّة أوتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار- الإستطاعة عرض من الأعراض ...- الفكر قبل ورود السمع، أنّه يجب عليه أن يعرف الله بالدليل، من غيرخاطر وقصرالمعرفة إستوجب العقوبة ... أمّا في الآجال والأرزاق:أنّ الرجل إن لم يقتل مات في ذلك الوقت ولا يجوز أن يزاد في العمرأو ينقص والأرزاق على وجهين، أولهما ماخلق الله به من هذه الأرزاق للعباد، فما أحلّ منها فهُو رزقه وماحرّم فليس رزقا، أي ليس مأمورا بتناوله- إرادة الله غيرالمُراد، فإرادته لما خلق هي له وخلقه للشئ، بل الخلق عنده قوله لا في محل وأنّ الله لم يزل سميعا بصيرا، بمعنى يسمع ويبصر وكذلك لم يزل غفورا رحيما، خالقا رازقا، معاقبا، مواليا، معاديا، آمرا، ناهيا، بمعنى أنّ ذلك سيكون- الحجّة لا تقوم فيما غاب ...ولا تخلو الأرض من جماعة هم أولياء الله المعصومين، لا يكذبون ولا يرتكبون الكبائر، فهم الحُجّة لا التواتر[2].

---

(1) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص47 وما بعدها.
(2) الشهرستاني:نفس المصدر، ص44 ومابعدها.

- الملحق رقم 6:

- البشـــريـــة:

إنفرد بشر بن المعتمر بست مسائل هي:- زعم أنّ اللون والطعم والرائحة والإدراكات كلها من السمع والرؤية يجوزأن تحصل متولدة من فعل الغير، إذا كانت أسبابها من فعله- الإستطاعة هي سلامة البنية وصحة الجوارح وتخليتها من الآفاق...الله تبارك وتعالى قادرعلى تعذيب الطفل ولو فعل كان ظالما إيّاه، إلا أنّه لا يستحسن أن يُقال في حقه، بل يقال لو فعل ذلك، كان الطفل بالغا، عاقلا، عاصيا بمعصية إرتكبها، مستحقا للعقاب- إرادة الله فعل من أفعاله وهي على وجهين، صفة ذاته وصفة فعل، فأمّا صفة الذات...لم يزل مُريدا لجميع أفعاله ولجميع طاقات عباده وأنّه حكيم ولا يجوزأن يعلم الحكيم صلاحا وخيرا لا يريده وأمّا صفة الفعل فإن أراد بها فعل نفسه في حال إحداثه، فهي خلق له وهي قبل الخلق، لأنّ ما به يكون المسئ لا يجوز أن يكون معه وإن أراد بها فعل عباده... لو أتى به لآمن جميع من في الأرض إيمانا يستحقون عليه الثواب إستحقاقهم لو آمنوا من غير وجوده وليس على الله أن يفعل ذلك بعباده ولا يجب أن يفعل ذلك بعباده ولا يجب عليه رعاية الأصلح، لأنّه لاغاية لما يقدرعليه من الصلاح، فأمّا من أصلح، إلاّ وفوقه أصلح وإنّما عليه أن يمكن العبد...يزيح العلل بالدعوة والرسالة والفكر قبل ورود السمع، يعلم الباري بالنظر والإستدلال- من تاب عن كبيرة، ثم راجعها، عاد استحقاقه العقوبة الأولى، فإنّه قبل توبته بشرط أن لا يعود[1].

- الملحق رقم 7:

- رسالة الجاحظ إلى صديقه إبن الزيّات وهو سجين:

قال: لا والله ، ما عالج الناس داءً قط، أدْوَى من الغيظ ولا رأيت شيئا هو أنفذ من شماتة الأعداء ولا أعلم بابا أجمعُ لخصال المكروه من الذل ولكن المظلوم ما دام يجد ما يرجوه والمبتلى ما دام يجد من يرْثِي له فهو على سبب درْكٍ وإن تطاولت به الأيام، فكم من كربةٍ فادحة وضيقةٍ مُصْمَتَةٍ، قد فتحتَ أقفالها وفككْتَ أغلالها ومهما قصّرتُ فيه، فلم أُقصر في المعرفة بفضلك وفي حسن النية بيني وبينك، لا مشتّتَ الهوى ولا مقسَمَ الأمل على تقصيرٍ، قد إحتملتَهُ وتفريط، قد إغتفرتَهُ ولعّل ذلك أن يكون من دون الإذلال وجرائم الإغفال ومهما كان من ذلك، فلن أجمع بين الإساءة والإنكار وإن كنتُ كما تصف من التقصير وكما تعرف من التفريط، فإنّي من شاكري أهل هذا الزمان وحَسَنُ الحال، متوسط المذهب وأنا أحمد الله على أن كنتُ مرتبتك من المُنَعَمِينَ فوق مرْتَبَتي في الشاكرين وقد كانت عليَّ بك نعمة، أذاقتني طعم العز وعوّدتني روح الكفاية وَلَوَتْ هذا الدهر وجَهْدَهُ ولمَّا مسخَ الله الإنسان قردا وخنزيرا، ترك فيه مَشَابةَ من الإنسان ولمَّا مسخ زماننَا لم يترك فيه مَشَابةَ من الأزمان[2].

---

(1) الشهرستاني:الملل والنحل، ج1، ص ص56،57.

(2) ياقوت الحموي:معجم الأدباء، ج16، ص ص77،78.

- الملحق رقم 8:

- الأصول الخمسة للمعتزلة:

إتّفقت المعتزلة:-الله تعالى قديم، القدم أخص وصف ذاته، نفوا الصفات القديمة أصلا، عالم لذاته، حي لذاته، لا بعلم وقدرة وحياة، هي صفات قديمة ومعاني قائمة به، لأنّه لو شاركته الصفات في القدم، الذي هو أخص صفاته لشاركته في الإلهية - كلامه محدث مخلوق، في محل، حرف وصوت، كُتب أمثاله في المصاحف، حكايات عنه، وُجد العقل في المحل عرض، فقد فُني في الحال- الإرادة والسمع والبصر، ليست معاني قائمة بذاته، إختلفوا في وجوه وجودها ومحامل معانيها- إتفقوا على رؤية الله في دارالقرار ونفي التشبيه عنه من كل وجه، جهة ومكانا وصورة وجسما وتحيزا وإنتقالا وزوالا وتغيرا وتأثرا- أوجبوا تأويل الأيات المتشابهة فيها وسمواهذا النمط "توحيدا"- العبد قادرخالق لأفعاله خيرها وشرها، مستحق على ما يفعله ثوابا وعقابا في الدارالآخرة والرب منزه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هوكفر ومعصية، لأنّه لوخلق الظلم كان ظالما، كما لوخلق العدل، كان عادلا- الحكيم لايفعل إلاّ الصلاح والخير ويجب من حيث الحكمة حماية مصالح العباد- الأصلح واللطف، ففي وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط "عدلا"- المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة إستحق الثواب والعوض والتفضيل ومعنى آخر وراء الثواب وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة إرتكبها، إستحق الخلود في النار، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط"وعداووعيدا"- أصول المعرفة وشكرالنعمة واجب، قبل ورود السمع والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل وإعتناق الحسن وإجتناب القبيح، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام- إختلفوا في الإمامة والقول فيها نصّا وإختبارا[1].

- الملحق رقم 9:

- رسالة واصل بن عطاء إلى عمرو بن عبيد:

أمّا بعد ، فإنّ إستلاب نعمة العبد وتعجيل المعاقبة بيد الله ومهما يكن ذلك، فاستكمال الآثام والمجاورة للجدال الذي يحول بين المرء وقلبه وقد عرفتَ ما كان يُطْعن به عليك ويُنْسب إليك ونحن بين ظهراني الحسن بن أبي الحسن – رحمه الله-، لاستبشاع قُبح مذهبك، نحن ومن قد عرفْتَهُ من جميع أصحابنا ولُمَّةِ إخواننا الحاملين الواعين عن الحسن، فللّه تلكم لُمَّةٌ وأوعياءٌ وحَفظةٌ، ما أدْمَثَ الطبائع وأرزَنَ المجالس وأبْيَنَ الزهد وأصدق الألسنة، إقتدوا والله بمن مضى شبهًا بهم، عهدي والله بالحسن وعهدكم به أمس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرقي الأجنحة وآخر حديث حدثَنَاهُ ، إذ ذكر الموت وهول المُطّلَع فأَسِفَ على نفسه وإعترف بذنبه، ثم إلتفت والله يُمْنَةً ويُسْرَةً معتبرا باكيا، فكأنِّي أنظر إليه، يمسح مُرْفَضَ العَرَقَ عن جبينه، ثم قال:اللهم إنِّي قد شددتُ وضِينَ راحلتي وأخذت في أُهْبَةِ سَفَري إلى محَّل القبر وفَرْش العَفْر، فلا تؤاخذوني بما ينسبون إليَّ من بعدي، اللهم إنِّي قد بلَّغتُ ما بلغني عن رسولك وفسَّرتُ من مُحْكَم

(1) الشهرستاني:الملل والنحل، ص ص38،39.

تأويلك، ما قد صدقه حديث نبيك، ألا وإنِّي خائف عمرًا، ألا وإنِّي خائف عمرًا، شكايةً لك إلى ربِّه جهرًا وأنت عن يمين أبي حذيفة، أقربُنَا إليه وقد بلغني كبيرُ ما حمَّلتَهُ نفسك وقلَّدتَهُ عُنُقَكَ من تفسير التنزيل وعبارة التأويل، ثم نظرتُ في كُتُبكَ وما أدَّته إلينا روايتكَ، من تنقيص المعاني وتفريق المباني، فدلَّتْ شكاية الحسن عليك بالتحقيق بظهور ما ابتدعتَ وعِظَم ما تحمَّلتَ، فلا يغررك أي أخي، تدبير مَنْ حولك وتعظيم طولك وخفضهم أعينهم عنك إجلالاً لك، غدا تمضي الخُيَلاء والتفاخر وتُجزى كل نفس بما تسعى ولم يكن كتابي إليك وتجليبي عليك، إلاَّ لتذكيرك بحديث الحسن رحمه الله وهو آخر حديث حدثناه، فأدِّ المسموع وأنْطِقْ بالفروض ودعْ تأويلك الأحاديث على غير وجهها وكن مع الله وجلاً[1].

- الملحق رقم 10:

- خطبة الحسن البصري كاملة:

"ياابن آدم، بع دنياك بآخرتك ، تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك، فتخسرهما جميعا، يا ابن آدم، إذا رأيت الناس في الخير، فنافسهم فيه وإذا رأيتهم في الشر، فلا تغبطهم به، الثواء هاهنا قليل و البقاء هناك طويل، أمتكم آخر الأمم وأنتم آخر أمتكم وقد أسرع بخياركم، فماذا تنتظرون؟ ألمعاينة؟ فكأنّ قد هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحاليها وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم، فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة، أما والله لا أمّة بعد أمتكم ولا نبي بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم و إنّما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم، من رآى محمدا صلى الله عليه وسلّم، فقد رآه غاديا رائحا، لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، رفع له علم، فشمر إليه، فالوحـاء و النجاء، علام تعرجون؟، أتيتـم و رب الكعبة، قد أسرع بخياركم و أنتم كل يوم ترذلون، فماذا تنتظرون؟ إنّ الله تعالى بعث محمدا عليه السلام على علم منه، إختاره لنفسه وبعثه برسالته وأنزل عليه كتابه وكان صفوته من خلقه ورسوله إلى عباده، ثم وضعه من الدنيا موضعا، ينظر إليه أهل الأرض وآتاه منها قوتا وبلغه، ثم قال:(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)، فرغب أقوام عن عيشه وسخطوا ما رضي له ربه، فأبعدهم الله وأسحقهم، يا ابن آدم، طأ الأرض بقدمك، فإنّها عمّا قليل قبرك وإعلم أنّك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطتَ من بطن أمـك فرحـم الله رجلا، نظر، فتفكـروتفكر، فإعتبروإعتبر، فأبصروأبصر، فصبر، قد أبصر أقوام، فلم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم و لم يدركوا ما طلبوا و لم يرجعوا الى ما فارقوا، يا ابن آدم، أذكر قوله(وَكُلُ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورَا إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبَا) عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك، خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها، فليس الصفو ما عاد كدرا، ما عاد صفوا، دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم، ظهر الجفاء وقلّت العلماء وعفت السنّة وشاعت البدعة، لقد صحبتُ أقوامًا، ما كانت صحبتهم إلاّ قرّة العين وجلاء الصدر ولقد رأيت أقواما، كانوا من حسناتهم أشفق من أن تُرد عليهم منكم، من سيئاتكم أن تعذبُوا عليها وكانوا فيما أحلّ الله لهم من الدنيا أزْهد منكم، فيما حرّم عليكم، منها مالي أسمعُ حسيسًا ولا أرى أنيسًا، ذهب الناس وبقي النسناس، لو تكاشفتم ما تدافنتم، تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح، قال إبن الخطاب:"رحم الله إمرئ، أهدى إلينا مساوينا، أعِدّوا الجواب، فإنّكم مسؤولون، المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه و لكن أخذه من قِبَل ربه، إنّ هذا الحق قد جهد أهله وحال بينـهم و بين شهواتهم وما يصبر عليه إلاّ من عرف فضله ورجا عاقبته، فمن حمد الدنيا، ذمَّ الآخرة و ليس يكره لقاء الله إلاّ مقيم على سُخْطه، يا ابن آدم، ليس الإيمان بالتحَّلي ولا بالتمني ولكنّه ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال"[2].

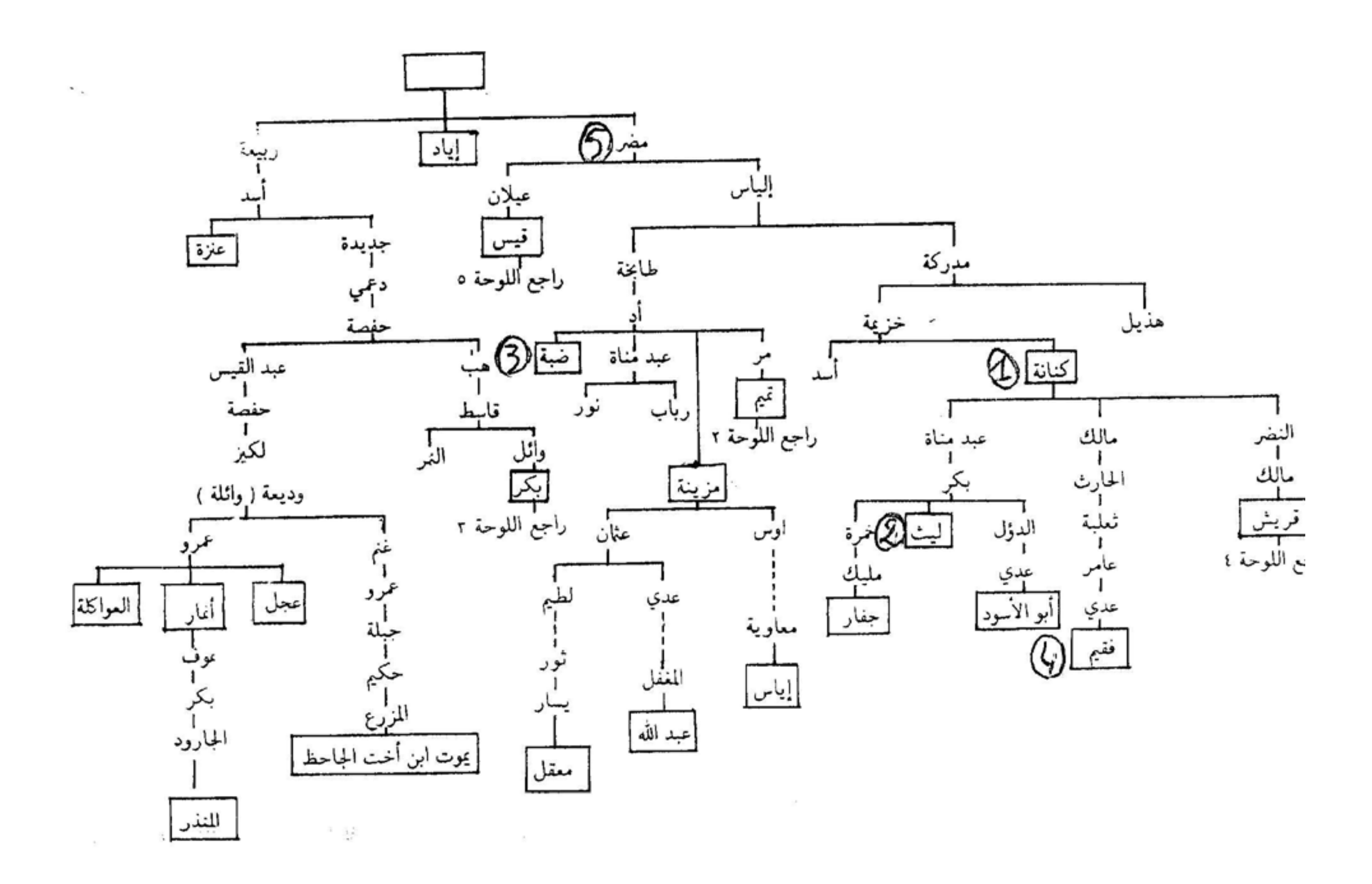
---

(1) إبن عبد ربه:العقد الفريد، ج2، ص ص389،390.

(2) الجاحظ:البيان والتبيين، ج3، ص ص118،119.

- <u>الملحق رقم 11:</u>

<u>القبائل النزارية وفروعها</u>



<u>المفتاح</u>

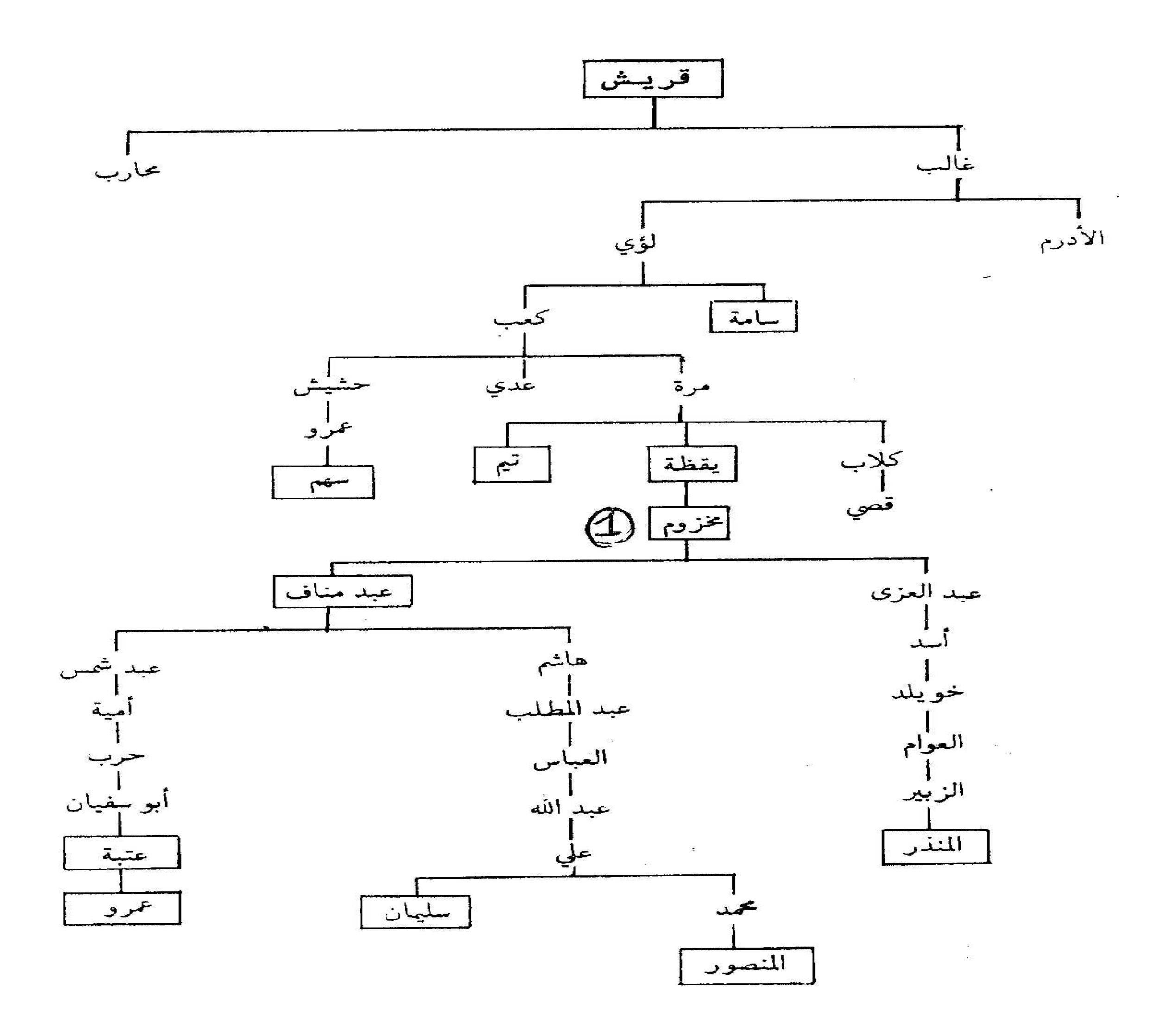
1. كنانة
2. ليث
3. بني ضبّة
4. فقيم
5. مضر

---

(1) شارل بللات، الجاحظ في البصرة وبغداد، ص60.

- الملحق رقم 12:

قبيلة قريش وفروعها



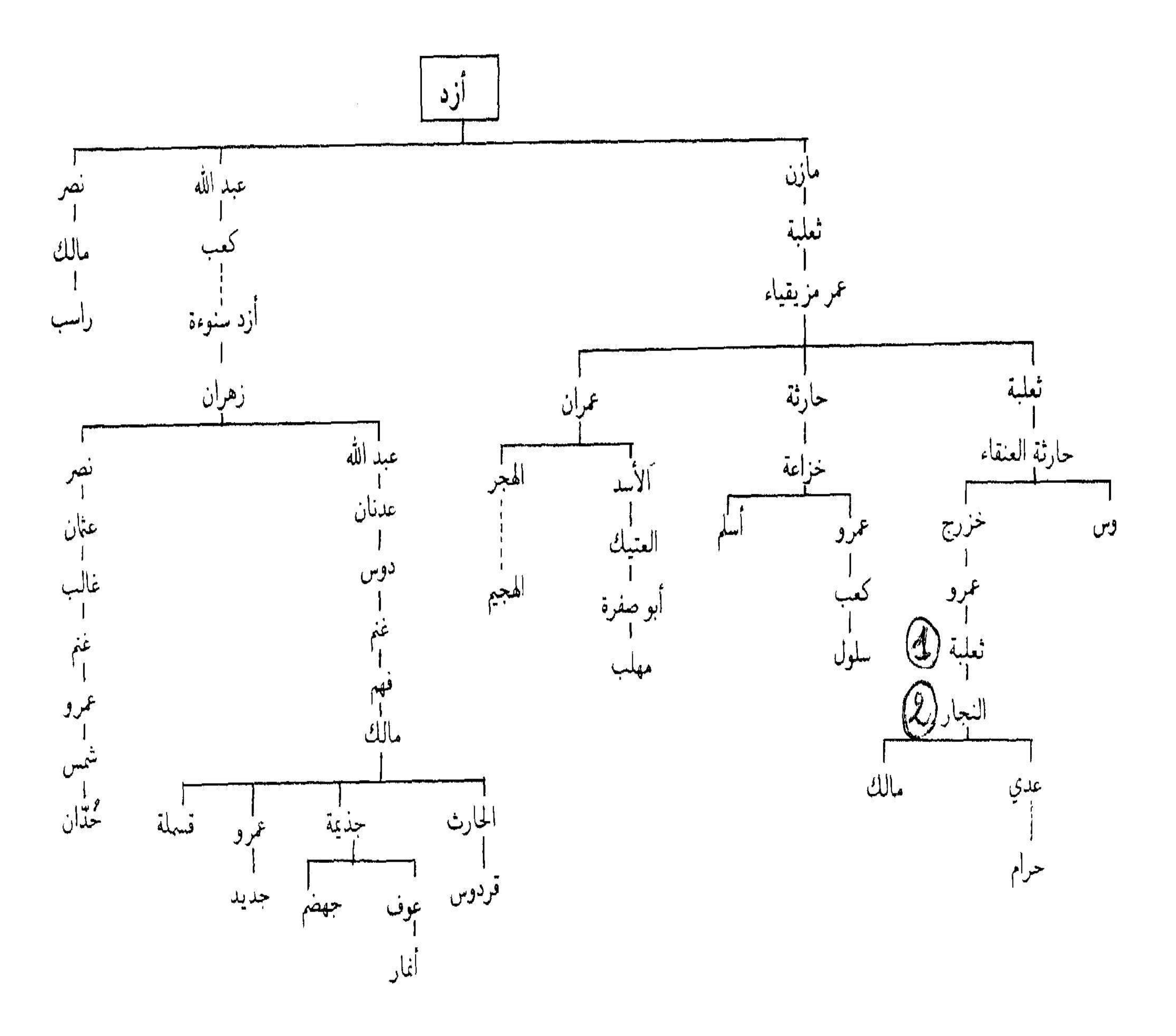
المفتاح

1. بنو مخزوم

(1) شارل بللات، نفس المرجع، ص63.

- الملحق رقم 13:

قبيلة أزد وفروعها



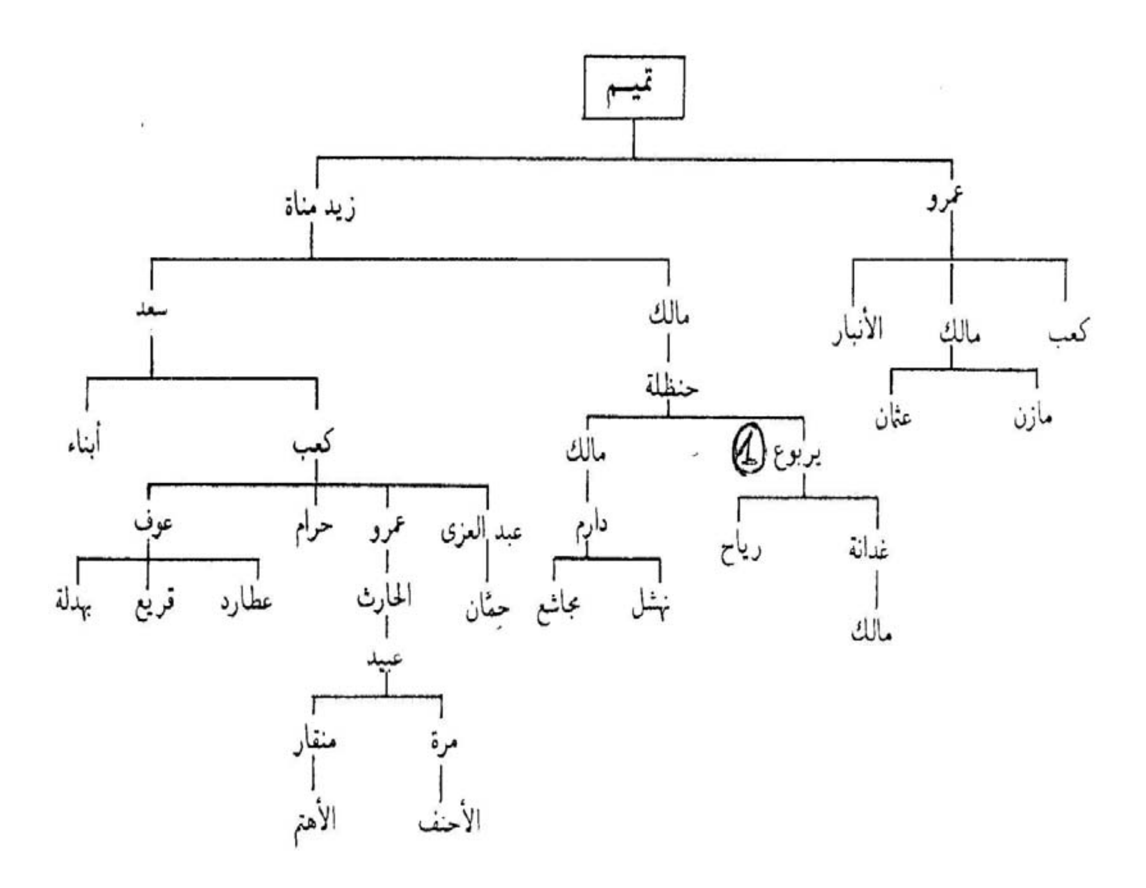
المفتاح

1. ثعلب
2. نجار

(1) شارل بللات:نفس المرجع، ص66.

- الملحق رقم 14:

قبيلة تميم وفروعها



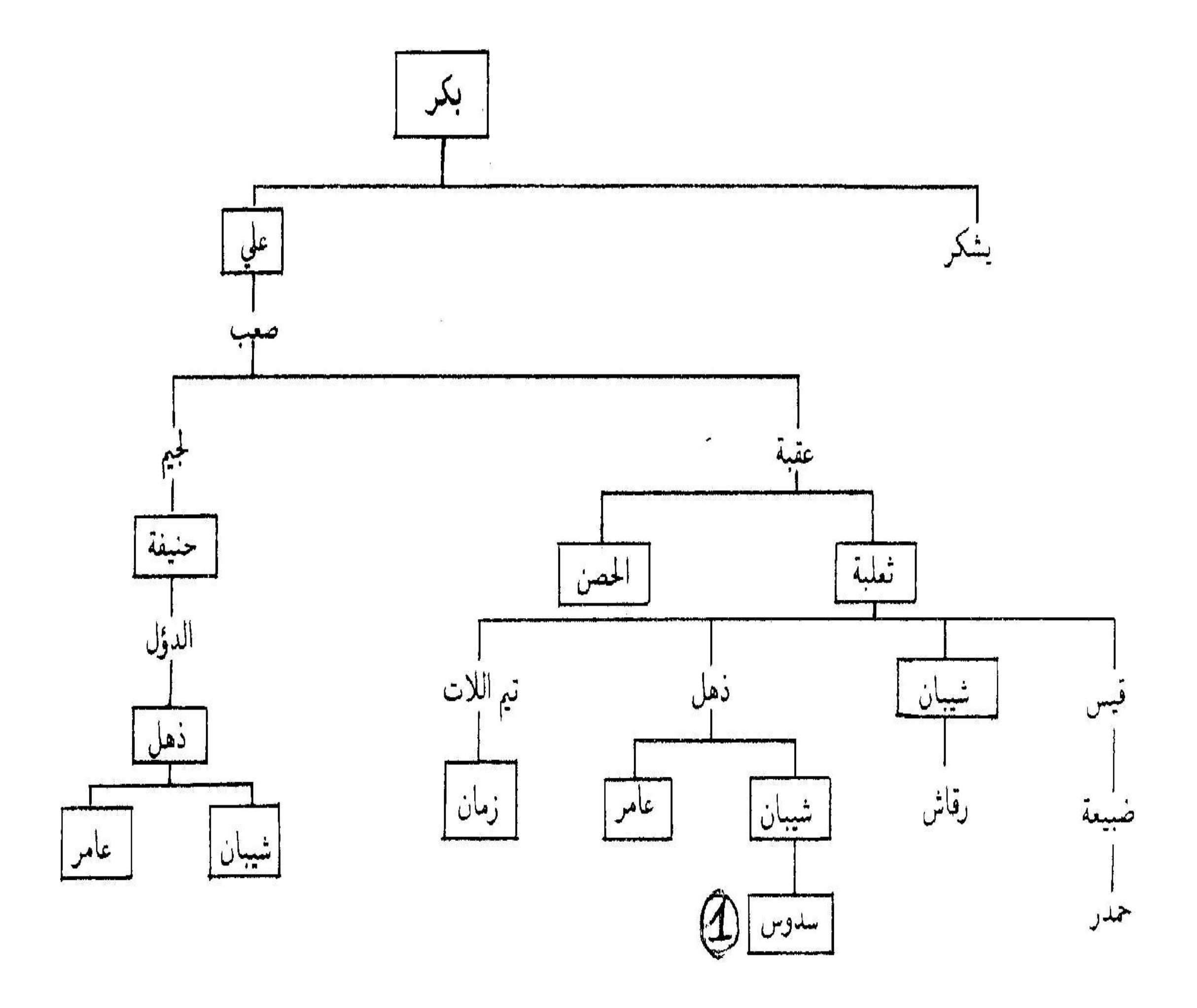
المفتاح

1. آل عرّادة من يربوع بن مالك

(1) شارل بللات: نفس المرجع، ص61.

- الملحق رقم 15:

قبيلة بكر وفروعها



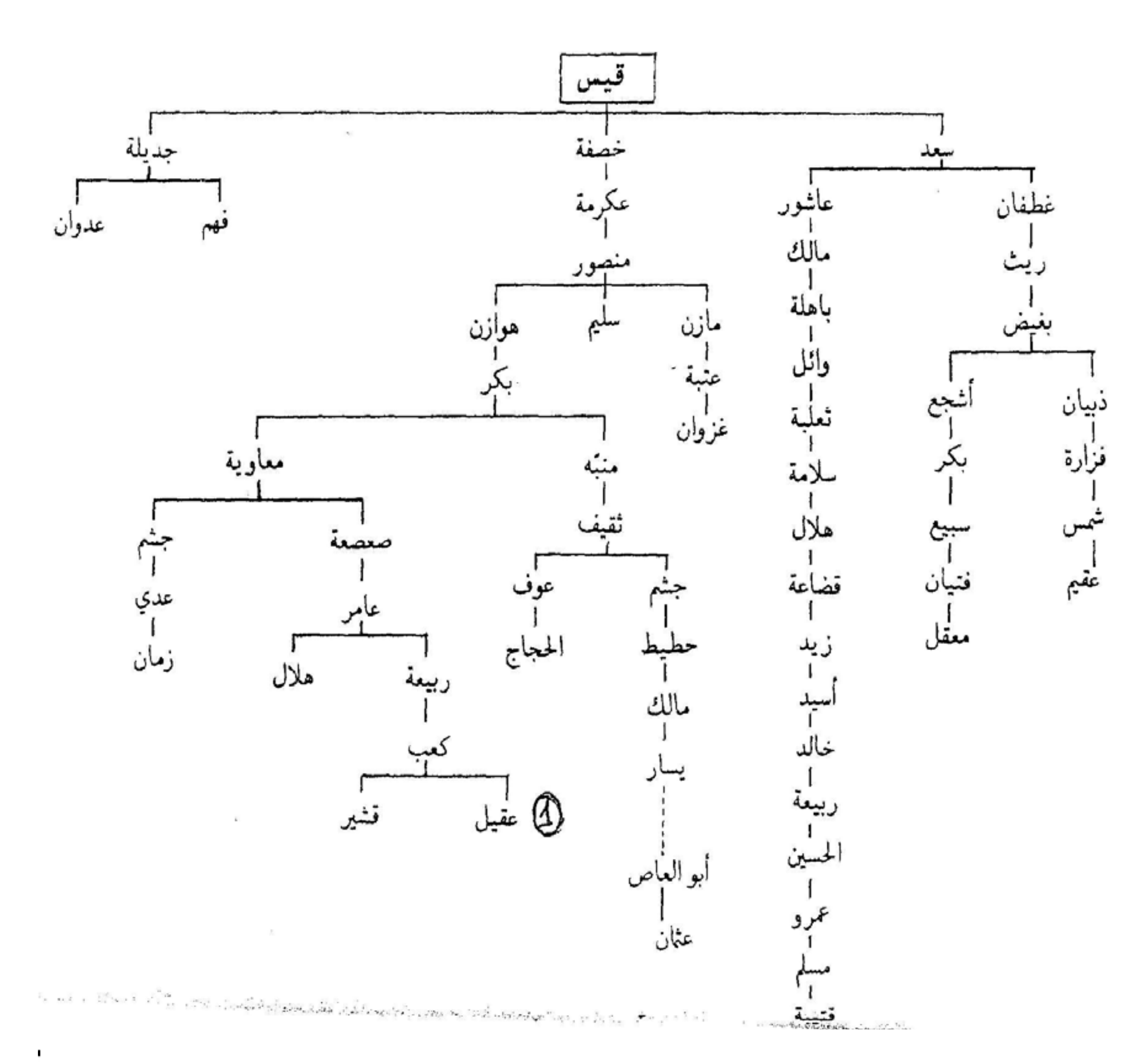
المفتاح

1. بنو سدوس

(1) شارل بللات: نفس المرجع، ص62.

- <u>الملحق رقم 16:</u>

<u>قبيلة قيس وفروعها</u>



<u>المفتاح</u>

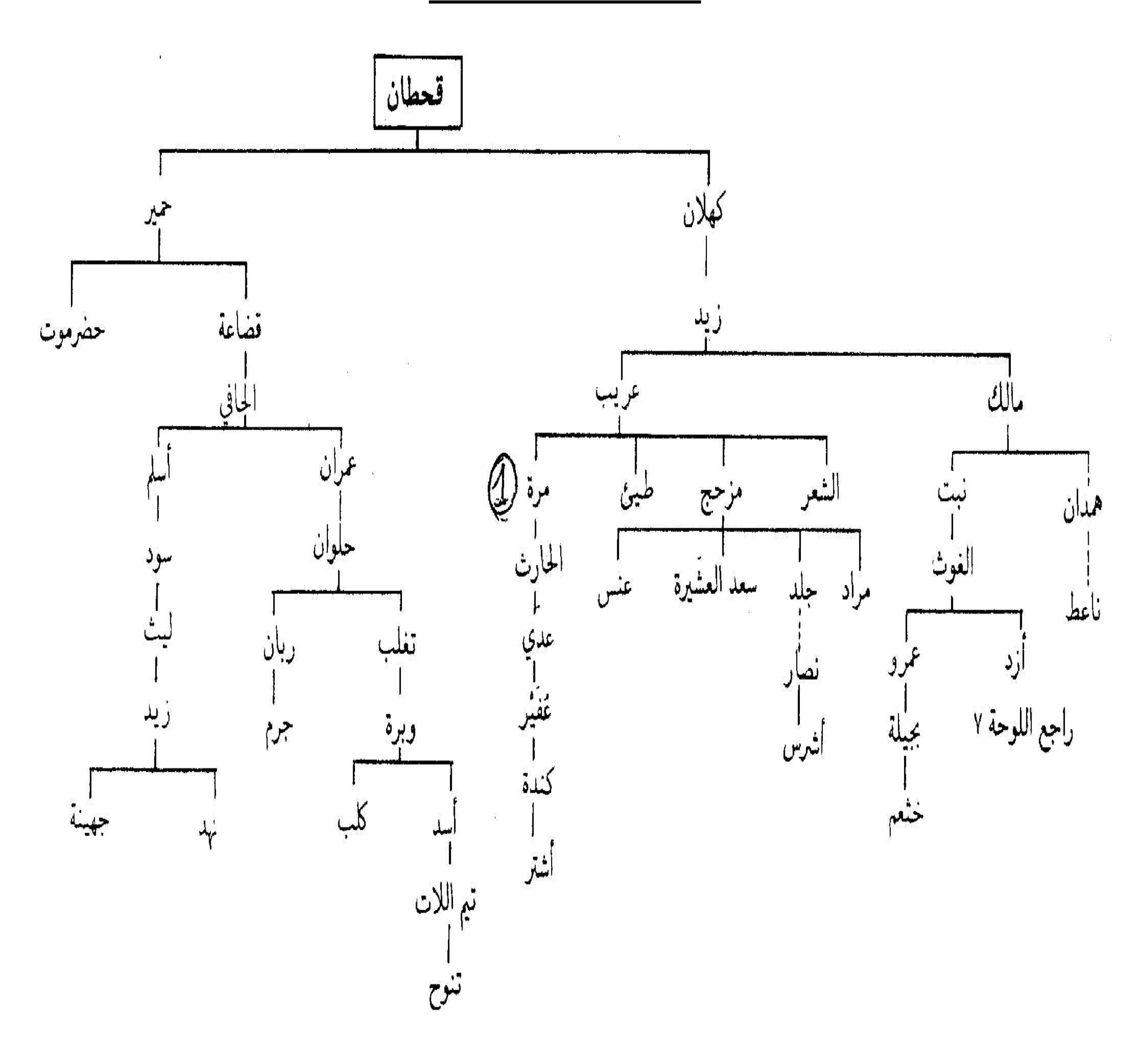
1. بنوعقيل

---

(1) شارل بللات:نفس المرجع، ص64.

- الملحق رقم 17:

القبيلة اليمانية وفروعها



المفتاح

1. مرة

(1) شارل بلات:نفس المرجع، ص65.

فهرس الأعلام والأماكن والقبائل والآيات

1- فهرس الأعلام:

الفاء

الكاف

الميم

2- فهرس الأماكن:

3- فهرس القبائل العربية وغير العربية:

4- فهرس الفرق الدينية والكلامية:

أ- الفرق الدينية السياسية الإسلامية:

ب- الفرق الدينية الكلامية الإسلامية:

ت- الفرق الدينية غيرالإسلامية:

4- فهرس الآيات القرآنية:

قائمة المصادر و المراجع

أولا- المصـــــــــادر:

1. القـــرآن الكريـــــم.
2. إبن الأثير(الإمام العلامة أبو الحسن علي أبي الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعزالدين ت 630هـ):الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج5و6، طبعة ثالثة1400هـ/1980م، الجزء الخامس و السادس.
3. الأصفهاني(أبو الفرج):الأغاني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1959م، المجلد الرابع عشر.
4. الأصبهاني(أبو القاسم حسين بن محمد الراغب):محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، المجلدان الأول والثاني.
5. البغدادي(عبد الظاهر بن محمد الإسفرائيني التميمي ت 469هـ/1037م):الفــرق بين الــفرق، تحقيــق و ضبط الشكل و التعليق على الحواشي محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان.
6. البلاذري(الإمام أبو الحسن):فتوح البلدان، راجعه و علّق عليه رضوان محمد رضوان، مطبعة السعادة، مصر، 1959م.
7. إبن تيمية:الرسالة التدمرية في التوحيد و الأسماء و الصفات و القضاء و القدر، مكتبة التراث الإسلامي، شركة شهاب الجزائر، بن عكنون، الجزائر، طبعة 1989م.
8. الثعالبي(أبو منصورعبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت429هـ):تحفة الوزراء، تحقيق حبيب علال راوي والدكتورة إبتسام مرهون الصفار، دارالأفاق العربية، الطبعة الأولى1420هـ/2000م.
9. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):الحيوان، تحقيق و شرح عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1949م، الأجزاء السبعة.
10. ....:مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق وتعليق الدكتور محمود طه الحاجري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،1982م.
11. ....:البخلاء، وضع حواشيه محمد عبد الكريم النمري، دارالكتاب الحديث، القاهرة، الكويت، الجزائر، الطبعة الثالثة 1426هـ/2005م.
12. ....:البيان و التبيين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1968م، المجلدان الأول و الثاني.
13. ....:البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، مجلد واحد.
14. ....:البغال، قدّم له وشرحه الدكتور علي بو ملحم، دارمكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 1429هـ/2008م.
15. ....:المحاسن والأضداد، قدّم له وشرحه الدكتورعلي بو ملحم، دارمكتبة الهلال، بيروت، لبنان.
16. ....:رسائل الجاحظ، قدّم لها الدكتور علي بو ملحم، دارمكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الأخيرة 2004م.

17. إبن حجر العسقلاني(الإمام الحافظ أحمد بن علي 773هـ/856هـ):فتح الباري في شرح صحيح البخاري- طبعة مزيدة بفهرس أبجدي بأسماء كتب صحيح البخاري- قرأ أصله تصحيحا وتحقيقا عبد العزيز بن عبد الله بن باز كما رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي وقام بإخراجه وصحّحه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، م12.
18. إبن خلدون(عبد الرحمن):المقدمة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة سابعة 1409هـ/1989م.
19. الذهبي(الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت748هـ/1374م):سيرأعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 1405هـ/1985م.
20. إبن سعد:الطبقات الكبرى، دارصادرللطباعة والنشر، داربيروت للطباعة والنشر، بيروت 1376هـ /1957م.
21. إبن سينا(أبوعلي):الإشارات والتنبيهات مع شرح نصر الدين الطوسي، تحقيق سليمان دينا، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية 1950م، القسم الثاني.
22. السيوطي(الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر):تاريخ الخلفاء، خرّج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد، دار البيان الحديثة، طبعة أولى 1426هـ/2005م.
23. ....:الإتقان في علوم القرآن، خرّج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، طبعة أولى 1427هـ/2006م.
24. الشهرستاني(أبو الفتح عبد الكريم ت548هـ):الملل والنحل، صحّحه وعلّق عليه الأستاذ أحمد فهمي، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
25. إبن طباطبا(الإمام محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي):تاريخ الدول الإسلامية(الفخري في الأداء السلطانية والدول الإسلامية)، دار بيروت للطباعة و النشر، لبنان، 1380هـ/1960م.
26. الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير):تاريخ الطبري(تاريخ الأمم والملوك)، عن طبعة المطبعة الحسينية، مصر، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
27. إبن العبري(غريغوريوس الملطي):تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه ووضع حواشيه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، طبعة 1958م.
28. إبن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد):العقد الفريد، دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة 1402هـ/1982م.
29. الغزالي(أبوحامد بن محمد ت505هـ):إحياء علوم الدين، بذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار، للإمام زين الدين أبي الفضل العراقي، ضبط وتوثيق، أحمد إبراهيم وأحمد عنابة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة أولى 1426هـ/2005م، الجزآن الآول والثالث.
30. الفرياني(أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض ت301هـ):كتاب القدر، تحقيق الأستاذ خالد مصطفى طرطوسي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى1427هـ/2006م.
31. القلقشندي(أبو العباس أحمد بن علي ت821هـ/1418م):صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية و مذيلة بتصويبات و إستدراكات وفهارس تفصيلية مع دراسة وافية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، طبعة محرم1383هـ/جويلية1963م، الجزآن الأول والثاني.
32. إبن قتيبة الدينوري(أبو محمد عبد الله بن مسلم):تأويل مختلف الحديث، تحقيق رضى فرج الهمامي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبعة 1426هـ/2005م.

33. الكتبي(محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي ت764هـ):فوات الوفيات(هو ذيل على وفاة وفيات الأعيان لإبن خلكان)، حققه وضبطه وعلّق على حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد)، مطبعة السعادة، مصر، الجزء الثاني، أوت1951م.
34. إبن كثير(الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي):البداية والنهاية، راجعه و خرّج أحاديثه وعلّق عليه محمد تامر، محمد عبد العظيم، شريف محمد، محمد سعيد محمد، دار الوعي للنشر والطبع والتوزيع، الجزائر2006م، الأجزاء الرابع والخامس والسادس.
35. إبن المرتضى(أحمد):طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة ديقلد قلزر، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1960م.
36. المبرد(أبو العباس محمد بن يزيد):الكامل، عرضه وعلّق عليه محمد أبو الفضل السيد شحاته، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الأجزاء الأربعة.
37. أبو منصور(عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ت429هـ):تحفة الوزراء، تحقيق حبيب علي الراوي والدكتورة إبتسام مرهون الصفار، دارالأفاق العربية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م.
38. المسعودي(أبو الحسن بن علي):مروج الذهب ومعادن الجوهر، تقديم محمد السويدي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1990م، الأجزاء الثاني والثالث والرابع.
39. إبن المقفع(عبد الله):كليلة و دمنة، تقديم مرزاق بقطاش، موفم للنشر، 1988م.
40. إبن منظورالإفريقي المصري(الإمام العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم):لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة أولى، بدون تاريخ.
41. إبن النديم(محمد بن إسحاق المعروف إسحاق أبي يعقوب الورّاق):كتاب الفهرست، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1427هـ/2006م.

ثانيا-المراجـــــــــع:

1- بالعربيـــــــــــة:

1. آدم متز:الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة 1999م، الجزآن الأول والثاني.
2. أحمد أمين:ضحى الإسلام(بحث في الفرق الدينية من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج كما يبحث في تاريخهم السياسي وأدبهم)، دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة، بدون تاريخ.
3. أحمد كمال زكي:الحياة الأدبية في البصرة، إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار المعارف، مصر 1971م.
4. أحمد حيدوش:الإتجاه النفسي في النقد العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر طبعة1989/11/11م.
5. أحمد الهاشمي:جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب، دار الفكر، مصر، الجزآن الأول والثاني بدون تاريخ.
6. إحسان النص:الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

7. د/ إنعام الجندي:الرائد في الأدب العربي، دارالرائد العربي، لبنان، الطبعة الثانية 1420هـ/1999م.
8. د/ بلقاسم الغالي:الجانب الإعتزالي عند الجاحظ، دارإبن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1420هـ/1999م.
9. جميل جبر:الجاحظ و مجتمع عصره، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان1958م.
10. حنّا الفاخوري:الجاحظ، دارالمعارف مصر، الطبعة الرابعة 1971م.
11. ....:تاريخ الأدب العربي، دارالأصالة، الجزائر، المكتبة البوليسية، لبنان، الطبعة الأولى 1411هـ/1990م.
12. زهدي حسن جارالله:المعتزلة(رسالة تبحث في تاريخها وعقائدهم وأثرهم في تطور الفكر الإسلامي) مطبعة مصر، القاهرة 1366هـ/1947م.
13. حسني زينة:العقل عند المعتزلة، منشورات دارالأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1400هـ/1980م.
14. د/ حسن إبراهيم حسن:تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي في العصر العباسي الأول في المشرق و مصر والمغرب والأندلس132هـ/232هـ-747م/849م، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة 1964م.
15. حسين مروة:النزعات المادية في الفلسفة العربية- الإسلامية(المعتزلة، الأشعرية ، المنطق)، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2،2002م، الجزء الثاني.
16. د/ رشيد البندر:مذهب المعتزلة من الكلام إلى الفلسفة(دراسة في نشأته ومبادئه ونظرياته في الوجود)، دارالطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1415هـ/1994م.
17. زيغريد هونكه:شمس العرب تسطع على الغرب(أثرالحضارة العربية في أوربا، فضل العرب على أوربا)، ترجمة الدكتورفؤاد حنين علي، مكتبة رحاب، الجزائر، طبعة 1406هـ/1986م.
18. شارل بللات:الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء، ترجمة الدكتورإبراهيم الكيلاني، دارالفكر للطباعة والنشروالتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 1406هـ/1985م.
19. شوقي ضيف:العصرالإسلامي، دارالمعارف، مصر، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.
20. د/ طه الحاجري:الجاحظ (الأديب و آثاره)، دارالمعارف، مصر، الطبعة الثانية 1969م.
21. عبد القادرصالح:العقائد والأديان، دارالمعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1427هـ/2006م.
22. د/ صبحي الصالح:مباحث في علوم القرآن، دارالعلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، كانون الثاني 1968م.
23. عبد الرحمن بدوي:مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، جانفي 1979م.
24. د/ علي محمد الصلابي:الدولة الأموية (عوامل الإزدهارو تداعيات الإنهيار)، مؤسسة إقـرأ للنشـر و التوزيع و الترجمة، الفسطاط، الطبعة الأولى 1426هـ/2005م.
25. ....:الإمام أبو حنيفة، دار إبن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م.
26. د/ علي نجيب العطوي:بشار بن برد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1411هـ/1990م.
27. د/ علي زيعور:الفلسفة العملية والنظرية في الهند والصين، دارالنهضة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1426هـ/2006م.
28. عزالدين إسماعيل:في الأدب العباسي الرؤية والفن، دارالنهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1975م .

29. عمر فاروق:التاريخ الإسلامي و فكر القرن العشرين، مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
30. علي سامي النشّار:نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دارالسلام للطباعة و النشرو التوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1429هـ/2007م.
31. كامل عويضة:الجاحظ (الأديب والفيلسوف)، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1413هـ/1993م.
32. كاظم جطيط:دراسات في الأدب العربي، دارالكتاب اللبناني، الطبعة الأولى1997م.
33. د/ محمود أحمد كامل أحمد:مفهوم العدل في تفسير المعتزلة للقرآن الكريم، دارعمار(شركة شهاب)، الجزائر1983م.
34. محمد الصغير بناني:النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م.
35. مارون عبود:أدب العرب(مختصر تاريخ نشأته و تطوره و سير مشاهير رجاله و خطوط أولى من صورهم)، دارالثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 1398هـ/1399هـ-1978م/1979م.
36. محمد أبو زهرة:الإمام زيد، دارالفكر العربي، مصر.
37. د/ محمد نصر مهنا:الفتوحات الإسلامية والعلاقات السياسية في آسيا، منشأة المعارف الإسلامية، الإسكندرية(جلال حربي و شركاه)، 1990م.
38. د/ محمد زغلول سلام:تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، دارالمعارف، مصر، بدون تاريخ، الجزء الأول.
39. مصطفى الشكعة:الشعر و الشعراء في العصر العباسي، دارالعلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، جانفي1979م.
40. محمد الغزالي:الإسلام والطاقات المعطلة، نشرالزيتونة للإعلام و النشر، باتنة، الجزائر 1407هـ /1987م.
41. محمد عبد المنعم خفاجي:أبو عثمان الجاحظ، دارالكتاب اللبناني، بيروت، طبعة 1982م.
42. محمد كرد علي:أمراء البيان، دارالآفاق العربية، القاهرة، طبعة 1424هـ/2003م.
43. أ، د/ يحي هاشم حسن فرغل:الفرق الإسلامية في الميزان، دارالآفاق العربية، مصر، الطبعة الأولى 1428هـ/2007م.
44. محمد قباني:الدولة الأموية من الميلاد إلى السقوط ،داروحي القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى1427هـ/2006م.
45. يحي وهيب الجبوري:الكتاب في الحضارة الإسلامية، دارالغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1998م.
46. أ/د يحي هاشم حسن فرغل:الفرق الإسلامية في الميزان، دار الآفاق العربية، مصر، الطبعة الأولى 1428هـ/2007م.
47. نجيب العقيقي:المستشرقون، دار المعارف، مصر، طبعة 1965م.

3- المعاجم والموسوعات:

1. إبن منظور:لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
2. د/جميل صليبا:المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتنية، دارالكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، طبعة1979م.

3. الحموي(ياقوت):معجم الأدباء، دار المأمون، مصر، الطبعة الأخيرة، بدون تاريخ، الجزء السادس عشر.
4. ....:معجم البلدان، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى 1323هـ/1906م.
5. دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي وآخرون، جمادي الثانية1352هـ /أكتوبر1937م.

2- باللغة الأجنبية:

1- Albert Nader ;L e système philosophique des m’utazila(les premier penseur de l’islam),2eme edition,dar el maghreb,sarl,beyrouth1984.
2- Majid fakhry; A history of islamic philosophy, longman, columbia, university press, new york, secand edition 1983.
3-Nabhani koribaa : Docteures letres (les philosophes de l’islam), sned alger 1980.